



مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية  
سلسلة تاريخ المغرب

# سلا ورباط الفتح

## أسطولهما وقرصنتهما الجهادية

تأليف  
جعفر بن أحمد الناصري

تحقيق  
أحمد بن جعفر الناصري

الجزء الأول  
(من ستة أجزاء)

1427 هـ - 2006 م

- السبب الثاني : كونه ينتمي - من جهة أمه<sup>(1)</sup> - إلي بيت عريق، لا في العلم فحسب، بل وفي الجهاد البحري أيضاً، حيث خرج من ضئضئ رجاله عدد من الرؤساء والأميرالات الذين جلّوا في هذا الميدان، وكان لهم فيه بدأ وعودة، دفاعاً عن حوزة الوطن الذي نشبت فيه مخالب الاستعمار، وحماية لبيضة الإسلام الذي تناول عليه المبشرون والرهبان، فتأقت نفسه إلى البحث في تاريخ هذا الجهاد البحري، والتنقيب عن جوانبه الغامضة، والتعرف على الرجال الأشاوس، والمحاربين الصناديد الذين قاموا به بكل شجاعة وإقدام، في ظروف جدّ صعبة، وبوسائل غالباً ما كانت دون وسائل أولئك الخصوم الذين كانوا يقارعونهم في أعالي البحار...

- السبب الثالث : كونه أراد بهذا العمل إزاحة النقاب عن حقبة مهملة منسية من تاريخ المغرب - وهي حقبة الجهاد البحري - أعقبت أقول نجم الإسلام عن الديار الأندلسية، وطمس معالم حضارتها اللامعة بأصقاعها، وطرد سكانها المسلمين من ربوعها، بمنتهى القسوة والشدة والغلظة، في ظروف مأساوية ينفطر لها الجنان، وشَره الدول الأوروبية إلى النزول بالسواحل المغربية واحتلالها، تمهيداً لفرض سيطرتهم على البلاد بأجمعها ؛ ولم يولها أحد من المعنيين بها، ولا الذين جاعوا من بعدهم، عناية كافية تجعلهم يجمعون للأجيال الآتية أخبارها بكيفية منظمة ومنسقة ومعقّقة، حيث أن كل ما خلفوه لنا من أخبارها هو جمل وتنفّ وردت متفرقة عرضاً أثناء الكلام على قضايا أخرى، بينما دون لها - لمصلحتهم الخاصة - الكثير من الأخبار، الأجانب الذين احتكوا بالمغرب ورجاله، من فرنسيين وإصبانيين وإنجليزيين وبرتغاليين وهولنديين، وغيرهم، وحفظوا لها الكثير من الوثائق، وترجموا للعديد من أولئك الذين برزوا على مسرح أحداثها...

وحرصاً منه على ملئ هذا الفراغ، تصدّى جعفر الناصري بعزم وإخلاص إلى البحث في هذا الموضوع، وأولاه كامل عنايته، وأمعن في تحليل أخباره، وتوفّق في تنسيق عناصره، بعد

(1) هي السيدة البتول بنت الفقيه العلّامة محمد عوّد، وحفيدة الأميرال الحاج الهاشمي بن الرئيس الحاج أحمد عوّد الذي أسند إليه السلطان سيدي محمد بن عبد الله رئاسة الأسطول القرصاني السلاوي الرباطي، وفوّض له فيه تفويضاً تاماً شاملاً، حتى كائنه وزير للبحرية، بظهير مؤرخ بـ 2 ربيع الثاني عام 1179، أثبتته مع صورته مؤرخ الدولة العلوية المولى عبد الرحمان بن زيدان في كتابه : «إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس». ج 3، ص 264-265، وهذا الأميرال هو جدّها للأُم. كما أن الرئيس الأميرال الحاج بن حسن بن أحمد عوّد هو جدّها للأب.

جمعه لأوابده وشوارده، وأبرز للعيان ما تُنُوسِي وأهمل من مكنونه، وجلب إلى واضحة النهار ما كان مدفوناً في غياهب الخزائن، مبعثراً في الأوراق والدفاتر، يصعب تتبعه في مضائته، والاهتداء إليه في أماكنه ومكانه، فجاء عمله هذا وكأنه شهادة صادرة لأول مرة - على ما في علمي - من مغربي مسلم ينتسب إلى أهل إحدى الحاضرتين اللتين منهما انبثق ذلك الجهاد البحري - أو القرصنة، كما كان يُعبّر عنه آنذاك - الذي أقلق راحة أوروبا رداً من الدهر، وأقام وأقعد ملوكها، وعرقل بسط هيمنتها ونفوذها على إفريقيا الشمالية طيلة أحقاب وأجيال، وأكسب المغرب هالة من المناعة والاعتبار في العالمين الإسلامي والمسيحي، دامت له إلى أن احتلّ الفرنسيون الجزائر، وهبّ المغرب للدفاع عنها ونصرتها، كعاداته، وكانت وقعة «إيسلي» التي محصّ الله فيها المغاربة، وكانت من أدهى وأمرّ كبواته...

وأظن أنه لم يكتب أحد من بني جلدة جعفر الناصري في هذه المسألة مثل ما كتب هو فيها. فقد أحاط بموضوعها، واستقصى مادته، واستوعب شعبه جملة وتفصيلاً، مع حسن تبويب وعرض، وتناسب وبيان، مخللاً ذلك بنوادر وأدبيات وأشعار، وتراجم أعلام، في تنسيق محكم، وتصوير بديع للأحداث، ظهر من خلاله جانب من جوانب تاريخ المغرب المجيدة، وزال الغبار عن صفحة مشرقة من صفحاته الخالدة، لما كانت الأيام مقبلة، والدنيا خادمة، وكانت الدول الأوروبية العظمى تُقدّر قدره، وتخطب وده، وتسارع إلى تلبية رغبات ملوكه<sup>(2)</sup>...

ولما كان هؤلاء يتعاملون مع ملوكها معاملة النّد للنّد، ويتبادلون معهم السفارات والهدايا، ويعقدون معهم المعاهدات السياسية، والصفقات التجارية...

ولما كان سفراؤه، أمثال محمد تميم التطواني، وعبد الله بن عائشة السلاوي، ومحمد بن عبد الوهاب الغساني، وأحمد بن حدّو العطار الريفي، والحسن بن محمد سكيريدو الرباطي، ومحمد بن عثمان المكناسي، وغيرهم، يُستقبلون في بلاطات وقصور باريز ومدريد ولندن وقينا وناپولي وأمستردام وسطوكهولم، بمنتهى الحفاوة والتعظيم، ويحظون بكامل التقدير والإعجاب، من لدن ملوكها وأقيالها ونبلاتها ووزرائها، لما كانوا يتحلّون به من حسن سلوك، ورقة طبع وبراعة فروسية، وحدة ذكاء، وتمسك بالمبادئ، وعجيب توقيع...

فكانوا يتعجبون غاية العجب من ذلك، ويقولون: «كيف يمكن أن يكون هؤلاء المغاربة «البرباريون» (Les Barbaresques) على هذا المثال الأسمى من الأدب واللطف والتمدن؟

وخلال تناوله للأحداث، وسرده للوقائع والأخبار، لم يحد المؤلف عن دائرة الموضوعية

(2) «الاستقصا»، ج 7، ص 94-95، طبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

والمعقول، محاولاً في نفس الوقت - كلما دعت الضرورة إلى ذلك - دحض مزاعم بعض الباحثين والمؤرخين الأوروبيين الذين كانوا، تارةً يبالغون في انتقاد سلوك المغاربة وعوائدهم، لجهلهم لها، أو لمخالفتها لسلوكهم وعوائدهم، أو تعصباً لحضارتهم التي كانوا يعدونها أرقى من حضارة غيرهم، وتارةً يتعمدون تغيير الواقع، وعدم الإخبار بالحقيقة، تقليلاً للأهمية، وتنقيصاً من شأن أولئك القوم، لحاجة في نفس يعقوب.

قسم المؤلف دراسته إلى أربعة أقسام :

- القسم الأول : (الجزآن : الأول والثاني)

ضمّنه تاريخ العُدوتين الرقراقيتين : سلا ورباط الفتح، منذ نشأتها إلى العصر الحاضر، وجعل له مباحث تدرج في فصول، على حسب الأزمنة والدول، منذ عهد بني يَفْرَن إلى عهد الدولة العلوية. فبيّن كيف نشأ العمران وازدهر بهما في عهد كل دولة، وما خلّفته من الآثار الباقية، الشاهدة باعتمادها بهما، ووصف كل بناء من تلك الآثار، كالأسوار والأبراج والحصون والأبواب والمساجد والمعاهد والمدارس والزوايا، وغير ذلك وصفاً كاشفاً.

وأطال الحديث في كيفية عمران مدينة سلا في أول عهدها . وخصّ «بني عشرة» الذين مصّروها وعمّروها بدراسة ضافية، وترجم لعدد من أعلامها، وخلّل ذلك بأدبيات وأشعار، وذكر ما تجدد في هذه المدينة من حوادث، كأيواء لسان الدين ابن الخطيب إليها في دولة بني مرين، وأسهب في الكلام على ثلاثة مشاهد مشهورة بها : المسجد الأعظم ومدرسة أبي الحسن، وزاوية النّسّاك، دون إهمال باقي المآثر الموجودة بها .

ثم انتقل للحديث عن حدوث رباط الفتح وعمرانه، لما بلغت الدولة الموحدية أوج عظمتها، أيام واسطة عقدها، يعقوب المنصور، وخصوصاً بعد الهجرة الأندلسية، وازدهار الحضارة به ازدهاراً لافتاً للأنظار، ونَبّه على أنه أُسّس من أول يوم ليكون صلة وصل بين مدن المغرب الشمالية والجنوبية، ومجتمعاً للجيش المرابطة فيه، بقصد الجهاد والعبور إلى العُدوة الأندلسية ؛ وعلى أنه كان دائماً محلّ اعتناء الملوك به، بتردّدهم عليه، وإقامتهم به، إلى أن أصبح في عصرنا هذا عاصمة المملكة المغربية.

وخصّ كلاً من شالة ومسجد حسان وقصبة الأوداية بدراسة شاملة أظهرت فخامة ومحاسن كل واحد منها .

وختم كلامه عن هاتين المدينتين المتقابلتين بمقامتين أدبيتين تجلّت من خلالهما روائع هاتين الحاضرتين، وأتبع ذلك بباقية من مختار الأشعار البديعة الرائقة التي قيلت فيهما وفي قطأنهما .

### القسم الثاني : (الجزآن : الثالث والرابع)

خصَّصه للكلام عن القرصنة بصفة عامة، منذ نشأتها، وعن أسبابها، وحوادثها، وعواقبها، وما احتفَّت به من مصائب وأهوال، وفتنة في الدين، وطول أسر واسترقاق، وأتى - للذكرى والعبرة - بأسماء مائتي مغربي نالهم العذاب في السجون والسفن المجذافية (les galères) الفرنسية، ونَبَّه على أنها تعاطتها جميع الدول التي كان لها شأن وأساطيل وسواحل بحرية، لأسباب عدة، ثم بيَّن أن القرصنة السلاوية الرباطية، كانت قبل كل شيء، وفي معظمها جهادية، دفاعاً عن النفس والدين والوطن، وجواباً عن طرد المسلمين من الأندلس، ثم تصدياً لمحاولات الدول الأوروبية الهيمنة والاستيلاء على شواطئ المغرب، وعَرَف ببعض الأعلام الذين كانوا ضحية لأعمال القرصنة الأوروبية ...

وبعد ذلك تفرَّغ للكلام بتفصيل وبيان عن السفارات التي تبادلها ملوك المغرب مع ملوك أوروبا لفكك الأسرى بين الطرفين، وإقرار السلم بينهما، وتسهيل التجارة، ووضع حد نهائي للقرصنة والاسترقاق الناجم عنها، وبيَّن حرص المغرب على ذلك، متمثلاً في الرسالة التي بعث بها السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى لويس السادس عشر، طالباً منه في نفس الوقت إبلاغ فسوها إلى باقي ملوك أوروبا. لكن هذه الصرخة الإنسانية المدوية من أرجاء المغرب لم تجد، مع الأسف، أذاناً صاغية بأوروباً.

### القسم الثالث : (الجزء الخامس)

تطرَّق فيه المؤلف للكلام عن الأسطول المغربي عبر التاريخ، من بداية الفتح الإسلامي إلى أوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، عندما استقر الأندلسيون بالعدوتين السلاوية - الرباطية، وكان كمقدمة للتفرغ إلي الحديث عن الأسطول القرصاني السلاوي - الرباطي، وعن أعماله القرصانية بصفة خاصة.

فبيَّن أن هذا الأسطول كان فيما سلف من الدهر، تُخشى صولته، وتُتقى في البحار جولته ؛ وما كان قائماً به من مواصلة بين العدوتين المغربية والأندلسية، وياقي مراسي البحر الأبيض المتوسط، وسائر موانئ العالم الإسلامي ؛ وأنه هو الذي ساعد على نشر حضارة الشرق بين أمم هذا البحر، فامتزجت بحضارة الغرب، وتكونت منها حضارة إسلامية بالبلاد الأندلسية، وعمت بعد ذلك سائر إفريقيا الشمالية، وعطَّر أريجها جنوب القارة الأوروبية.

ثم تصدَّى للكلام بإسهاب عن الأسطول القرصاني السلاوي - الرباطي، فذكر أنه صال وجال حيناً من الدهر في البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي ، وأن رؤساءه وبحريته كانوا يمخرون عُبابهما، ويتخلَّلون شواطئ أوروبا، ويصلون إلى الدول الإسكندنافية

وسواحل إيسلاندا، بالشمال، وطرفاً من إفريقيا والجزر الخالدات وجزر أسوريس (Açores)، جنوباً؛ وأنه كان الشجاء في حلق الدول الغربية المتلهفة إلى الاستيلاء على السواحل المغربية، وأطلعنا بتفصيل عن أنواع سفنه وعدد رجاله، ونظامه، وكيفية معيشة بحارته وأعماله القرصانية، وعظم مغانمه، وكيفية تقسيمها؛ وما كان له من آثار بالغة في الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية بالمغرب الأقصى، إلى أن أخذ هذا الأسطول في الاضمحلال، واضطراً ملوك المغرب إلى تعطيله نهائياً بعد ما ظهرت القوة الخارقة للدول الغربية في جميع الميادين، وانعدم بذلك كل توازن بين القوتين المتحاربتين.

وأنهى كلامه بالإشارة إلى الجهود التي بذلها السلطان المولى الحسن الأول لبناء أسطول مغربي عصري قادر على مسايرة دواعي الدهر، إلا أن تلك الجهود لم يكن لها غد...

#### القسم الرابع : (الجزء السادس)

جعله ذيلًا وتكملة للقسم الثالث من دراسته، حيث حشر فيه ما أمكنه الوقوف عليه وجمعه من أخبار رجال ذلك الأسطول القرصاني الذي حدثنا عنه وعن أعماله آنفاً، في شكل تراجم لرؤسائه وأميرالاته، منها ما هو مطول، ومنها ما هو مختصر، حسب غزارة أو شحّة الأخبار المتعلقة بكل واحد منهم، والتي استقاها من مصادر مغربية وأجنبية، وذلك من بداية القرصنة السلالية - الرباطية في أواخر العهد السعدي، إلى نهايتها في دولة المولى عبد الرحمان بن هشام، مروراً بعهد الأندلسيين وحكومتهم الانفصالية، وعهد العياشي والدلائيين، ثم عهد الدولة العلوية وملوكها : المولى الرشيد، والمولى إسماعيل، والمولى محمد بن عبد الله، والمولى سليمان، والمولى عبد الرحمان بن هشام والمولى الحسن الأول، رحمهم الله.

حرر المؤلف مباحث فصول دراسته بدقّة وموضوعية، واختار لكتابتها أسلوباً عربياً فصيحاً، مشرقاً، يرقى في كثير من الأحيان إلى نشر فني، ونوع فيه التعبير ما بين تسجيح وإرسال، حسبما تقتضيه طرق البلاغة ومقتضيات الأحوال، على النمط الأدبي العتيق، وهو ما أضفى على تأليفه حلة قشبية.

#### عمَلْنَا في تحقيق الكتاب

اعتمدنا في ذلك على النسخة الفريدة الموجودة بخزانة المؤلف، رحمه الله، المكتوبة بخط يده، والمشملة على خمسة أجزاء، مجموع صفحاتها 1024 صفحة، حجمها 20/30، مسطرة، سالمة من كل ما يمكن أن يعتري المخطوطات من عيوب كالبرودة واليبوسة والبتر والتمزيق وعمل الأرضة.

كتبها مؤلفها بالخط المغربي، بقلم أزرق وأحمر في ما يخص عناوينها. وحرص على كتابة مراجعها وإحالاتها، وأسماء الأعلام والأماكن الجغرافية الأجنبية المذكورة فيها بالحروف اللاتينية، لتسهيل قراءتها، ويرتفع كل إشكال في ما يخصها.

هذا، ونريد أن نلفت نظر الواقف على هذه السطور، أننا أضفنا ملحقاً إلى هذا القسم من الدراسة، وهو الجزء السادس، يجمع بعض الوثائق التاريخية ذات الصلة بالموضوع، وصور عدد من المآثر والمشاهد التاريخية لمدينتي سلا والرباط، والله الموفق.

الرباط، في ربيع النبوي 1427/أبريل 2006

أحمد الناصري





## ترجمة المؤلف

هو أبو الفضل، جعفر الناصري، من سلالة حسب ودين، وأسرة عريقة في العلم والصلاح، يتصل نسبه بالشيخ الإمام الشهير محمد بن ناصر الجعفري الزينبي، ثم الدرعي مؤسس الزاوية الناصرية بتماكروت، جنوب المغرب.

ولد بسلا في 23 شوال عام 1310، الموافق لـ 10 ماي سنة 1893، من أبوين كريمين : العلامة أحمد بن خالد الناصري، صاحب كتاب «الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى» والسيدة الفاضلة البتول بنت الفقيه العلامة محمد عواد، وتكفل بشؤون تعليمه وتربيته أخوه الأكبر، العلامة محمد العربي، فأدخله الكتاب القرآني، حيث أخذ في حدائته المبكرة كتاب الله عن أشهر الشيوخ المقرئين بسلا : أحمد التَّيَّال المتوفى عام 1900/1317 ؛ محمد حسيسو المتوفى عام 1907/1324 ؛ محمد بن عبد الله بريتال المتوفى عام 1916/1334، وعن هذا الأخير أخذ أحكام الرسم والتجويد والقراءات السبع.

وتابع بعد ذلك أخذ القراءات عن : الشيخ جُلُول الكفتي العنتري، إمام الزاوية القادرية بتغر الصورة الذي انتقل إليه مع أخيه محمد العربي، وبعد رجوعه إلى مسقط رأسه سلا، أتمَّ دراسته على الشيخين : محمد بوشعرة المتوفى عام 1943/1361، وعبد السلام السهلي المتوفى في نفس السنة.

وقد حفظ جعفر الناصري في صباه المتون العلمية المختلفة حفظاً متقناً، كالمرشد المعين، وألفية ابن مالك، ومختصر خليل، وتلخيص المفتاح، وغير ذلك من المتون الأصولية، وكذلك المعلقات السبع، ودواوين فحول الشعراء الستة، ممّا هو من أصول اللغة العربية.

ثم تفرَّغ بعد ذلك لأخذ العلم بمعناه الأعمّ، وخصوصاً الفنون اللسانية، والعلوم العقلية والنقلية والأدبية، بدءاً مع أخيه محمد العربي، المتوفى عام 1943/1362. وإليه يرجع الفضل في تكوينه الأوّلي بتلقين مبادئ العربية والسيرة النبوية والأصول الأدبية، وسرد الكتب الستة الحديثية، وملازمة المذاكرة في المسائل العلمية المتنوعة، والإرشاد إلى كيفية البحث عنها، والاهتداء إليها، والتصرف في خزائن الكتب لمعرفة مضانها ومصادرها.

ثم مع ابن عمه الطيب بن المدني الناصري، مفتي الديار المغربية، المتوفى عام 1940/1359 وأحمد بن الفقيه الجريري، المتوفى عام 1935/1354 والشيخ السلفي شعيب بن عبد الرحمن الدكالي، المتوفى عام 1937/1356. لازمه إلى وفاته، وهو عمدته، وأجازه بخط يده تلقائياً، ودون سابق رغبة.

ومن جملة ما درس عليه معلقات الشعراء السَّبع، والمعاني والبيان والبديع واصطلاح الحديث والأصول ومختصر الشيخ خليل ؛

ثم مع الفقيه المحدث القاضي محمد الهاشمي ابن خضراء، المتوفى عام 1972/1354 ؛ وقاضي سلا علي بن محمد عواد، المتوفى عام 1935/1354 ؛

على أن أكثر دراسته كانت على يد العلامة النفاة، شيخ الجماعة بسلا، أحمد بن عبد النبي السلوي، المتوفى عام 1972/1392

فقد لازم دروسه، صباح مساء، زهاء عشرين سنة، سواء بالمسجد الأعظم بسلا، أو غيره. حضر عنده في أمهات اللغة وقواعدها والفقه وأصوله، والحديث ومصطلحه، والمنطق، وأدب البحث والمناظرة، وأجازه إجازة عامة، بخط يده، ودون سابق رغبة.

يُضاف إلى هؤلاء الأعلام الذين لازم دروسهم ومجالسهم أعلام آخرون، جمعتهم وإياهم الوظيفة المخزنية زمناً طويلاً، مدة الدولة اليوسيفية وشطراً من الدولة المحمدية، وهم :

عبد الرحمن بن القرشي، محمد الرُّنْدَة الرباطي، الشريف السلفي محمد بن العربي العلوي. فقد استفاد منهم الفوائد الجمّة، وقيد من مذكراتهم ومحاضراتهم أموراً مهمّة، فقهية وأدبية وتاريخية.

وفي أثناء رحلاته بإفريقية الشمالية ومصر والحجاز، اجتمع بعده أعلام، وأجازوه على الطريقة والعادة الجارية بين العلماء في ذلك العهد.

ولما فُتحت المدارس العصرية لتعليم اللغة الفرنسية، كان جعفر الناصري من أوّل الوالدين أبوابها، المنتقلين من ابتدائها إلى ما فوقه، بسلا أولاً، ثم بثانوية مولاي يوسف بالرباط، إلى أن تخرّج منها حاصلاً على المسكة العلمية التي تفتح الأفاق الخارجية في مجال البحث العلمي.

هكذا ازدوجت ثقافة مترجمنا، فكانت في نفس الوقت أصيلة متينة، وحديثة مُنْفَتحة، وعُرف، وهو ما يزال في ريعان الشباب، أديباً ممتازاً وشاعراً رقيقاً، وناثراً بليغاً، وباحثاً مدققاً...

كما أشرب حبَّ علم التاريخ من والده مؤلف «الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى» و«طلعة المشتري في النسب الجعفري» و«كشف العرين عن ليوث بني مرين»، فكانت له جولات في مختلف الميادين الأدبية والتاريخية المتعلقة بعُدوتَي المغرب والأندلس...

وأكثر ما انصبَّ اهتمامه على تاريخ مسقط رأسه سلا، وجارتها رباط الفتح؛ وشغف بابن الخطيب منقَّباً عن آثاره، متتبِّعاً ما يُنشر عنه في الداخل والخارج، مُنشِئاً في شأنه من البحوث والرسائل والقصائد، تحليلاً وتعليلاً، ومعارضة ومحاكاة، وإشادة وتنويهاً، ومنافرة ومنابذة، وتفجعاً ورتاءاً...

انتحل جعفر الناصري الشعر في زمن مبكر، إبَّان التعاطي ومجالس الأُنس مع الأحباب، وخواص الأصدقاء والأتراب. ولم يكن له اعتناء بجمعه وتدوينه، فلم يبق منه إلا النُّزُر اليسير، أثبتته في ديوان صغير ضمَّ شوارده وحفظ أوابده. وقد نُشر بعضه في بعض المؤلفات والصحف والمجلات، وغالبه لا يخرج عن أوصاف الجمال، وعيشة التَّصافي والأُنس والمرح والإخوانيات ومدح الأشياء بمناسبة ختم المُتُون. ولم يخطر بباله قطُّ التخصُّص بالقريض، والطُمُوح إلى الوصف بالشاعر. وإنما كان همُّه من الشعر معرفة مادته، وتحصيل آله، تكميلاً لحياته التربوية، ومعلوماته الأولية، لأن ذلك كمال اللُفتي، ومظهر من مظاهر نخوته ونجدته ومجده، وبه يُعرَف مقامه بين قومه. وإلى ذلك يشير أبو العلاء المعري بقوله :

أَرَى الْمَجْدَ سَيْفًا وَالْقَرِيضَ نِجَادُهُ      وَلَوْلَا نِجَادُ السَّيْفِ لَمْ يُتَقَلَّدِ  
وَحَيْرُ حِمَالَتِ السَّيْفِ حِمَالَةُ      تَحَلَّتْ بِأُبْكَارِ الثَّنَاءِ الْمُخْلَدِ؛

وأبو تمام بقوله :

لَوْلَا خِلَالُ سَنَهِهَا الشَّعْرُ مَا دَرَتْ      بُغَاةُ النَّدَى مِنْ أَيْنَ تَوَتَّى الْمَكَارِمُ

خلف جعفر الناصري ما لا يقلُّ عن عشرين مؤلفاً، نذكر منها :

«المحيط بالمهمَّ من صحراء المغرب وشنقيط»

«الإحصاء لما وقع بعد الاستقصا»

«الكتابة والكتب والمكاتب»

«ابن الخطيب بسلا»

«ماضي القرويين وحاضره»

«الأسطول المغربي عبر التاريخ»

هذا ما يخصُّ بعض إنتاجه الفكري، أما عن حياته وسيرته، فقد كان - رحمه الله - متشبَّثاً بالفضائل والمثل العليا، وعلى جانب كبير من الاستقامة والنزاهة، دمث الأخلاق، لَيِّن الجانب، طَيِّب المعاشرة، عفيف اليد واللسان ؛ اشتهر بذلك عند الخاص والعام.

كما كان مُغرماً بجمع الكتب، شغوفاً بالبحث عن نفائسها، باذلاً الغالي والنفيس في اقتنائها. وقد حكى في تأليفه : «الكتابة والكتب والمكاتب» ما وقع له من النُّادر في تيسيرها، والحصول عليها، كلما تشوّفت النفس للوقوف عليها، أو مراجعة شيء فيها، دؤوباً على نسخ الغريب أو النادر منها، ولا زال بخزانته زهاء عشرين مجلداً بخط يده.

وكانت وفاة جعفر الناصري يوم الأحد 26 ذي الحجة عام 1399، الموافق لـ 16 نونبر سنة 1980، ودُفن بمسقط رأسه، بزاوية أجداده، رحمه الله تعالى.





## الفصل الأول

عن تأسيس سلا  
وعن بني عشرة





## المبحث الأول

### نشوء العمران حول مصب نهر أبي رقراق<sup>(1)</sup>

#### وضعية المغرب الجغرافية الطبيعية

إن وضعية المغرب الجغرافية الطبيعية، كانت إحدى الأسباب التي صرفت الأوربيين عنه، وغلقت أبوابه في وجوههم دهرًا طويلًا، مع أنه على رمية سهم من أوربا. ويغمر سواحله شمالًا و غربًا، بحران عظيمان، لهما أثر كبير في الحضارة البشرية منذ عصور وأجيال متطاولة، تجري فيها السفن منذ عرف الإنسان ركوب البحار وتدرّب عليها، وهما : البحر الأبيض المتوسط شمالًا، والمحيط الأطلانطيقي غربًا، لأن سواحلّه على هذين البحرين العظيمين، غير قابلة لإيواء السفن والإرساء فيها بسهولة وأمن واطمئنان.

وإذا وُجِدَتْ بعض الأجوان أو الموانئ السهلة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، فإن المسالك الذاهبة منها إلى الداخل، تصطدم في الغالب بسلاسل الجبال الريفية الشامخة السامقة الصعبة المرتقى، العسيرة التخطي والجوان، إلى البسائط السهلة الخصبة، والمدن والقرى والعمائر، التي هي المغرب الحقيقي.

أما سواحل المحيط الأطلانطيقي، فإنها وإن كانت صعبة أيضا لعدم وجود موانئ طبيعية فيها، فإن الملاحين القدماء اختاروها للولوج إلى داخلية المغرب، لأنها أقل خطرا من غيرها.

ولذلك، نجد القرطاجنيين طرّقوا سواحل المغرب الغربية، وأسسوا فيها مراكزهم التجارية، خصوصا عند مصب الأودية والأنهار في هذا البحر.

---

(1) مقدمة المجلد الخامس من الوثائق غير المطبوعة من «تاريخ المغرب»، سلسلة البلاد المنخفضة للكونت دو كاستري "De CASTRIES" ص 10 وما بعدها.

## مصبّ نهر أبي رقرق

ومن مصاب الأودية المغربية التي نشأ حولها العمران منذ العصور القديمة، مصب نهر أبي رقرق، الجارية مياهه الغزيرة من الأطلس الأوسط. وقد اكتسب وَضْعُهُ الجغرافي هذا أهمية كبرى، لكونه حَدًّا فاصلا بين شمال المغرب وجنوبه.

هذا، ومع أن مجرى أبي رقرق تجتمع فيه الرمال عند مصبه في البحر فتصير حاجزا خطرا على السفن الداخلة إليه، والخارجة منه، فإنهم كانوا يعالجونها أو يجرفونها، وتارة يجرفها التيار في بعض الأحيان. وإذا جاوزته السفن وجدت عمقا جيدا، أو مرسى أمانا ترسي فيه، وتأوي إليه المراكب التجارية، والأساطيل الحربية، لاتخاف دَرَكاً ولا تخشى.

## مدينة سلا الحديثة العامرة الآن<sup>(2)</sup>

وعلى الضفة الشمالية المنخفضة لهذا النهر، تلاحق عمران مدينة سلا الحديثة العامرة الآن، بعد خراب شالة لمقصد حربي في حروب بَرَعَوَاطة، والمرتبط اسمها بالقرصنة الجهادية الرقراقية، أواخر الربع الأول من القرن الثالث الهجري، الموافق لأواخر العقد الرابع من القرن التاسع للميلاد.

وأما سلا القديمة أو شالة، وكيفية حدوثها وعمرانها في العهد القديم، فهو موضوع خاص، وبحث مستقل، يحتاج إلى درس خاص.

كانت عمارة سلا الحديثة، في أول تكوينها، كتلا وعمائر متفرقة من مهاجري شالة، ومن انضاف إليهم من المجاهدين والمرابطين برباطها حول شالة البرَعَوَاطية. ولم تزل تنمو وتسمو إلى أن اتخذها بنو يفرن، ملوك ناحيتها إلى تادلا وما والاها من البلاد، مركزا من مراكزهم، وفي عهدهم تزايد عمرانها، وتواصل بنيانها، وذكر في التاريخ اسمها.

(2) مراجع فصول عمران سلا «جغرافية ليون الإفريقي»، «جغرافية الإدريسي»، «جغرافية ابن حوقل»، «الاستبصار»، «جغرافية أبي القدا»، «معجم البلدان»، «ابن خلدون»، «نفح الطيب»، «الاسقصا»، «إتحاف أشراف الملا» لابن علي الدكالي، «القرصنة السلاوية» لروجي كواندرو.

واشتهرت في ذلك العهد، بمرابطة المجاهدين برباطها للجهاد في البرغواطيين بتامسنا، حتى قيل : إنه في القرن الرابع للهجرة (العاشر للميلاد)، كان يجتمع فيها نحو مائة ألف من المرابطين المجاهدين في سبيل الله.

وفي ذلك يقول مؤرخ سلا أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي السلوي في رجزه المسمى : «إتحاف أشراف الملا، ببعض أخبار عدوتي الرباط وسلا» :

تَمَّتْ دَوْلَةُ بَنِي الْأَقْسَرَانِ أَهْلَ الْجِهَادِ عُظَمَاءِ الشَّانِ

إلى أن قال :

وَاشْتَهَرَتْ فِي عَهْدِهَا الْقَدِيمِ	بِمَرْبِطِ الْجِهَادِ فِي الْإِقْلِيمِ
فِي رَابِعِ الْقُرُونِ كَانَتْ مُجْتَمَعُ	لِمِائَةِ مِثْلِ الْأُلُوفِ قَدْ وَقَعُ
لِغَزْوِ كُفَّارِ الْبَرَابِرِ وَقَدْ	عَمَرُوا تَامَسْنًا وَشَرُّهُمْ وَقَدْ
فَاقْتُلِعَتْ جُرْثُمَةُ الْأَغْمَارِ	مِنْ كُلِّ بَرْغَاطٍ بِلاَ انْكَارِ
وَطَهَّرَ اللَّهُ بِلَادَ الْمَغْرِبِ	بِمَنْ يَهَا رَابِطٌ مِنْ كُلِّ أُبْيِ



## المبحث الثاني

### بنو عشرة

#### تمهيد

منذ سَبْعٍ وعشرين سنة مضت، كان كتب لي الشيخ الفقيه، مؤرخ سلا والباحث في آثارها ومؤثرها، وتراجم علمائها، ومشاهير أعيانها، أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي السلوي، بطاقة يطلب فيها مني إعانتته بالبحث عن ترجمة الأخوين : إبراهيم وأحمد ابني المُدَبِّر، لأنَّ ابن الأَبار ذكر في «أُعتاب الكتاب»، وابن عبد الملك المراكشي ذكر في «الذَّيْل والتكملة لكتابي الموصول والصلة» أن بني عشرة السلاويين ينتسبون إلى أحمد بن المُدَبِّر، وعدُّ هذه الإعانة من الحقوق المتعينة علينا لإحياء مجد سلا وأهلها.

ونص بطاقته :

الحمد لله،

المرجو من السيادة المعظمة، حرس الله مجدها، أن تراجعوا لمحبكم في الله وأخيكم من أجله، ترجمة إبراهيم بن المُدَبِّر، وزير المعتمد على الله العباسي.

فإن القاضي ابن عبد الملك المراكشي ذكر في ترجمة قاضي سلا الشهير، علي بن محمد ابن موسى بن القاسم بن عشرة، أنه ينتسب لأحمد بن المدبر، أخي وزير المعتمد على الله.

ومثله عند ابن الأَبار في «أُعتاب الكتاب».

ولأني لم أعثر فيما عندي من المواد التاريخية على ترجمة الرجلين، فأرغب من السيادة أن تعينوني على البحث في هذا الموضوع، لأنه من الحقوق المتعينة علينا وعليكم، إحياء لمجد سلا وأهلها.

ودمتم في عناية الله والسلام

محمد بن علي الدكالي.

وحيث كانت المهمة في ذلك الوقت مصروقة في درس مسائل أُخرى :

علمية وأدبية، تستغرق ما يفضل من الوقت النفيس الذي كانت تشغله الوظيفة العمومية التي كنا مطوقين بها، فقد اكتفيت في جوابه إذ ذاك بإحالاته على بعض المظان المهمة التي يُظنُّ فيها استيعاب أخبار «آل المدبر» ووجهت له بعض المراجع التي كانت موجودة عندي في خزانتي في ذلك العهد.

ونص ما أجبته به :

الحمد لله، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

وعلى سيادة حبيبنا وصفينا الودود المحبوب، العلامة المؤرخ، أبي عبد الله، سيدي محمد بن علي الدكالي، أذكى السلام وأعذبه وأطيبه ورحمة الله تعالى وبركاته.

وبعد، وصلت بطاقتكم السنية، في شأن البحث عن ترجمة الأخوين : أبي إسحاق، وأبي العباس ابني المدبر...

فليكن في علم السيادة، أننا راجعنا ما أمكننا مراجعته الآن مع ضيق الوقت حرصا على التعجيل بجوابكم، وها خلاصة ذلك.

«آل المدبر هم : أحمد، ومحمد، وإبراهيم، وكلهم كاتب بليغ، وشاعر مجيد، وما منهم إلا من ولي الولايات الجليلة، وعمل للسلطان الأعمال النافعة، في عهد الخلفاء العباسيين من المعتصم إلى المعتضد.

ولأحمد وإبراهيم أخبار حسان، وأثار في كتب الأدب والتاريخ.

وجاء في ذكر مؤلفات الجاحظ أن له كتابا سماه : «كتاب آل إبراهيم بن المدبر في المكاتب»<sup>(3)</sup>.

وقد ترجم لإبراهيم هذا، ياقوت في «معجمه» وأبو الفرج الاصبهاني في «كتاب الأغاني»، (ج 19، ص 114) ترجمة واسعة، كما ذكره أبو جعفر الطبري في تاريخه، وابن الأثير، عند الكلام على دولة المعتمد على الله، والمعتضد بعده، وكذلك فيما قبلهما من الخلفاء منذ المعتصم.

(3) «إرشاد الأديب» لياقوت، ص 108، ج 16.

وكانت وفاته بمدينة منبج سنة تسع وسبعين ومائتين 279 (يناير سنة 894) رحمه الله تعالى.

وورد ذكره أيضا في «الأغاني»<sup>(4)</sup> في ترجمة عريب.

في الجزء 18 صفحة 175 وما بعدها

وفي الجزء 9 صفحة 25

وصفحة 27

وصفحة 108

وصفحة 113

وفي الجزء 19 صفحة 29

وفي الجزء 15 صفحة 88

وأما أخوه أحمد، فلم نعث له الآن<sup>(5)</sup> على ترجمة مستقلة، وإنما وردت أخباره مدرجة في ترجمة أخيه أبي الفرج، ومبعثرة في غيرها من التراجم، فورد ذكره في الأغاني :

في الجزء 5 صفحة 95

وفي الجزء 9 صفحة 27

وفي صفحة 32

وفي الجزء 8 صفحة 41

وها الجزء التاسع عشر من «الأغاني»، والأول من «معجم ياقوت» يصلانكم صحبته لتطالعو ما فيهما، وإن يسر الله في العثور على شيء آخر فسنوافي السيادة به بحول الله.

ونحن على استعداد لإعانتكم بكل ما في وسعنا، لَأَعْدِمُنَا أَخوتكم ومحبتكم وإعانتكم، فانكم أسبق في هذا الميدان، ولا يقع لكم فيه بالشنان، والله يتولى حفظكم، وعلى المحبة والسلام.

(4) طبع الساسي.

(5) نعم ترجم له ترجمة مستقلة ابن عساكر في «تاريخ دمشق» ص 60 من ج 2 طبع دمشق.

## تسميتهم ببني عشرة

ليس لدينا نص صريح نعتمد عليه في سبب تسميتهم ببني عشر، أو تسمية جدهم بعشرة، واشتبارهم بذلك.

وإنما يؤخذ ممّا أحال عليه ابن عبد الملك المراكشي في «الذيل والتكملة» في رسم أبي علي الحسن منهم، انه تكلم على الأسطورة المنسوبة إليهم، وهي أنهم ولدوا عشرة في بطن واحد، ولذلك سموا ببني عشرة، حسبما يؤخذ ممّا نقله عنه الفقهاء مُحَرِّفًا عند الكلام على إيقاف قسم المتروك لأجل الحمل، كما سيأتي بيانه والتنبيه عليه وعلى إصلاح التصحيف الواقع فيه في الفصل المعقود لهذه الأسطورة، آخر هذه الدراسة.

وحيث أننا لم نقف على هذا الرسم المحال عليه، فأننا لا ندري ما انفصل عليه من نفي أو إثبات لهذه الأسطورة، ولعله نفاها، لأنه قال : ويقول بعض الأغمار، كما يؤخذ من النص المُحرَّف الذي نقله الفقهاء.

والذي يظهر لنا، ان اسم جدهم عشرة، منقول من اسم العدد، على عادة أهل الأندلس. فقد كانوا يُسمُّون بالأعداد، كابن عاشر، وابن خمسين، وابن سبعين، ونحو ذلك، فنُسِبُوا إليه وسمُّوا «بني عشرة»، والله أعلم.

## انتساب بني عشرة لآل المدبر وما قيل في ذلك

ذكر بعض المؤرخين وكتَّاب التراجم أن بني عشرة السلاويين ينتسبون إلى أحمد بن محمد بن المدبر العراقي الشهير.

وأول من وقفنا عليه حتى الآن ذكر ذلك أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني المتوفى سنة اثنتين وأربعين وخمسائة (1147/542) في كتابه «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»<sup>(8)</sup> لما ترجم للشاعر أبي بكر محمد بن سوار الأشبوني بلفظة (بلغني) فقال :

وابني القاسم (يعني بني عشرة) خيم كريم، ولهم تقدم مشهور معلوم، بلغني أن جدهم الأكبر أحمد بن المدبر، حامل تلك الفضائل، وصاحب الأعمال الجلائل، إذ كان أحد نجوم تلك الأفاق، ببلاد الشام والعراق، واشتهار معرفة قدره، يمنع عن ذكره...

(8) مخطوط الخزنة العامة بالرباط رقم D 1324. ورقة 148.



ثم أردف هذا التعريف، بذكر نبذة من أخبار ونواذر آل المدبر في عهد المتوكل العباسي.  
وقال ابن الأبار في كتابه «أعتاب الكتّاب»<sup>(9)</sup> في ترجمة ابن الوكيل اليابري الذي استجار  
ببني عشرة في نكبة نزلت به (ويذكر أن جدهم الأكبر، أحمد بن محمد بن المدبر).

ولما ترجم أبو عبد الله محمد بن عبد الملك المراكشي في كتابه «الذيل والتكملة، لكتابي  
الموصول الصلة»<sup>(10)</sup> لابن الحسن علي بن القاسم، من بني عشرة، زاد «الفزاري» وقال : وقد  
تقدم أصل بيان هذه الشهرة في رسم أبي علي حسن منهم، وأعقبه بقوله : «ويذكر أنهم من  
عقب أحمد بن محمد بن المدبر الكاتب، أخي إبراهيم وزير المعتمد وكبيره»، فاتفق في ذلك  
مع ابن بسّام وابن الأبار.

وحيث اتفق هؤلاء المؤرخون الثلاثة على نقل وحكاية هذه النسبة، وإن كانت بصيغة لا  
تدل على الجزم، فيؤخذ منها أنها كانت معروفة مقولة منقولة عند الكتاب والمؤرخين منذ  
القرنين السادس والسابع الهجريين (الثاني عشر، والثالث عشر الميلاديين) لأن ابن بسّام،  
توفي كما تقدم سنة اثنتين وأربعين وخمسائة (1147/542)، وابن الأبار قُتل سنة  
ثمان وخمسين وستمائة (1259/658)، وابن عبد الملك المراكشي توفي سنة ثلاث وسبعمائة  
(1303/703).

أما زيادته في ترجمة أبي علي حسن لفظة «الفزاري» فإننا نتوقف فيها الآن، مادامنا  
نجهل ما قال، ولا ندري ما أحال عليه في الترجمة المذكورة، لفقدان حرف الحاء من النسخة  
المخطوطة التي بين أيدينا، لاسيما وهم ينتسبون إلى ضبة، كما سيأتي بيانه.

ومع أن فزارة وضبة قبيلتان عدنانيتان، فإنه لا يمكن النسبة إليهما معا في أن واحد،  
اللهم إلا أن يكون أراد بقوله الفزاري، النسبة إلى «العُشْرَاء» بضم العين وفتح الشين  
المعجمة. وهم بطن من مازن بن فزارة، وينسب إليهم جماعة من الشعراء، منهم : هرم بن  
قطبة بن سيار الذي تحاكم إليه عامر بن الطفيل، وعلقمة بن علاثة، والربيع بن مقنب الشاعر،  
وغيرهم.

وفزارة من جملة القبائل العربية التي رافقت بني هلال في هجرتهم إلى مصر، ثم إلى  
المغرب الأوسط أولا، والأقصى ثانيا.

(9) ص 244.

(10) مخطوط أبي عبد الله محمد التتواني السلاوي.

وقال القلقشندي في «صبح الاعشى»<sup>(11)</sup> : «إنهم اختلطوا بسكّيم في طرابلس»  
 والحاصل أن النسبة إلى العُشْرَاء، مجرد احتمال لاغير، لأننا لم نعرف مراده بالفزاري.  
 وعليه، فلنعتد النسبة المدبرية ونبحث فيها، ونأتي بشيء من أخبار آل المدبر، وأحمد  
 المنتسب إليه، وكيف انحدر من العراق إلى الشام، ثم إلى مصر.  
 وليس ببعيد ولا غريب أن تكون ذريته تسربت من مصر إلى المغرب الأوسط، لوجود  
 الأسباب الداعية إلى هذا التسرب في ذلك العصر، حسبما سيأتي بيانه مفصلاً في محله.

## المبحث الثالث

### آل المدبر

آل المدبر، بكسر الباء المشددة، كما ضبطها ابن خلكان، وفتحها مشددة كما ضبطها الذهبي في كتاب «المشتبه من أسماء الرجال»، ونص في أوله على أنه لا يضبط من الأسماء بالحروف إلا ما يتعين ضبطه لخلاف فيه.

### أصلهم

اختلف الأخباريون وكتب التراجم وأدباء عصرهم في تحرير نسبهم، وتحقيق أصلهم، وهل هم عرب أم عجم.

فذكر ياقوت في «معجم الأديب» في ترجمة إبراهيم<sup>(12)</sup> أنه كان يدعي النسبة في ضبة ولم يبين هل صليبة أو ولاء.

وضبة بن أد بن طابخة من العدنانية، معودة في جمرات العرب الثلاث، وكانت منازلهم بجوار بني تميم اخوانهم بالناحية الشمالية التهامية من نجد، ثم انتقلوا في الإسلام إلى العراق بجهة النعمانية<sup>(13)</sup>.

وكانوا مع عائشة رضي الله عنها يوم الجمل، وفي ذلك يقول شاعرهم<sup>(14)</sup> :

---

(12) ص 292 من ج 1 طبع مرجليوت.

(13) «قبائل العرب» ص 661 من ج 2.

(14) «تاريخ الطبري» ص 209 من ج 5.

نحن بنو ضَبَّة أصحاب الجَمَل نَنْعَى ابن عَفَّانَ بِأَطْرَافِ الْأَسْلُ  
الموت أحلى عندنا من العَسَل رُدُّوا علينا شيخنا ثم بَجَلْ

وفي نسبتهم إلى ضبة يقول مخلد بن الشامي الحوراني يهجو أحدهم ولعله إبراهيم<sup>(15)</sup>.

على أبوابه من كل وجه قَصَدْتُ له أخو مُرَبِّنْ أَدُّ

يعني ضبة بن أد، ويقصد أن أبوابه مُضَيَّبة باللؤم ومحكمة عن الخير.

وبعد ذكر ياقوت لادعائهم النسب في ضبة قال<sup>(16)</sup> : إن أصلهم من سِتِّمْسِيَّان، وهي غير معروفة، ولذلك علق عليها مُصَحَّحَةٌ مَرَجَلِيَّوت، بأنها لعلها سَلَمْسِين وهي كما في «معجم البلدان»، قرية قرب حرَّان من نواحي الجزيرة بينها وبين حرَّان فرسخ<sup>(17)</sup>.

ولما ذكر ابن حزم في «جمهرة أنساب العرب»<sup>(18)</sup> ضبة أبا القبيلة، وعدد أفضاها ومشاهير من يُنسَبُ إليها، لم يذكر آل المدبر منهم، ولكنه قال : يقال : «إن الديلم من ولده»، فهل آل المدبر ينتسبون إلى ضبة من طريق الديلم ؟

وعلى كل حال فإن أبا عمر يوسف بن عبد البر، قد بسط الكلام في كتابه «القصد والأمم في التعريف بأصول أنساب العرب والعجم»<sup>(19)</sup> على الديلم وانتسابهم إلى ضبة، فقال :

ذكر الشرقي بن القطامي : أنه الديلم بن باسل بن ضبة بن أد، ويزعمون أن باسلاً غزا أرض الأعاجم، فأتى فيهم، ثم مات، فصار ابنه الديلم بمن تبعه من قومه إلى الموضع الذي هلك فيه أبوه باسل، فصادف الأعاجم قد استقام أمرهم وخشي الهلكة، فأنحاز إلى الجبال التي بها الديلم اليوم، فاقام بها هو وولده.

واستدلوا على ذلك باتفاق هيئات الديلم وهيئات العرب.

وقال آخرون : بل خرج باسل مغاضباً لأبيه حتى صار إلى أرض العجم.

(15) «تاريخ ابن عساكر» ص 60 من ج 2 طبع دمشق عام 1330.

(16) ص 292 من ج 2 «معجم الأدباء»، طبع مَرَجَلِيَّوت Maryoliouth.

(17) ص 111 من ج 5.

(18) ص 192، دار المعارف بمصر.

(19) طبع دار السعادة بالقاهرة، عام 1350.

وذكر أحمد بن يعقوب الكاتب وغيره : أن الديلم من بني ضبّة بن أد بن طابخة بن إلياس ابن مضر.

وذلك أن بأسل بن ضبّة، نافر إخوته، فصار إلى بلاد الديلم، فأقام بها، وأنسل فيما يزعمون .

قال : وهذه الطائفة من الديلم مقيمون على هذا النسب، معتزلون لسائر أجناس الديلم. قال أبو عمر . هذا يدل على أن أكثر الديلم وأصلهم ليس من العرب، فهم - والله أعلم - من ولد البرجان بن يوان، بن يافث، بن نوح، عليه السلام، كما قيل.

وقد روى عن النبي ﷺ، فيروز الديلمي، وهو أحد الذين كتب إليهم رسول الله ﷺ في قتل الأسود العنسي المتنبئ الكذاب.

ولفيروز الديلمي أبيات فيها .

بنو الديلم المقدام من آل بأسل أبي الخفض واختار الحزنون على السهل انتهى كلام أبي عمر، ولم يرد فيه ذكر لال المدبر، وهذا يدل على أن ادعائهم النسبة لضبّة كان مجرد قول منهم.

أمّا ابن خلّكان، فقد ذكر أحمد بن المدبر استطراداً في ترجمة أبي بكر يموت بن المزرع وقال في نسبه الضبّي الرستساني<sup>(20)</sup>، ولم نقف على هذا الإسم في المعاجم البلدانية التي بأيدينا الآن، ولعلها الرستن، بليدة قديمة كانت على نهر العاصي، على نصف الطريق بين حمص وحماة.

قال ياقوت : وقد اضمحلت وبقيت منها آثار.

ولما ترجم ابن عساكر لأحمد بن المدبر قال : أصله من سامراً، ولعله أراد أنه كان من سكّانها، لكونها مقر الخلافة وعاصمة الدولة في عهده، وقد كان أحد كبار موظفيها، وذوي الجاه والمكانة السامية بين أعيانها.

والذي يؤخذ صراحة من عدة قصائد من أمداح البحثري فيهم أنهم فرس أعاجم ساسانيون كسراويون.

(20) وفيات، ص 54 من ج 6

ومن ذلك قوله من قصيدة يمدح بها إبراهيم : (21).

أُنَاسٌ قَدِيمُ الْمَكْرَمَاتِ وَحَدَّثَهَا لَهُمْ وَسَرِيرُ الْعُجْمِ فِيهِمْ وَتَاجُهَا

معناه : أنهم أناس عُرِفُوا بالكرم قديما وحديثا، وكان في أسلافهم سرير ملك العجم وتاجها . وقوله من قصيدة أخرى يمدحه بها (22).

نَشَدُوا فِي بَنِي الْمُدَبَّرِ عَهْدًا      غَيْرَ مُسْتَقْصَرٍ وَلَا مَذْمُومٍ  
فِي الْمَحَلِّ الْجَلِيلِ مِنْ رَقَبَةِ الْمَلِكِ      كِ اسْتَقْلَلْتُ وَالْمَذْهَبِ الْمُسْتَقِيمِ  
لِلنُّدَى الْأَوَّلِ الْأَخِيرِ الَّذِي بَرُّ      زِ وَالسُّؤْدِدِ الْحَدِيثِ الْقَدِيمِ  
هِيَ الْكُرُومَةُ نَمَتْ مِنْ بَنِي سَا      سَانَ فِي خَيْرٍ مَنُصِبٍ وَأَرْوَمِ  
لِلصَّرِيحِ الصَّرِيحِ وَالْأَشْرَفِ الْأَشَدِّ      رَفِ إِنْ عُدَّ وَالصَّمِيمِ الصَّمِيمِ

يعني أنهم طلبوا في آل المدبر عهدا، أي ذمة ومودة غير ناقصة ولا مذمومة، لأنهم في المحل الرفيع من الرتب الملكية، ولأنهم موصوفون بالسؤدد والجد والفضل، وهذه الكرومة، أي فعل كرم، نمت، أي نُسِبَتْ إليهم من بني ساسان، الذين لهم المرجع في الأصل والشرف والنسب الصريح المخض الخالص...

وقوله من قصيدة أخرى يمدح بها أبا غالب بن أحمد بن المدبر (23).

رَضِيَتْ خَالِيْلِي أَبَا غَالِبٍ      لَكَسْرِ الْخُطُوبِ وَإِيْهَانِهَا  
تُعَدُّ لَهُ فَارِسٌ قُرْبَةً      وَذُلْفَى بِكَسْرِ بَنِ سَاسَانِهَا  
إِذَا سُئِلَتْ عَنْهُ عِنْدَ الْفَخَا      رِقَالَتْ بِأَمْدَقِ عِرْقَانِهَا  
يَطْوُلُونَ مِنْهُ بِأَنَسَانِهِمْ      وَلِلْفَيْنِ طَوْلٌ بِأَنَسَانِهَا

(21) «ديوان البحري»، ص 140 من ج 1، طبع الجوانب.

(22) نفس المصدر، ص 130 من ج 2.

(23) نفس المصدر ص 133 من ج 2.

أي أنه رضى خليله أبا غالب بن أحمد المدبر لكسر خطوبه العظيمة، ودواهيه الجسيمة، إذا نزلت به، وتبديدها، أي تشتيتها وإيهانها، أي اضعافها، لأن فارساً تعد له زلفى، ومنزلة وقربى، من كسرى بن ساسان، وإذا سئلت عنه عند الفخار والمباهاة بالخصال الكريمة المحموده، قالت ذلك بصدق عرفانها، أي بما في علمها، وأنهم أي آل المدبر يطولون منه، أي من كسرى بن ساسان، ويترفعون على غيرهم بأنسانهم أي كريمهم، وهو الممدوح، كما أن العين تطول، أي تفضل غيرها من الأعضاء بأنسانها الذي هو سوادها أو حدقتها.

ولولا أن البحترى الذي عاش في أيامهم، وعاشرهم، وعاصرهم، وجالسهم، وكان يغشى مجالسهم، كان يعلم فارسياتهم وساسانياتهم، لما صرح بها في شعره، وتزلف إليهم بذكرها ونشرها.

ولولا أنه كان يعلم أنهم كانوا يحبون سماع ذلك منه، ويرتاحون لترديده وتسجيله في قصائده التي مدحهم بها، وأجازوه عليها، لما أقدم عليه وتقرب إليهم به.

ولا يخفى أن الشاعر لا يمدح الممدوح إلا بما يتحقق أنه يحب أن يمدح به من نسب عريق صريح، وحسب مؤثوق به صحيح، إلى غير ذلك من الخصال الحميدة التي يمدح ويتمدح بها كالجود والفضل والعلم والشجاعة... لأن الشعر سجل يحفظ للأجيال ما يسجل فيه أكثر من النثر.

وعليه، فإن القول بفارسياتهم راجح جداً لإقرارهم لهذه النسبة من شاعر كبير، وتسليمهم لها، بقولهم تلك القصائد وما جاء فيها.

وأما الإنتماء إلى ضبّة، فالظاهر أنه كان انتماء ولاء فقط، كغيرهم من الأسر الغير العربية في ذلك العهد.

وقد كان للأسر الفارسية والعجمية الشهيرة في الدين والعلم والأدب والرياسة ولاء في قبائل العرب لعزتها، وعظم شأنها في ذلك العهد، عهد الفتوح والسيادة العربية، وخصوصاً عهد المنصور ومن بعده من الخلفاء إلى أن ظهر الترك والممالك في زمن المعتصم والمتوكل، فزاحموهم في ميدان الحكم والرياسة. والولاء لحمّة كحمة النسب، وموئى القوم منهم، ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، كما في الحديث الشريف.

والفرس هم الذين نظموا دواوين الدولة العباسية، ووضعوا دساتيرها، وربّوا دخلها وخرجها، وفرّقوا كما شاؤوا جبايتها وأموالها، وعدّلوا خراج ضياعها، وألبسوها حلة

كسراوية ساسانية، وخلعوا عنها الثَّمْلَةَ والعباءة المَضْرِيَّة القَحْطَانِيَّة، وأدخلوا عوائد الفرس وأخلاقهم إلى بساط الخلفاء، فلبسوا جُلْدَتهم، وتقمَّصوا زيهم، وسلَّكوا سبيلهم، واقتبسوا نظامهم في أكلهم وشربهم، وعيشهم ولهوهم، وترتيب مجالس منادمتهم وأنسبهم، واحتفالاتهم في أعيادهم ومواسمهم، وسائر مراسمهم.

وقد كان لآل المدبر السَّبْق في هذا الميدان، والقُدْح المَعْلَى في هذا الشأن، وخصوصاً إبراهيم وأحمد منهم، حسبما سيأتي في أخباره مفصلاً. وآل المدبر ثلاثة إخوة : محمد وإبراهيم، وأحمد.

#### - فأما محمد

فلم نقف له الآن على أثر يذكر، فيما توفر لدينا من المراجع وكتب الأدب والأخبار والتراجم، ولعله لم تكن له جولة في الميادين الأدبية والسياسية في عصره.

#### - وأما إبراهيم

فقد ترجم له جماعة من المؤرخين والكتّاب والأدباء في معاجمهم التاريخية، ومعالمهم الأدبية، وقلّما نجد كتاباً من كتب الأدب القديمة إلا وفيه ذكر له ولأخيه أحمد.

وقد جمع أبو الفرج الاصبهاني في كتابه «الأغاني» من أخبارهما الشيء الكثير، وسجّل من نواذرهما مع الخلفاء والأمراء والوزراء والشعراء المعاصرين لهما أشعاراً رائقة، ونودار فائقة.

وتولّى الولايات الجليلة، ووزر للمعتمد على الله لما خرج من سُرْمَنْ رَأى يُريدُ مصر<sup>(24)</sup>، وكان من وجوه الكتّاب بالعراق، ونوي الجاه والمتصرفين في كبار الأعمال، ومذكور الولايات، وكان المتوكل على الله يقدمه ويؤيده ويفضله، وامْتَحِنَ ونُكِبَ كأمثاله من الكتّاب والأدباء والوزراء البارزين في كل زمان ومكان.

وكانت بينه وبين عريب الغانية المغنية، نجم المحافل والمجالس، وأنس كل أنيس ومجالس، دمية قصور الخلفاء والأمراء والوزراء في وقتها، مذاعبات ومُخَاطَبَات ومراسلات

(24) «معجم ياقوت» ص 226 من ج 11 طبع مرجليوت.



ومناظرات، يستحليها السمع، ويسترقُّها الطبع، إذ كان يهواها وتهواه، ويرضاها وترضاها، وأخبارهما ونواديرهما كثيرة مُفرَّقة في الدواوين الأدبية.

ومن آثاره الباقية في عالم الأدب وصناعة التَّرسيل، «الرسالة العذراء» في موازين البلاغة وأدوات الكتابة.

وقد أدرج عدة فصول منها أبو العباس ابن عبد ربه الأندلسي في «كتاب المجنبة الثانية في التوقيعات والفصول والصدور وأخبار الكتبة» من عقده الفريد، ولم ينسبها إليه، ونسبها إلى أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الشيباني<sup>(25)</sup> وطُبعت في كتاب «رسائل البلغاء»، لكرد علي، بمطبعة مصطفى بابي الحلبي سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة وألف (1913/1331) وأدرجت قبل ذلك في الجزء التاسع من المجلد الرابع من مجلة «المقتبس» الصادرة في رمضان عام سبع وعشرين وثلاثمائة وألف (1909/1327)، وأعاد طبعها مصحَّحة ومشروحة مع مقدمة مفصلة بالفرنسية، عن فن الإنشاء ومذاهب الكتابة في العراق في القرن الثالث الهجري، زكي مبارك، بمطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة خمسين وثلاثمائة وألف (1931/1350).

ومات وهو يتقلَّد ديوان الضياع ببغداد سنة تسع وسبعين ومائتين (892/279).<sup>(26)</sup>.

– وأما أحمد،

فهو موضوع بحثنا ودراستنا، وإليه يساق حديثنا في الفصول الآتية :

(25) لم نقف له على ترجمة.

(26) «معجم ياقوت» ص 227 من ج 1 طبع مرجليوت.



## المبحث الرابع

### أخبار أحمد بن المدبر الجد الأكبر لبني عشرة

لما كان أحمد بن عبد الله، أبو الحسن، المعروف بابن المدبر هو الجد الأكبر لبني عشرة كما يقال، رأينا أن نلّم هنا بشيء من أخباره وأثاره المتفرقة في بطون الدفاتر وكتب التراجم والأخبار، لتكون الفائدة أتم، والموضوع أشمل وأعم، لاسيما وهو يتعلق بتحقيق نسب أسرة سلاوية منتقلة من العراق، عريقة في القدم، وإليها ينسب تمصير مدينة سلا الحديثة، وعليها دار سورها، وسنتكلم على ترجمته من ناحيتين.

- الأولى : الناحية الأدبية.

- الثانية : الناحية الإدارية.

- فأمّا الناحية الأدبية

فقد اتفق كتّاب عصره ومن بعدهم على أنه كان من الأدباء البارزين بالعراق، ومن حملة الأقلام في عهد الخليفة المتوكل ومن بعده من خلفاء بني العباس في زمنه.

قال ابن عبد ربّه في «العقد الفريد» :<sup>(27)</sup> وسمي جماعة ممن نبه بالكتابة بعد الخمول، فيهم أحمد بن محمد بن المدبر : فهؤلاء نبّلو بالكتابة واستحقّوا اسمها.

وقال ابن النديم في «الفهرست» :<sup>(28)</sup> بنو المدبر، أحمد ومحمد وإبراهيم، جميعهم مترسّل بليغ ؛ ولأحمد : كتاب «المجالسة والمذاكرة».

---

(27) ص 256 من ج 4.

(28) ص 123 من ج 1.

· ومن شعره يخاطب أخاه إبراهيم في نكبته، وقد أهدى إليه شعره مجموعاً فقرأه وكتب عليه.

أَبَا إِسْحَاقَ إِنْ تَكُنِ اللَّيَالِي      عَطَفْنَ عَلَيْكَ بِالْخَطْبِ الْجَسِيمِ  
فَلَمْ أَرْ صَرْفَ هَذَا الدَّهْرِ يَجْرِي      بِمَكْرُوهِ عَلَى غَيْرِ الْكَرِيمِ<sup>(29)</sup>

ومن شعره أيضاً قوله ·

صَبَاحُ الْحُبِّ لَيْسَ لَهُ مَسَاءٌ      وَدَاءُ الْحُبِّ لَيْسَ لَهُ دَوَاءٌ  
وَلِي نَفْسٌ تَنْفُسُهَا اشْقِيَاقٌ      وَعَيْنٌ فَيُضُّ عِبْرَتَهَا الدَّمَاءُ  
وَلَيْلِي وَالنَّهَارُ عَلَيَّ مِمَّا      أَقَاسِي فِيهِمَا أَبَدًا سَوَاءٌ<sup>(30)</sup>

وكان لا يقبل من الشعر إلا الجيد، ويُسَدِّدُ على الشعراء في انتقاد أشعارهم، وإذا مدحه شاعر فلم يرض شعره، قال لغلّامه : «امض به إلى المسجد الجامع، ولا تفارقه حتى يصلي مائة ركعة ثم اطلقه»، فتحاماه الشعراء إلا أفراد من ذوي الإجابة، فجاءه أبو عبد الله الحسين بن عبد السلام المصري، المعروف بالجميل، فاستأذنه في النشيد، فقال له : «قد عرفت الشرط»، قال : «نعم» ثم أنشده :

أَرَدْنَا فِي أَبِي حَسَنِ<sup>(31)</sup> مَدِيحًا      كَمَا بِالْمَدْحِ تُنْتَجَعُ الْوَلَاةُ  
وَقُلْنَا أَكْرَمَ النَّاقِلِينَ طَرًّا      وَمَنْ كَفَّاهُ دَجْلَةً وَالْفُرَاتُ  
فَقَالُوا : يَقْبَلُ الْمَدَحَاتِ لَكِنْ      جَسَّاءُ نَزْهُ عَلَيْهِنَ الصَّلَاةُ  
فَقُلْتُ لَهُمْ، وَمَا تُغْنِي صَلَاتِي      عِيَالِي إِنَّمَا الشَّانُ الرُّكَاةُ  
فَتَأْمُرُ لِي بِكُسْرِ الصَّادِ مِنْهَا      فَتُصْبِحُ لِي الصَّلَاةُ هِيَ الصَّلَاتُ

(29) «اعتاب الكتاب» لابن الأبار، ص 159.

(30) «تاريخ ابن عساكر» ص 60 من ج 6.

(31) كان أحمد بن المدبر يكنى أبا الحسن.

فضحك أحمد بن المدبر واستظرفه وقال : من أين أخذت هذا ؟ فقال من قول أبي تمام :

هُنَّ الْحَمَامُ فَإِنْ كَسَرْتَ عِيَابَهُ مِنْ حَائِهِنَّ فَإِنَّهُنَّ حِمَامٌ<sup>(32)</sup>

ومن أخباره الأدبية، ما ذكره أبو الفرج الأصبهاني في كتاب «الأغاني» :<sup>(33)</sup> قال : أخبرني عمي والحسن بن علي جميعاً ، قالاً : حدثنا محمد بن أبي القاسم بن مهرويه قال : حدثني أبي، قال : كنت عند أحمد بن المدبر ليلة من الليالي، فأنشدته لدعبل في أحمد بن أبي دؤاد قوله .

إِنْ هَذَا الَّذِي دُؤَادُ أَبُوهُ      وَإِيَادُ قَدْ أَكْثَرَ الْأَنْبَاءَ  
سَاحَقَتْ أُمُّهُ وَلَاطَ أَبُوهُ      لَيْتَ شِعْرِي عَنْهُ فَمِنْ أَيْنَ جَاءَ  
جَاءَ مِنْ بَيْنِ صَخْرَتَيْنِ صَلَوْدِيَّ      مِنْ عِقَاقَيْنِ يُنْبِئَانِ الْهَبَاءَ  
لَا سِبْغَ فَاحٍ وَلَا نِكَاحٍ وَلَا مَاءَ      يُوجِبُ الْأُمُوهَاتِ وَالْأَبَاءَ

قال : فاستعادها أربع مرات، فظننت أنه يريد أن يحفظها، ثم قال : جئني بدعبل حتى أوصله إلى المتوكل، فقلت له : دعبل مؤسوم بهجاء الخلفاء والتشيع، وإنما غايته أن يخمل ذكره، فأمسك عني. ثم لقيت دعبلًا، فحدثته بالحديث فقال : لو حضرت أنا أحمد بن المدبر لما قدرتُ أن أقول أكثر مما قلت.

وروى أبو الفرج أيضاً،<sup>(34)</sup> قال : أخبرني محمد يحيى الصولي، قال : سمعت إبراهيم ابن المدبر يقول : جرى بين إبراهيم بن العباس (يعني الصولي) وبين أخي أحمد بن المدبر شيء، وكان يودني دون أخي فلقيته فاعتذرت إليه عنه، فقال لي : يا أبا إسحاق :

خَلَّ النَّفَاقَ لِأَهْلِهِ      وَعَلَيْكَ فَالْتَمِسِ الطَّرِيقَا  
وَأَذْهَبْ بِنَفْسِكَ أَنْ تَرَى      إِلَّا عَدُوًّا أَوْ صَدِيقَا

(32) «تاريخ ابن عساكر» ص 60 من ج 6، و«ابن خلكان» ص 54 من ج 6.

(33) ص 41 من ج 19، طبع الساسي.

(34) ص 27 من ج 9.

وقال أبو الفرج أيضا: (35) أنشدني لإبراهيم بن العباس، يقولها لأحمد بن المدبر وقد جاءه بعد خلاصه من النكبة مهنتا، وكان استعان به في أمر نكبته ففقد عنه، وبلغه أنه كان يُحرّضُ عليه ابن الزيات.

وَكُنْتُ أَخِي بِالدَّهْرِ حَتَّى إِذَا نَبَا      نَبَوْتُ قَلَمًا عَادَ عُدْتُ مَعَ الدَّهْرِ  
فَلَا يَوْمَ إِقْبَالٍ عَدَدْتُكَ طَائِلًا      وَلَا يَوْمَ إِدْبَارٍ عَدَدْتُكَ فِي وَثَرٍ  
وَمَا كُنْتُ إِلَّا مِثْلَ أَحْلَامٍ نَائِمٍ      كِلَا حَالَاتِكَ مِنْ وَفَاءٍ وَمِنْ غَدَرٍ

والصلولي في أحمد بن المدبر وقد عاتبه أحمد بن المدبر على شيء بلغه فقال :

هَبِ الزَّمَانَ رَمَانِي      الشُّشَانُ فِي الْخُلَانِ  
فَيَمُنْ رَمَانِي لَمَّا      رَأَى الزَّمَانَ رَمَانِي  
وَمَنْ نَخَرْتُ لِنَفْسِي      فَصَارَ ذُخْرَ الزَّمَانِ  
لَوْ قِيلَ لِي خُذْ أَمَانًا      مِنْ أَعْظَمِ الْخَسَدَانِ  
لَمَّا أَخَذْتُ أَمَانًا      إِلَّا مِنْ الْخُلَانِ

وحدث الجهشيارى عن وهب بن سليمان بن وهب قال: (36).

كنت أكتب لإبراهيم بن العباس علي ديوان الضياع، وكان رجلا بليغا، ولم يكن له في الخراج تقدم، وكان بينه وبين أحمد بن المدبر تباعد، وكان أحمد مقدما في الكتابة، فقال أحمد بن المدبر للمتوكل: قللت إبراهيم بن العباس ديوان الضياع، وهو متخلف، آية من الآيات، لا يُحسِنُ قليلا ولا كثيرا، وطعن عليه طعنا قبيحا، فقال المتوكل: في غد أجمع بينكما. واتصل الخبر بإبراهيم، فأيقن بالمكروه، وعلم أنه لا يفي بأحمد ابن المدبر في صناعته، وغدا إلى دار السلطان أيسا من نفسه ونعمته، وحضر أحمد، فقال له المتوكل: قد حضر إبراهيم وحضرت، ومن أجلكم قعدت، فهات: أذكر ما كنت فيه أمس، فقال أحمد: أي

(35) ص 32 من نفس ج.

(36) «معجم الأدباء» لياقوت، ص 194 من ج 1.

شيء أذكر عنه ؟ فإنه لا يعرف أسماء عماله في النواحي، ولا يعلم ما في دساترهم وكيولهم، وحمل من حمل منهم، ومن لم يحمل، ولا يعرف أسماء النواحي التي تقلدها، وقد اقتطع صاحبه بناحية كذا، كذا ألفاء، واختلت ناحية كذا في العمارة، وأطال في ذكر هذه الأمور، فالتفت المتوكل إلى إبراهيم فقال : ماسكوتك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين جوابي في بيتي شعر قلتها، فإن أذن أمير المؤمنين في إنشادهما أنشدتهما، فإذن له فأنشده :

رَدُّ قَوْلِي وَصَدَقَ الْأَقْوَالُ      وَأَطَاعَ الْوُشَاةَ وَالْعُذَالُ  
أَتَرَاهُ يَكُونُ شَهْرَ صُدُودٍ      وَعَلَى وَجْهِهِ رَأَيْتُ الْهَلَالَ

فقال المتوكل : زه، زه<sup>(37)</sup> أحسنت، إيتوني بمن يصنع في هذا لحنا وهاتوا ما ناكل، وجيئوا بالنساء، ودعونا من فضول ابن المدبر، واخلعوا على إبراهيم بن العباس، فخلع عليه، وانصرف إلى منزله.

قال الحسن : قَمَكْتَ يومه مغموما فقلت له : هذا يوم سرور وجذل بما جدد الله لك من الانتصار على خصمك، فقال : يابني، الحق أولى بمثلي وأشبه، إني لم أدفع أحمد بحجة ولا كذب في شيء مما ذكر ولا أنا ممن يعشره<sup>(38)</sup> في الخراج كما أنه لا يعشرني في البلاغة، وإنما فلجت برطانة<sup>(39)</sup> ومخرقة، أفلا أبكي فضلا عن أغتم من زمان يدفع ذلك كله.

وقال أبو الفرج :<sup>(40)</sup> حدثني سليم بن الأخفش قال : حدثني محمد بن الحسن بن الحرون، قال : كنا يوما عند أحمد بن المدبر، فغناه مغن كان عنده لحن إسحاق :

فَأَصْبَحْتُ كَالْحَوْمَانِ يَنْظُرُ حَسْرَةً      إِلَى الْمَاءِ عَطْشَانًا وَقَدْ مَنَعَ الْوَرْدُ

فقال ابن المدبر زد فيه :

وَأَمْسَيْتُ كَالْمَسْلُوبِ مُهْجَةً نَفْسِهِ      يَرَى الْمَوْتَ فِي صَدْرِ الْحَبِيبِ إِذَا صَدَأَ

(37) كلمة تقولها الأعجام عند الإستحسان.

(38) أي يبلغ عشرة في معرفة ذلك.

(39) الرطانة : الخرافة، والجمع رطانات.

(40) ص 93 من ج 5.

وأخبار أحمد بن المديبر ونكته ونوادره الأدبية مع الخلفاء ووزراء عصره كثيرة مفرقة في كتب الأدب والنوادر والتراجم، وإنما التقطنا منها ما أثبتناه هنا.

وقد مدحه كبار الأمراء وحاملوا راية الأدب في وقته لما كان يوصف به من الجاه والنفوذ واليد الطولى، والكلمة المسموعة عند الخلفاء، كالبحثري، وديك الجن، وغيرهما.

وفيه يقول شريف من الهاشميين (41).

يَا ابْنَ الْمُدَبِّرِ أَنْتَ أَكْرَمُ مَا جِدَّ عَاذَتْ بِهِ السَّادَاتُ عِنْدَ عِثَارِي  
إِنِّي امْتَدَحُ حَتَّى مِدْحَةٍ شَرَفْتُهَا شَرَفَيْنِ مِنْ أَصْلِي وَمِنْ أَشْعَارِي  
وكان هذا الشريف عليه دين مبلغه مائة ألف درهم، فتحمله عنه.

ومن أمداح البحثري فيه وفي أخيه إبراهيم قصيدته التي يقول فيها (42).

عَنَانِي مِنْ صُدُودِكَ مَا عَنَانِي وَعَاوِدَنِي هَوَاكِ كَمَا بَدَانِي  
وَذَكَّرَنِي التَّبَاعِدُ ظِلَّ عَيْشٍ لَهَوْنَا فِيهِ أَيَّامَ التَّدَانِي  
الْأَلَمُ عَلَى هَوَى الْحَسَنَاءِ ظَلَمًا وَقَلْبِي فِي هَوَى الْحَسَنَاءِ عَانِ  
إِذَا انصَرَفَتْ أَضَاعَتْ شَمْسُ دَجْنٍ وَمَالَ مِنَ الثَّعْطُفِ غُصْنُ بَانِ  
وَيَوْمَ تَأَوَّهْتَ لِلْبَبَيْنِ وَجَدَا وَكَفُتْ عَبْرَتَيْنِ تَبَارِيَانِ  
جَرَى فِي نَحْرِهَا مِنْ مَقْلَتَيْهَا جُمَانٍ يَسْتَهْلُ عَلَى جُمَانِ  
وَكَانَ الْحَجُّ لِلْقَلْبِ الْمَعْنَى ضَمَانًا زَيْدٌ فِيهِ إِلَى ضَمَانِ  
وَمَا ذِكْرُ الْأَحِبَّةِ مِنْ تُبِيرٍ وَبَلَدَحَ غَيْرَ تَضْلِيلِ الْأَمَانِي  
نَظَرْتُ إِلَى طَدَانٍ فَقُلْتُ لَيْلَى هُنَاكَ وَأَيْنَ لَيْلَى مِنْ طَدَانِ  
وَدُونَ لِقَائِهَا إِبْجَافُ شَهْرِ وَسَبْعُ لِمَطَايَا أَوْ ثَمَانِ  
تَجَاوَزْنَ السَّنَارَ إِلَى شُرُورِي فَأَظْلَمَ وَأَعْتَسَفَنُ قُرَى الْهَوَانِ

(41) «أعتاب» ص 159.

(42) «ديوان البحثري»، ص 137، 146، 148 من ج 1 طبع الجواثب سنة (1882/1300).



وَلَمَّا غَرِيَتْ أَعْرَافُ سَلَمَى      لَهُنَّ وَشَرَّقَتْ قُنُنُ الْقَنَانِ  
وَحَالَفْنَا أَيَّاسِـرَ وَارِدَاتِ      جُنُوحًا وَالْأَيَّامِينَ مِنْ أَيْسَانِ  
وَحَفُضَ عَنْ تَنَاوُلِهَا سُهَيْلُ      فَقَصُرَ وَاسْتَقَلَّ الْفَرْقَدَانِ  
تَصَوَّبَتْ الْبِلَادُ بِنَا إِلَيْكُمْ      وَغَنَى بِالْإِيَابِ الْحَادِيَانِ  
أُمْبُهُجَتِي الْعِرَاقُ وَلَيْسَ فِيهَا      عَقِيدَايَ اللَّذَانِ نَكْنَفَانِي  
وَمُؤْنِسَتِي وَكَيْفَ شُهُودُ أَنْسِي      بِهَا وَابْنَا الْمُدَبِّرِ غَائِبَانِ  
حُسَامًا نُصْرَةً وَيَدَا سَمَاحٍ      وَبَحْرًا نَائِلٍ يَتَدَقَّقَانِ  
إِذَا ابْتَدَرَا مَدَى مَجْدٍ بَعِيدٍ      تَمَطَّرَ ثَوْنُهُ فَرَسَا رِهَانِ  
هُمَا كُنْزِي لِأَحْدَاثِ اللَّيَالِي      إِذَا خِيفَتْ وَتُخْرِى لِلزَّمَانِ...

ثم استرسل في مدح إبراهيم إلى آخر القصيدة.

ومنها قصيدته التي يمدحه وأخاه إبراهيم بها: (43)

لَنْ تُنَى الدَّهْرُ مِنْ سَهْمِي فَلَمْ يَصِلِ      وَرَدَّ مِنْ يَدَيِ الطُّوَلِي فَلَمْ تَخْلِ  
لَقَدْ حَمِدْتُ صُرُوفًا مِنْهُ عَرَفْنِي      مَذْمُومَهَا عُصْبًا مِمَّنْ عَلَيَّ وَلِي  
بَنِي الْمُدَبِّرِ مَا اسْتَبْطَأْتُ سَعْيَكُمْ      وَلَا أَرَدْتُ بِكُمْ فِي النَّاسِ مِنْ بَدَلِ  
أَيَّامُكُمْ هِيَ أَيَّامِي الَّتِي عَدَلْتُ      مَبْلِي وَدَوَّلْتُكُمْ حَظِّي مِنَ الدُّوَلِ  
أَقَمْتُ مِنْ سَيِّبِكُمْ فِي يَانِعِ زَهْرٍ      وَسِرْتُ مِنْ جَاهِكُمْ فِي يَانِعِ خَضِيلِ..

وتخلص بعد هذا لمدح أخيه إبراهيم.

وفي مدحهما أيضا يقول قصيدته الآتية، (44) ويذكر ولاية أحمد الخراج بدمشق.

(43) «ديوان البحري» ص 137، 146، 148 من ج 1 طبع الجوانب سنة (1882/1300).

(44) «ديوان البحري» ص 137، 146، 148 من ج 1 طبع الجوانب سنة (1882/1300).

أَمَحَلَّتَنِي سَلَمَى بِكَاطِمَةٍ اسْلَمَا  
هَلْ تُرَوِّيانِ مِنَ الْأَحِبَّةِ هَانِمَا  
أُبْكِيكُمَا دَمْعًا وَلَوْ أَنِّي عَلَى  
أَيِّنِ الْغَزَالِ الْمُسْتَعِيرُ مِنَ النَّقَا  
ظَمِئْتُ جَوَانِحُنَا إِلَيْهِ وَرَيْهًا  
مُتَعَتِّبٌ فِي حَيْثُ لَا مُتَعَتِّبٌ  
أَلِفُ الصُّدُودِ فَلَوْ يَمُرُّ خَيَالُهُ  
خَافَتْ بَعْدَهُمُ الْأَحْظُ نِيَّةُ  
ظَلًّا أَكْفَكِفُ فِيهِ تَمَعًا مُعْرِيًا  
تَأْبَى رَبَّاهُ أَنْ تُجِيبَ وَلَمْ يَكُنْ  
اللَّهُ جَسَارُ بَنِي الْمُدَبِّرِ كُلِّمَا  
أَخْشَوَانِ فِي نَسَبِ الْإِخْضَاءِ لِعِلَّةِ  
يَسْتَمْطِرُ الْعَافُونَ مِنْ نَوَائِيهِمَا  
غَيْثَانِ أَصْبَحَتِ الْعِرَاقُ لِوَاحِدٍ  
وَلَوْ أَنَّ نَجْدَةَ ذَاكَ أَوْ هَذَا لَنَا  
قَدْ كَانَ عَانَ لِمُعْمَدٍ أَنْ يُنْتَضَى  
إِنِّي وَجَدْتُ لِأَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ  
مُنْقَلِقِلُ الْعَزَمَاتِ فِي طَلِبِ الْعِلَا  
الْمُسْتَضَاءِ بِوَجْهِهِ، وَبِرَأْيِهِ  
أَلْقَى ذِرَاعَيْهِ وَأَوْقَدَ لَحْظَهُ  
مُسْتَصْغِرُ لِلْخُطْبِ يَجْمَعُ حَزْمَهُ  
تَقَعُ الْأُمُورُ بِجَانِبَيْهِ وَإِنَّمَا

وَتَعَلَّمَا أَنَّ الْجَوَى مَا هِجْتُمَا  
أَوْ تُسْعِدَانِ عَلَى الصَّبَابَةِ مُفْرَمًا  
قَدَّرِ الْجَوَى أَبْكِي بِكَيْتُكُمَا دَمًا  
كَفَلًا وَمِنْ نَوْرِ الْأَقْحَاجِي مَبْسِمًا  
فِي ذَلِكَ اللَّعْسِ الْمُمْتَعِ وَاللَّمَى  
إِنْ لَمْ يَجِدْ جُرْمًا لَدَيْ تَجْرَمًا  
بِالْصَّبِّ فِي سِنَةِ الْكَرَى مَا سَلَمًا  
قَذْفًا وَ أَشْدُّ دَارِسًا مُتْرَسَمًا  
بِجَوَى وَأَقْرَأُ فِيهِ خَطَأُ أَعْجَمًا  
مُسْتَخْبِرُ لِجُجِيبَ حَتَّى يَفْهَمَا  
نُكِرَ الْأَكَارِمُ مَا أَعَقَّ وَ أَكْرَمًا  
بَكَرًا وَرَاحًا فِي السَّمَاحَةِ تَوَامًا  
الشُّعْرَى الْعَبُورَ غَزَارَةً وَالْمِرْزَمًا  
وَطَنًا وَغَرْبًا وَاحِدُ فَتَشَأَمًا  
أَمَّمُ الْأَذْرَكَ طَالِبُ مَا يَمُمًا  
فِي حَادِثٍ وَلِغَائِبٍ أَنْ يُقْدَمًا  
خَلْقًا إِذَا خَنَسَ الْجَبَانَ تَقْدَمًا  
حَتَّى يَكُونَ عَلَى الْمَكَارِمِ قَيِّمًا  
إِنْ حَيْرَةٌ وَقَعَتْ وَخُطْبُ أَظْلَمًا  
بِدِمَشْقَ يَعْتَدُ النُّوَابِ أَنْعَمًا  
لِمِلْمَةٍ حَتَّى يُرَى مُسْتَعْظَمًا  
يَعْتَنُ رَضْوَى أَوْ يَرْمُنُ يَرْمَرَمًا

كَلِيفُ بِجَمْعِ الْخَرْجِ يُصْبِحُ حَوْلَهُ  
شَغْلُ الْمُدَافِعِ عَنْ مَحَالَةٍ كَيْدِهِ  
بَخَعُوا بِحَقِّ اللَّهِ فِي أَعْنَاقِهِمْ  
لَمْ يَغِبْ عَنْ شَيْءٍ فَيَطْلُبْهُ وَلَمْ  
مُتَفَرِّقًا فِي إِثْرِهِ، مُتَقَسِّمًا  
وَأَذَلَّ جَبَّارَ الْبِلَادِ الْأَعْظَمَا  
لَمَّا أَتَاهُ لَهُمْ قَضَاءٌ مُبْرَمًا  
يَجْزِي الَّذِي حَدَّ الْكِتَابُ فَيَظْلِمَا

ثم تخلص لمدح أخيه أبي إسحاق إبراهيم إلى آخر القصيدة.

وفي مدح أحمد يقول أيضا : (45).

لَعَمْرُ الْمَغَانِي يَوْمَ صَحْرَاءَ أَرْتَدِ  
مَنَازِلُ أَضْحَتْ لِلرِّيَّاحِ مَنَازِلًا  
نَشَجَتْ صَاحِبِي أَطْلَالُهَا فَتَهَلَّلَتْ  
وَقُلْتُ لِذَاكِ الْمَالِكِيَّةِ عَبْرَةً  
سَقَتْهَا الْغَوَادِي حَيْثُ حَلَّتْ دِيَارُهَا  
رَأَتْ قُلَّتَاتِ الشَّيْبِ قَابَتْ سَمَتْ لَهَا  
أَعَاتِكَ مَا كَانَ الشَّيْبَابُ مُقَرَّبِي  
تَزِيدِينَ هَجْرًا كَلَّمَا أَرْدَدْتُ لَوْعَةً  
مَتَى أَلْحَقِ الْعَيْشَ الَّذِي فَاتَ عَانِفًا  
لَعَمْرُ أَبِي الْأَيَّامِ مَا جَارَ حُكْمُهَا  
وَكَيْفَ أَخَافُ الْحَادِثَاتِ وَصَرَفُهَا  
مَلُومٌ عَلَى بَذْلِ التَّلَادِ مُفَنَّدٌ  
وَأَبْيَضُ نَعْمَاهُ لَأَقْصَرِ مَا تَحِ  
لَقَدْ هَيَّجَتْ وَجْدًا عَلَى ذِي تَوْجِدٍ  
تَرَدَّدُ مِنْهَا بَيْنَ نُؤْيٍ وَرِمْدٍ  
مَدَامِعُهُ فِيهَا وَمَا قُلْتُ أَسْعِدِ  
مِنْ الشُّوقِ لَمْ تَمْلِكْ بِصَبْرِ فُتْرَدِ  
عَلَى أَنَّهَا لَمْ تَسْقِ ذَا الْغَلَّةِ الصَّدِي  
وَقَالَتْ نُجُومٌ لَوْ طَلَعْنَ بِأَسْعِدِ  
إِلَيْكَ فَالْحَى الشَّيْبُ إِذْ طَارَ مُبْعِدِي  
طِلَابًا لِأَنْ أَرْدَى فَهَذَا أَنَا ذَا رَدِ  
إِذَا كَانَ يَوْمِي فِيكَ أَحْسَنَ مِنْ غَدِ  
عَلَيَّ وَلَا أَعْطِيْتُهَا ثَنِي مِقْوَدِي  
عَلَيَّ وَدُونِي أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ  
وَلَا مَجْدٌ إِلَّا لِلْمَلُومِ الْمُفَنَّدِ  
رِشَاءٌ وَجَدَّوَاهُ لِأَوَّلِ مُسْجَدِ

إِذَا بَدَرُوهُ بِالسُّؤَالِ انْتَحَى لَهُمْ  
بَعِيدٍ عَنِ الْفِتْيَانِ أَنْ يَلْحَقُوا بِهِ  
وَفِي النَّاسِ سَادَاتُ يَرُوحُ عَدِيدُهُمْ  
غَدَاً وَاحِداً فِي حَزْمِهِ وَاضْطِلَاعِهِ  
قَرِيبٌ لَهَا مِنْ حِفْظِ كُلِّ مُضْئِعٍ  
يُضِيبُ عَنِ الشَّيْءِ الطُّفِيفِ يُخَانُهُ  
أَبَا حَسَنٍ تَفْصِيكَ أَنْفُسَنَا الَّتِي  
وَمَا بَلَّغْتَ أَمَانَنَا مِنْكَ غَايَةً  
وَكَيْفَ وَذَاكَ الرَّأْيُ لَمْ يُسْتَتَدَّ بِهِ

وفيه يقول أيضا هذه القطعة : (46).

يَأْبِي سُمُوكَ وَاعْتِلَاؤُكَ  
عَمْرِي لَقَسَدُ فُتِّ الرَّجَا  
يَا ابْنَ الْمُدْبِرِ وَالنُّدَى  
عَظُمَ الرَّجَاءُ وَرُبُّ يَوْ  
وَيَفُوتُنِي لَيْلُ مَسَا  
فَنَاءُ مَنْ يُرْجَى إِذَا  
وَعَطَاءُ غَيْرِكَ إِذْ بَدَأَ

إِلَّا الَّتِي فِيهَا سَنَاؤُكَ  
لَ وَبَانَ يَوْمَ السُّبُوقِ شَنَاؤُكَ  
وَبَلُّ تَجَوُّدٍ بِهِ سَمَّاءُكَ  
مَ حَقٌّ فِيهِ لَنَا رَجَاؤُكَ  
فَتُّهُ كِتَابُكَ أَوْ لِقَاؤُكَ  
لَمْ يُرْجَ فِي حَسَدَتِ غَنَاؤُكَ  
سَتَ عِنَايَةٍ فِيهِ عَطَاؤُكَ

وقد كان لأحمد بن المدبر ولد اسمه أبو غالب، ورد ذكره في «تاريخ الطبري»<sup>(47)</sup>، وأنه كان مسجوناً مع عمه إبراهيم أيام نكبته، وفر معه من السجن، وساد في حياة أبيه، ووصف بالجوّد والسماح، كغيره من أفراد أسرته، وفي مدحه يقول البحري أيضاً: <sup>(48)</sup>.

لَمْ تَبْلُغِ الْحَقَّ وَلَمْ تُنْصِفِ      عَيْنٌ رَأَتْ يَبْنَأَ فَلَمْ تَذْرِفِ  
مِنْ كَلْفِي أَنْ تَنْقُضِي سَاعَةً      يَأْتِي بِهَا الدَّهْرُ وَلَمْ أَكْلِفِ  
لَا تَدْعُ الْأَخْشَاءَ إِلَّا لَهَا      تَحَرَّقُ ذَاتُ الْحَشَا الْمُرْهِفِ  
يَضْرِبُ لُبَّ الصَّبِّ فِي لَحْظِهَا      ضِيَاعُهُ فِي الْقَهْوَةِ الْقَرْقَفِ  
صِفْوَتِي الرَّاحُ وَسَاعِ بِهَا      فَدُونَكَ الْعَيْشُ الَّذِي تَصْطَفِي  
أُحْلِفُ بِاللَّهِ وَلَوْلَا الَّذِي      يَغْرِضُ مِنْ شَكٍّ لَمْ أَحْلِفِ  
أَقْبَلُ مِنْ مُؤْتَمِنٍ خَسَانٍ      عَهْدٌ وَلَا مِنْ وَاعِدٍ مُخْلِفِ  
إِذَا الرِّجَالُ اعْتَمَتِ أَجْوَادُهُمْ      فَاسْمُ إِلَى الْأَشْرَفِ فَالْأَشْرَفِ  
ادْفَعِ بِأَمْسَالِ أَبِي غَالِبٍ      عَادِيَةِ الْعُدَمِ أَوْ اسْتَعْفِفِ  
أَرْضَاهُ لِلْمُعْتَمِدِ الْمُشْتَرِي      حَقًّا وَلِلْمُخْتَبِطِ الْمُعْتَفِي  
مَنْ شَأْنُهُ الْقَصْدُ وَلَكِنَّهُ      إِنْ يُعْطَى فِي عَارِفَةٍ يُسْرِفِ  
لَوْ جُمِعَ النَّاسُ لِلْخُرُومَةِ      وَلَمْ يَكُنْ فِي الْجَمْعِ لَمْ نَكْتَفِ  
وَوَقْفَةٍ لِلدَّهْرِ بِي لَمْ أَهْنُ      لَحَزَهَا فِي وَلَمْ أَضْعُفِ  
مَا كُنْتُ بِالْمُنْخَزِلِ الْمُخْتَبِي      فِيهَا وَلَا بِالسَّائِلِ الْمُلْحِفِ  
ضَافَتُهُ أُخْرَى مِثْلَهَا فَاعْتَدِي      مُسَانِدِي أَوْ وَاقِفَا مُوقِفِ  
مُسْتَظْهِرًا يَحْمِلُ مَا نَابَهُ      وَنَابَنِي فِي الْمَغْرَمِ الْمُجْحِفِ  
يَزْدَادُ مِنْ كُلِّي إِلَى كُلِّهِ      تَوْقِيرَ ثِقَلِ الرَّائِبِ الْمُرْدِفِ

(47) ص 216 من ج 11.

(48) «ديوان البحري» ص 151 من ج 1.

كَمْ رَقَعْتَ حَالِي إِلَى حَالِهِ  
جَزَيْتُ إِذْ فَاجَرَهُمْ غَادِرُ  
غَنَيْتُ مِثْلًا لَكَ فِي تَالِدِ  
وَمَا هُنَا رُجْحَانُ حَالٍ عَلَى  
عِنْدَكَ فَضْلُ فَأَعِدْ قِسْمَةً  
تَجْعَلُهَا رِفْدًا لِمُسْتَرْفِدِ  
هَلُمَّ نَجْمَعْ طَرَفِي حَالِنَا  
وَمَا تَكَاثَرَا الْحَالُ إِنْ لَمْ يَقَعْ

يَدُ مَتَى تُخْلِفُ غِنَى تُثْلِفِ  
مَثُوبَةَ الْبِرِّ لَدَيْنَا الْوَفِيِّ  
مِنْ مَالِكَ الرُّغْبِ وَمُسْتَظْهِرِ  
حَالٍ فَجَدُ بِالْعَدْلِ أَوْ أَسْعَفِ  
تَرْجِعْ فِي الْعِقْدِ وَفِي النِّيفِ  
أَوْ سَأَلَا قَرْضًا لِمُسْتَسْلِفِ  
إِلَى سَسْوَاءِ بَيْنِنَا مُنْصِفِ  
رَدُّ مِنَ الْأَقْصَى عَلَى الْأَضْعَفِ

وله فيه قصيدة أخرى يقول فيها . (49)

مَتَى تَسْأَلِي عَنْ عَهْدِهِ تَجِدِيهِ  
يُكَلِّفُنِي عَنْكَ الْعَدُولُ تَصَبُّرًا  
وَيُحْزِنُكَ اللَّوْثُ أَسْتُ أَطِيعُهُمْ  
عَلَى أَنِّي أَخْشَى عَلَيْكَ وَأَتَّقِي  
عَنَاءَ الْمُحِبِّ مِنْ عَقَابِلِ لَوْعَةٍ  
مُعَلَّلَةٍ بِالْوَعْدِ لَيْسَ يَفِي لَهُ  
وَأَهْيَفُ مَا خُوذُ مِنَ النَّفْسِ شَكْلُهُ  
وَلَمْ يَشْفِ قَلْبِي مَا سَقَيْتُ بِكَفِّهِ  
أَرَى غَسْفَةَ الْأَيَّامِ إِعْطَاءَ مَانِعِ  
إِذَا مَا نَسَبَتِ الْحَادِثَاتُ وَجَدَّتْهَا

مَلِيًّا بِوَصْلِ الْخَبْلِ لَمْ تَصْلِيهِ  
وَأَعْوَزُ شَيْءٍ مَا تَكَلَّفْنِيهِ  
وَقَوْلُ مِنَ الْعُدَالِ لَسْتُ أَعِيهِ  
زِيَادَاتٍ مُفَرِّى بِالْحَدِيثِ يَشِيهِ  
تَحُلُّ قُوَى صَبْرٍ الْجَلِيدِ وَتُوْهِى  
وَقَاتِلُهُ بِالْحُبِّ لَيْسَ يَدِيهِ  
تَرَى الْعَيْنُ مَا تَحْتَاجُ أَجْمَعَ فِيهِ  
مِنْ الرَّاحِ إِلَّا مَا سَقَيْتُ بِفِيهِ  
يُصِيبُكَ أَحْيَانًا وَحِلْمٌ سَفِيهِ  
بَنَاتِ الزَّمَانِ أَرْصِدَتْ لِبَنِيهِ

مَتَى أَرَتِ الدُّنْيَا نَبَاهَةَ خَامِلٍ  
وَمَا رَدَّ صَرْفَ هَذَا الدَّهْرِ مِثْلُ مُهَذَّبٍ  
أَبُو غَالِبٍ بِالْجُودِ يَذْكُرُ وَاجِبِي  
تَطُولُ يَدَاهُ عِنْدَ أَوْدَعِ سَوْفِيهِ  
إِذَا مَا تَوَجَّهْنَا بِهِ فِي مِلْمَةٍ  
تَقِيلُ مِنْ عَالِ الْمُدَبِّرِ سَيِّدَا  
وَمَا تَابِعَ فِي الْمَجْدِ نَهْجَ عَدُوِّهِ  
يُذَلِّلُ صَعْبَ الْأَمْرِ حِينَ يَرُوضُهُ  
جَدِيدُ الشُّبَابِ كُبْرُهُ بِفِعَالِهِ  
مَخِيلَةٌ حِلْمٍ فِي النَّدَى كَأَنَّهَا  
إِذَا بَاتَ يُعْطِي بِالسَّمَاحِ حَلِيفَهُ  
فَذَاكَ مِنَ الْأَسْوَاءِ مَنْ بَتَ مُسْمِحًا  
حَلَاوَةً لَا فِي نَفْسِهِ جَدُّ صَدَقَةٍ  
وَمُطْلَبُ مِنْكَ الْمُسَامَاةَ لَمْ تَزَلْ  
وَلَوْ كَانَ يَبْغِي مَوْضِعَ الْمَجْدِ لَاكْتَفَى  
فَإِيَّاهُ لَكَ الْخَيْرَاتُ مِنْ سَيِّبِكَ الَّذِي

وقال أيضا يمدحه : (50).

تَعَاطِ الصَّبَابَةَ أَوْ عَانِهَا  
وَمَا تَنَقَّلْتُ لَوْعَتِي لِمَةً  
لِتُعَذَّرَ فِي بَرَحٍ أَشْجَانِهَا  
تَنَقَّلُ فِي حِدَتْ أَلْوَانِهَا

أَوَائِلُ شَيْبٍ يُشِيرُ الْعَذُو  
 إِذَا حَرَّمَ اللَّهُ وَمِنْ أَجْلِهَا  
 وَإِلَّا تَجِدَنِي مُطِيعًا لَهَا  
 مَتَى جِئْتُ بِأَنْقَةَ فِي الْهَوَى  
 تَعَامَى رِجَالٌ عَنِ الْمَكْرَمَا  
 وَلَمْ تَلْتَفِتْ لَوْجُوبِ الْحَقُّو  
 فَتَحْتُ يَدَيَّ ثَانِي الْعُطْفِ عَنْ  
 وَقَدْ عَلِمْتُ خُلَّتِي أَثْنِي  
 وَلِنِّي لَأَسْكُنَ جَانِبًا إِلَى  
 وَيَعْدَتْ نَفْسِي مِنْ مَالِهَا  
 رَضِيتُ خَلِيلِي أَبَا غَالِبٍ  
 تَعُدُّ لَهُ فَارِسُ قُرْبَةَ  
 إِذَا سُئِلَتْ عَنْهُ عِنْدَ الْفَخَا  
 يَطُولُونَ مِنْهُ بِإِنْسَانِهِمْ  
 هَتَكْنَا إِلَيْهِ حِجَابَ الدُّجَى  
 تَكَلَّفْنَا لِنُرومَ الْوِدَا  
 وَسِنْ سُمَيْرَةَ طَيْفَ الْفَتَا  
 إِذَا اسْتَشْرَفْتَ لَمَعَانَ الثَّلَا  
 تَبِيتُ مَطَايَا تَرَاقِي النُّجُو  
 مُرَاكِبَةَ الطَّيْرِ فِي جَوْهِ  
 إِلَى مَلِكٍ غَلِقَتْ عِنْدَهُ  
 وَقَبِيتَ الْحِمَامَ بِمَتْنَى النُّفُو

لُ إِلَيْهَا وَيُكْبِرُ مِنْ شَأْنِهَا  
 غَلَا فِي مَقَادِيرِ أَوْزَانِهَا  
 فَلَمْ أَعْصِهَا كُلَّ عِصْيَانِهَا  
 فَاسْتَرَارَهَا دُونَ إِعْلَانِهَا  
 تِ وَقَدْ مَثَلْتُ نَصَبَ أَعْيَانِهَا  
 قِي وَوَجِبُهَا خَلْفَ آذَانِهَا  
 كَذُوبِ الْمَوَدَّةِ خَوَانِهَا  
 أَفَارِقُهَا عِنْدَ هِجْرَانِهَا  
 رِيَاعِ الْكِرَامِ وَأَوْطَانِهَا  
 وَمَا أَبْعَدْتُ مَالَ إِخْوَانِهَا  
 لِكَسْرِ الْخُطُوبِ وَإِيْهَانِهَا  
 وَذَلْفَى بِكِسْرَى بَنِ سَاسَانِهَا  
 رِمَالَتْ بِأَصْدَقِ عِرْقَانِهَا  
 وَلِلْعَيْنِ طُولُ بِإِنْسَانِهَا  
 بِخُوصِ تَبَارَى بِرُكْبَانِهَا  
 عَ مَسَافَةَ قُمْ وَخَاسَانِهَا  
 تَبَسِّمٌ عَنْ ظَلَمِ أَسْنَانِهَا  
 جِ أَطَاعَتْ لَهُ قَبْلَ إِيَابَانِهَا  
 مَ فِي مُشْمَخِرَاتِ صِيدَانِهَا  
 نَ فَوْقَ السُّحَابِ وَأَعْنَانِهَا  
 رِقَابُ الْمَسْدِيحِ بِأَتْمَانِهَا  
 سِ مِنَ الْحَاسِدِينَ وَوُحْدَانِهَا



تَبُوحُ الْمَعَالِي إِذَا لَمْ تَكُنْ      بِكَفِّكَ إِذْكَاءُ نِيرَانِهَا  
وَتَجَزُلُ فِي الْقِسْمِ حَتَّى تَكُو      نَ فِعَالُكَ أَنْجَزَ أَعْوَانِهَا  
حَمَتُ قُضْبِ الْمَجْدِ مِنْ أَنْ تَكُو      نَ صِلَاءُ صَلَابَةِ عِيدَانِهَا  
وَعَافَتْ بِكَ الدَّمُ نَفْسُ جَرَتْ      إِلَى الْحَمْدِ فِي طُولِ مِيدَانِهَا  
أَخَذَتْ الْعَطَايَا بِتَكَرَّارِهَا      وَأَبْدَاءَ طُولِ بَيْتَيْنِهَا  
أَرَى بَذْلَهَا عِنْدَ إِعْوَانِهَا      سِوَى بَذْلِهَا عِنْدَ إِمْكَانِهَا  
وَأَحْسَنُ مَأْتِرَةَ الْكِرَا      مَ إِحْسَانِهَا عِنْدَ إِحْسَانِهَا  
وَمَا يَنْتَمِي إِلَى الْمَكْرُمَا      تِ فَيَفْرَعُهَا غَيْرُ فُرْسَانِهَا  
لِمَنْ عَادَ بُعْدِي عَنْ سَاحَتَيْ      لِكَ بِنَقْصِ حُطُوطِي وَخُسْرَانِهَا  
وَكَانَ اجْتِنَابِيكَ إِحْدَى الذُّو      بَ فَقَصْدِيكَ أَوْلَى بِغُفْرَانِهَا  
وَمَا عُوقِبْتُ عُصْبَةً أَمِنْتُ      عَلَى كُفْرِهَا بَعْدَ إِيْمَانِهَا  
فَإِنْ خَوَاتِمَ أَعْمَالِ مَا      تَرَاهُ جَوَامِعُ أَدْيَانِهَا

وقال الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» .<sup>(51)</sup> كان محمد بن إسحاق، أبو العنبر الصميري، أحد الأدباء الملحاة، وكان خبيث اللسان، هاجي أكثر شعراء عصره، ونام جعفر المتوكل، وهو القائل يهجو أحمد بن المديبر، وما زال الكريم يمدح ويهجو.

أَسَلُ الَّذِي عَطَفَ الْمَوَا      كِبَ بِالْأَعِنَّةِ نَحْوُ بَابِكَ  
وَأَرَاكَ نَفْسَكَ مَالِكًا      مَا لَمْ يَكُنْ لَكَ فِي حِسَابِكَ  
وَأَذُلُّ مَوْقِفِي الْعَزِزِ      يَزُ عَلَى وَقُوفِي رِحَابِكَ  
أَلَا يُطِيلُ تَجَرُّعِي      عُصَصَ الْمَنِيَّةِ مِنْ حِجَابِكَ

(51) ص 238 من ج 1، «تاريخ ابن عساكر» ص 61 من ج 1.

وكما كان ابن المدبر تُقدّم له القصائد الرفيعة الشعرية مدحا، فقد كان الكتّاب وكبار الأدباء من أقرانه في عصره، يتقربون إليه في قضاء أغراضهم بالقطع النثرية البليغة ثناءً وشكراً؛ ومنها ما خاطبه به الكاتب ابن مكرم<sup>(52)</sup> قال: إن جميع أكفائك ونظرائك، يتنازعون الفضل، فإذا انتبهوا إليك، أقرؤا لك، ويتنافسون المنازل، فإذا بلغوك، وقفوا دونك، فزادك الله وزادنا بك وفيك، وجعلنا ممن يقبله رأيك، ويقدمه اختيارك، ويقع من الأمور بموقع موافقتك، ويجري فيها على سبيل طاعتك.

وقال أيضا في قطعة أخرى:

إن من النعمة على المثني عليك، أن لا يخاف الإفراط، ولا يأمن التقصير. ويأمن أن تلحقه نقيصة الكذب، ولا ينتهي به المدح إلى غاية إلا وجد فضلك تجاوزها، ومن سعادة جددك، أن الراعي لا يعدم كثرة المتابعين له والمومنين معه.

ومن نشر أحمد بن المدبر الرائق البليغ قوله جوابا عن «رسالة عتاب»: (53)

«وصل كتابك المفتتح بالعتاب الجميل، والتقريع اللطيف، فلولما ما غلب علي من السرور بسلامتك، لتقطع غما بعتابك الذي لطف حتى كاد يخفى على أهل الرقة والفتنة، وغلط حتى كاد يفهمه أهل الجهل والبله، فلا أعدمني الله رضاك مجازيا به على ما استحقه عتبك، فأننت ظالم فيه، وعتابك ولي المخرج منه».

ومن نوادره الأدبية اللطيفة<sup>(54)</sup> ما وقع بحضرة الخليفة المتوكل، مع قاضي القضاة يحيى بن أكرم لما قال له: أنت كاتب تتفقه، وتذكر أنك لا تلزم الناس إلا بحجج فقهية، أو كما قال، فمن كتب للنبي ﷺ، فأجابه أحمد، ليس على الكاتب أن يعلم ذلك ولا يتعلمه، ولا على الفقيه أيضا، لأنه ليس يحل حلالا، ولا يحرم حراما، ولا يزيد نظرا في صناعة، وقد روى الناس: أن عثمان، وعلياً، وزيد بن ثابت، وحنظلة، ومعاوية، كتبوا للنبي ﷺ، ولكن أخبرني من عمل عملك على عهد النبي ﷺ، فأمر عليه الصلاة والسلام بقتله، يعرض له بالواط، فأفحم يحيى، واستغرب المتوكل في الضحك.

ويؤخذ من هذا كله، أن آل المدبر، من الأسر القديمة الشهيرة العريقة في العراق، كالطاهر أمراء خراسان، وآل حميد الطوسي، وآل مخلد، وآل سهل بن دينار، وغيرهم، وأنهم

(52) «العقد الفريد» لابن عبد ربه، ص 320 من ج 4.

(53) «العقد الفريد» لابن عبد ربه، ص 320 من ج 4.

(54) «أعتاب الكتّاب» لابن الأبار، ص 157.

كانوا مُمدِّحِينَ من الشعراء، مقدِّمِينَ في مجالس الخلفاء والوزراء، لهم الجاه العريض، والوجاهة عند الخاص والعام، لما اتَّصفوا به من الجود والعطاء، والتَّعَمُّع الواسعة، والأدب الغض الأريض، ولذلك يقول البحتري فيهم كما تقدّم :

وَمَا زَالَتْ أَلْعِيسُ الْمَرَّاسِيلُ تَتَّبَرِي      فَتُقْضَى لَدَى أَلِ الْمُدَبِّرِ حَاجُهَا

وقد ابْتَلَى إبراهيم وأحمد منهم بالنكبة والسجن، لأنهم كانوا مُحْسِنِينَ من أقرانهم كما سيأتي، وكل ذي نعمة مُحْسُود.

هذا مقام أحمد بن المدبر في قومه، وبين أهل عصره، وقطره ومصره، من الناحية الأدبية.

#### – وأما الناحية الإدارية،

وما تقلَّب فيه من المناصب السَّامية، فقد تَوَلَّى في مذكور الولايات، وأسندت إليه وظيفة الكتابة، وجباية الأموال، وتنظيم خراج الدولة، كأخيه إبراهيم، منذ عهد الخليفة الواثق ومن بعده من الخلفاء بالعراق والشام ومصر، فسُنُّ سننا وابتدع أنظمة جَرَى العمل بها بعده بالأقطار المذكورة. وكان له إِدلال وزَلْفَى لدى الخلفاء، وكلمة مسموعة.

#### تقلده مجلس الاسكدار<sup>(55)</sup> وكتابته

#### لجعفر الخياط لما خرج المامون لبلاد الروم

قال أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري في «كتاب الوزراء والكتاب»<sup>(56)</sup> :  
«حدثني عبد الواحد بن محمد الحصيني قال : حدثني عبد الله<sup>(57)</sup> بن محمد بن أحمد بن

(55) الاسكدار لفظة فارسية، معناها «إنكوداري» أي، من أين تُمسك، وهو مدرج يكتب فيه عدد الخرائط، والكتب الواردة والنافذة وأسماى أربابها (عن مفاتيح العلوم للخوارزمي هـ) من هامش كتاب «الوزراء والكتاب» للجهشياري.

(56) ص 199.

(57) عبد الله هذا راوي هذا الحديث، حفيد أحمد بن المدبر، ووالده محمد، غَيْر أبي غالب ممدوح البحتري المتقدم الذكر.

المدير قال : سمعت جدي أحمد بن المدير يقول : كنت أتعقد مجلس الأسكدار في ديوان الخراج، وكانت نفسي تنازعني على أشياء لم تكن تنالها، وكنت أرفع نفسي عن التعرض لكسب الخسيس، فلما خرج المامون إلى بلاد الروم، سألتني جعفر الخياط الخروج معه لأكتب بين يديه، ففعلت على كره من أبي لذلك، وجهد أن لا أخرج فلم أطعه، فدفع إلي بعض إخوانه الذين يثق بهم من حيث لا أعلم خمسة آلاف درهم، وقال له : تكون هذه الدراهم معك من حيث لا يعلم بها أحد، فإن اختلت حاله، أو رأيت به خصاصة، عرضت عليه القرض، واسلفته حسبما تراه صواباً، على حسب ما تشاهد من حاله.

قال : فكنت يوماً بين يدي جعفر أعمل، حتى دخلت عريب الكبيرة إليه، وكنت قد اكتملت، فنظرت إلي، فأطالت النظر، وكنت غلاماً، فقالت لجعفر : من أين لك هذا الطير المراري؟ (58)، فاستحييت وخجلت ونهضت، وخرجت عريب. فدعاني جعفر، فقال : لعل ما كلمتك به هذه العيارة قد غمك، وأمر لي بعشرة آلاف درهم. وما كنت رأيته مجتمعاً قط في ملكي، فخرجت وما أعقل فرحاً، فاستبدلت دابتي واشتريت بغلاً، يركبه غلامي خلفي. فلما كان بعد أيام، لقيني ذلك الصديق الذي كان أودعه أبي الدراهم، فسألني عن خبري، ورأى أثر حسن حالي، فشرح له أمري، فخبّرني بخبر المال الذي دفعه إليه أبي، وقال : ما لمكانه الآن عندي وجه، فوجه به إلي، فرأيت حين جاني أنني في ذلك العسكر أجل من المامون، وكان ذلك أول مال اعتدته، ثم أتانا الله بما نحن فيه، ولم يكن لذلك سبب غير كلمة عريب.

ويستفاد من هذه القصة أمور ألفت أشعة كشافة على ابتداء حياة أحمد بن المدير الإدارية، وتكوين ثروته المالية .

- منها، أنه افتتح أعماله الإدارية، بتقلده وظيفة الأسكدار، أو تسجيل الصادر والوارد بديوان الخراج. وكان ذلك فاتحة أعماله في هذا الديوان إلى آخر عمره.

- ومنها، أنه كان منذ ابتداء أمره طموحاً إلى أشياء أخرى أعلى وأهم، وهي الظهور في عالم الرياسة والسياسة، واقتناء الأموال، كغيره من أقرانه أعيان عصره، ولكنه كان يترفع عن الدنس وسقوط الهمة، ولعل هذا كان سر نجاحه.

- ومنها، أنه انتظم في سلك موظفي الدولة العباسية منذ عهد الخليفة المامون .

(58) لا ندري ما المراد بالمراري هنا.

- ومنها، أن جعفر الخياط، لما اختاره للخروج معه صحبة الخليفة المامون لأرض الروم،<sup>(59)</sup> قَبِلَ ذلك منه على كره من والده لصغر سنه إذ ذاك، حسبما يُوخَد من تعبيره أثناء حديثه بأنه كان غلاماً، والغلَام الطَّارُ الشَّارِب، والغالب فيه أن يكون أدرك سن البلوغ أو راحقه. ويُوخَذ منه أنه كان يحب الأسفار والتنقل ولو كانت طويلة بعيدة، سعياً وراء الشهرة والوظيفة، كغيره من الشبان، في كل زمان ومكان، ولو كانت في ذلك مغامرة.

- ومنها، أن والده أشفق عليه، وحاول منعه من التَّغَرُّب في سفر طويل مجهول المآل مع الجيش في دار الحرب. وحيث لم يستطع رُدُّه عن عزمه، كلَّف بعض من يَتَّقُ به من أصدقائه المرافقين للجيش بمراعاته من بعيد، وأودعه مالا لإتقائه من الخصاصة والضياح، إذا طال السفر واشتدَّت حاجته، واختلَّت حاله، لأنه كان في ذلك الوقت لا مال له.

- ومنها، أن والده كان من ذوي اليسار في قومه، ولذلك استطاع أن يُخصَّصَ قُدراً من ماله لإعانتته سرّاً إذا دعت الضرورة لذلك.

- ومنها، أنه كان في فجر شبابه يستلفت الأنظار بطلعته وهيئته، ولذلك أطالت النظر إليه عريب الكبيرة، وهي من هي عيارة.

- ومنها، أنه خَجَلَ واستحيى وبارح المجلس، وذلك يدل على حسن تربيته ونشأته في بيته ومُنَبِّه.

- ومنها، أن رئيسه جعفر الخياط، لما رأى خجله وحياءه، استدعاه وأنعم عليه بمبلغ مهم من المال، أصلح به حاله ومظهره بين أقرانه في الجيش.

- ومنها، أن صديق والده، لاحظ صلاح حاله، وسأله عن أمره، فأخبره بما كان منه. ولما علم أنه حازم ضابط مُدَبِّر كاسمه، يُؤْتَمَن على الأموال، سلَّم له الوديعة التي كانت عنده من قَبْلِ أبيه.

- ومنها، أنه صار غنيا بالصلة التي وصله بها رئيسه، والوديعة المالية التي استلمها من صديق والده، حتى ظن نفسه أنه أجل من المامون في ذلك العسكر، يعني رفاهية وترفا؛ وقد يخطر هذا ببال بعض الشبان وخصوصاً إذا كان حديث عهد بنعمة.

(59) دخل المامون أرض الروم غازياً سنة (830/215) وسنة (832/217).

وفي سنة (833/218) توفي في غزواته، هذه، ودفن بطرسوس، كما في الطبري، ص 280 - 281 - 283.

295، ج 1 وابن الأثير، ص 154-155 من ج 6.

- ومنها، أن ذلك المال كان البذرة الأولى التي أثمرت ما هو فيه من الثروة والغنى،  
والنعم الدافقة، وأن سبب ذلك كله هو كلمة عريب.

### كتابه لمحمد بن عبد الملك الزيات<sup>(60)</sup>

وفي عهد الخليفة المعتصم، تولى الكتابة للوزير أبي عبد الله محمد بن عبد الملك الزيات  
على الجيش.

ويُحكى أنه قال: <sup>(61)</sup> كتبت لمحمد بن عبد الملك الزيات، فاحتيج إلى توجيه بعض القواد  
في أمرهم، فعملتُ باستحقاقه ورجاله عملاً مفصلاً، ثم أجمعتُ التفصيل فغلطت فيه،  
وصككتُ به، وحمل المال إلى القائد وقبضه وشخص، ثم رجعت إلى العمل فتتبعته، فوقع على  
الغلط، فاستحييت من محمد بن عبد الملك، فجلست عنه ثلاثة أيام، فوجه إلي فاستحضرني.  
فكتبتُ إليه أصدقه عن القصّة، واعترف بالخطأ، وأعلمته أن الحياء منعني من الحضور،  
وأحكمه في نفسي في العقوبة، فوقع لي: لا جرم عليك فيما لم تتعمد، فارجع إلى مكانك،  
وتحرّز من الوقوع فيما كان منك. وقاص الرجل وأصحابه بما قبضوه عند استحقاقهم.

ثم حدث ما غيره عليه، فأغرى به الخليفة فنكبه وسجنه.

### نكبه وسجنه

روى القاضي أبو علي المحسن التُّنُوخِي في كتابه «الفرج بعد الشدة»<sup>(62)</sup> والفقير في  
كتابه «الآداب السلطانية والدول الإسلامية»<sup>(63)</sup> أن أحمد بن المدبر قال: لما أمر محمد بن  
عبد الملك الزيات بحبسني، أدخلتُ مَحْبَساً فيه أحمد بن إسرائيل، وسليمان بن وهب، وهما

60) محمّد بن عبد الملك الزيات وَزَّرَ للمعتصم والمتوكل، وكان داهية ذا حزم وقوة. ولد سنة (789/173)،  
وتوفي سنة (847/233).

61) «اعتاب الكتاب» لابن الأثير، ص 158.

62) ص 165 من ج 1، طبع دار الهلال.

63) ص 225 طبع القاهرة سنة (1899/1317)

يطالبان، قال فَجُعِلْتُ في بيتِ ثالثٍ، وكنا نتحدَّث ونأكل جميعاً، وريِّماً أُدْخِل إلينا النِّبِيذ فنشرب، وكان أحمد بن إسرائيل شديد الجبن، وكان ينكر علينا ويمنعنا أن نتحدَّث بشيء أو نرجو لأنفسنا، فجأني يوما سليمان بن وهب فقال : رأيت البارحة في نومي كأن قاتلاً يقول : يموت الواثق إلى ثلاثين ليلة، فَقُم بنا إلى أبي جعفر حتى نحدِّثه، فقلت : والله لئن سمع أبو جعفر هذا لَيَشْفَنَّ ثوبه، وَلَيَسُدَّنْ أذنيه، فقال لي : قُم على كلِّ حال، فقمنا فدخلنا عليه، فأخبره سليمان بالخبر، فقال : يا هذا أنت أحسن النَّاس وأشدَّهم تحنُّناً على نفسك وعلينا، وإنما تريد أن يشيع هذا فتُقْتَل، فقال له : أكتب هذه الرؤيا عندك لمتحن صدقها فنقر، فقال : أنا لا أكتب مثل هذا، فكتبت أنا في رُقعة صغيرة اليوم. فلما جاز يوم الثلاثين، دخل علي أحمد بن إسرائيل فقال لي : يا أبا الحسن، هذا يوم الثلاثين فأخرجت الرُقعة، فإذا هو قد حفظ اليوم، قال : ومضى يومنا إلى آخره. فلما كان في الليل، لم نشعرُ بالباب الا وقد دُقَّ دَقًّا شديداً، وصاح بنا صائح : البشري قد مات الواثق واخرجوا إن شئتم. فضحك أحمد بن إسرائيل، وقال : قوموا لقد تحقَّقت الرؤيا، وجاء الفرج . فقال سليمان بن وهب : كيف نمشي مع بُعد منازلنا، ولكن نوجه من يأتينا بمراكبنا. فاعْتَاطَ أحمد بن إسرائيل وقال : نعم نَقْعُدُ حتى يجلس خليفة آخر، ويقال له : في الحبس جماعة من الكُتَّاب عليهم أموال، فيامر بالتَّوَتُّقِ مِنَّا، إلى أن ينظر في أمرنا. قم عافاك الله حتى نخرج، فخرج وخرجنا على اثره. وقبل أن نخرج من باب الهادوني، رأينا رجلين يقول أحدهما لصاحبه : سأل أمير المؤمنين جعفر المتوكل عمَّن في الحبس، فقيل له : جماعة من الكُتَّاب، فقال : يكونون فيه إلى أن ينظر في أمورهم. فجددنا السير، وقصدنا غير منازلنا، فاستترنا وبحثنا عن الأخبار، فبلغنا إقرار الخليفة محمد ابن عبد الملك الزيات، فكتبت إليه رقعة عن جماعتنا، نُعرِّفه خبرنا، واتساع أماننا فيه، ونستأذن فيما نفعل. فلما وصلت إليه وَقَّعَ على ظهرها :

ولم استخفيتُم ؟ وليس منكم إلا من عَنَّايتي تَخْصُهُ، ورأيي فيه جميل. أمَّا أبو أيوب، فقد تكلم في أمره أبو منصور ايناخ، واستوهبه، فوهبته له، وأمرت بإحضاره يُخلع عليه، فليحضر.

أمَّا أبو جعفر، فإنه طوِّب بما ليس يلزمه، وقد وضحت حجته في بطلانه، فليصر إلي.

وأما أبو الحسن، يعني ابن المدبر، فإنه قُذِفَ بباطل.

فاظهروا جميعاً واثقين بما عندي من حياطتكم ورعاية حرمانكم. قال : فصرنا إليه جميعاً، وزال عنا ما كنا فيه، وخلع على سليمان بن وهب خاصة.

## ولايته قَهْرَمَةُ الدار

بعد خروج أحمد بن المدبر من هذه النكبة، استرجع نعمته ورتبته، وجأه ووجاهته. وتولى في عهد المتوكل قهرمة الدار، وهي رتبة ذات أهمية كبرى بدور الخلافة، لما فيها من النفوذ والكلمة المسموعة، والدنو من الخلفاء، واليد الطولى في قصورهم.

فاحتال الفضل بن مروان<sup>(64)</sup> في حمل المتوكل على عزله منها فَعَزَلَهُ<sup>(65)</sup> حسداً له، بعدما تتبع هفواته، وفضحه بها عند الخليفة.

ومن ذلك<sup>(66)</sup> انه تلاهى معه يوماً بين يديه، قال الصَّوْلِي : وكان الخلفاء لا ينكرون تنازع الكتاب بين أيديهم، وابن المدبر يلي في ذلك الوقت امر دار المتوكل كله : المطابخ، والفرش، وغير ذلك، وفي المجلس مَرْفَقَتَهُ<sup>(67)</sup> قد جُعِلَتْ لامر ولم ترفع، فضرب الفضل بيده على المرفقة ضرباً شديداً، فقام منها غبار كثير، فقال له أحمد : أتخبر بين يدي أمير المؤمنين ؟ أمالك أدب ؟ اما خدمت الملوك ؟ فضحك الفضل وقال : من خدمتي للملوك فعلت هذا، ليرى أمير المؤمنين قلة كفايتك في فرشه، وانك لا تهتم بنفضها، ويعلم كيف يكون فيما يبعد عنه، ولولا خوفاً من سوء الأدب حقاً لضربت البساط، فيرى ما هو أعظم من هذا، فبُهِتَ أحمد، وجعل يعتذر، فما مضت أيام حتى عُزِلَ عن الدار.

## ولايته عملاً لعبيد الله بن يحيى

### ابن خاقان وهربه وسجن أخيه إبراهيم

قال أبو الفرج الاصبهاني في «الأغاني»<sup>(68)</sup> حدثني عمي قال : حدثني محمد بن داود بن الجراح قال : كان أحمد بن المدبر وَلِيَّ لعبيد الله بن يحيى بن خاقان<sup>(69)</sup> عملاً فلم يحمد اثره

64 (الفضل بن مروان استنوزره المعتصم وخدم بعده جماعة من الخلفاء، ولد سنة (786/170) وتوفي سنة (864/250).

65 «اعتاب الكتاب»، ص 157.

66 نفس المصدر، ص 133.

67 المرفقة كمكسدة - المخدة

68 ص 115 من ج 19 طبع الساسي.

69 عُبَيْدُ الله بن يحيى بن خاقان، تولى الوزارة للمتوكل والمعتصم. واد سنة (824/209) وتوفي سنة (876/263).



فيه، وعمل على ان ينكبه، وبلغ أحمد ذلك فهرب. وكان عبيد الله مُنْحَرِفًا عن إبراهيم، شديد النفاسة عليه برأي المتوكل فيه، فانغراه به، وعرفه خبر أخيه، وأدعى عليه مالا جليلا، وذكر أنه عند إبراهيم أخيه وأوغر صدره عليه حتى أذن له في حبسه، فقال إبراهيم وهو محبوس :

تَسَلَّى فَلَيْسَ طَوْلُ الْحَبْسِ عَارٌ      وَفِيهِ لَنَا مِنَ اللَّهِ اخْتِيارٌ  
فَلَوْلَا الْحَبْسُ مَا بُلِيَ اصْطِيارٌ      وَلَوْلَا اللَّيْلُ مَا عُرِفَ النَّهَارُ  
وَمَا الْأَيَّامُ إِلَّا مُعْقِبَاتٌ      وَلَا الْمُسْلُطَانُ إِلَّا مُسْتَعَارُ  
سَيُفْرَجُ مَا تَرَيْنَ إِلَى قَلِيلٍ      مُقَدَّرَةٌ وَإِنْ طَالَ الْإِسَارُ

وزاد ابن الأبار في «اعتاب الكتاب»<sup>(70)</sup> بعد نقل هذه القصة، ان احمد كان أسن من أخيه إبراهيم، وأعلم منه بالاعمال، إلا أن سعدة أقل من سعد إبراهيم.

## ولايته ديوان الخراج الأعظم

قال اليعقوبي في «تاريخه»: <sup>(71)</sup>

"كان المتوكل ولى علي بن عيسى بن يزدانيروذ ديوان الخراج الأعظم، سنة ست وثلاثين ومائتين (850/236)، وبعد شهرين عزله. وولى مكانه أحمد بن محمد بن المدبر، فنظم عماله على طساسيج<sup>(72)</sup> السوداء، وصالحهم على أموال عظيمة.

وكان تحت نظره سبعة دواوين، ديوان الخراج، والضياح، والنفقات الخاصة والعامة، والصدقات، والموالي والغلمان، والجند، والشاكرية، فوفر أموالا عظيمة.

وقد كانت بينه وبين سلفه في هذه الوظيفة، علي بن سليمان المذكور، عداوة ربما نشأت عن تسابقهما في حلبة الرياسة والولاية بهذا الديوان الأعظم، وهي عداوة أو داء، قلما يوجد له دواء.

وكان ابن المدبر يترفع على خصمه، ولا يلتفت إلى الجزئيات، أو يرضى فيه -كما قال- بالمحقرات، أو يكتفي بحرمانه من رزق يأخذه، أو اقتطاع يشمله، ولا يقنع منه الا بسفك دمه، وقطع جرشومته".

(70) ص 158.

(71) ص 488 من ج 2.

(72) الطساسيج : النواحي، والطسوج أيضا حبتان، والدائق أربع طساسيج.

وتفسير ذلك، هو ما نقله لنا، أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري في "كتاب الوزراء والكتّاب" قال: (73).

«كان بين أحمد بن المدبر وبين علي بن عيسى يزدانيروذ عداوة مشهورة، وكانت لعللي مقاطعة، يكتب له بها من الدواوين في كل سنة، فلما حضر وقت الكتاب وأحمد يتقلّد الديوان، قال علي بن عيسى لصاحبه: ادخل الديوان سرّاً، واغرم غرماً، حتى تأخذ الكتاب بالمقاطعة، ولا يراك أحمد فيبطلها، ففعل ذلك صاحبه، واجتهد في ستر الأمر، وانتهى الخبر إلى أحمد ابن المدبر قبل فراغه، فدعا به، وأنكر عليه مسأرتة له، ودعا بالكتّاب حتى انتسخوا الكتاب بحضرته، وعلموا عليه، ودفعه إليه، فأفاض الرجل في شكره وكثر، فقال له: تقول له: أظننت أنني أرضي فيك بالمحقرات، وأقتصر على أن أعترض عليك في مقاطعتك؟ هيهات! الأمر بيني وبينك أعظم من ذلك، ليس بيني وبينك إلا الدم».

ولما تمكّن أحمد بن المدبر من ديوان الخراج الأعظم، وكان وظيفة عظيمة في الدولة، عظم جاهه، وازدادت وجاهته، واتسعت دائرة نفوذه، وظهر براعته في تدبير وتوفير الأموال وجبايتها، وضيق بكتّاب الدواوين، فاحتالوا عليه لخوفهم منه، وقالوا: إن دمشق والأردن في احتياج إلى التعديل، ولا يقوم بالتعديل إلا من ولي ديوان الخراج (74).

## ولايته ديوان الخراج بدمشق والأردن

لما أشاع الكتّاب عن دمشق والأردن احتياجهما إلى التعديل، (75) نقل المتوكل أحمد بن المدبر من ولاية الخراج بالعراق إلى دمشق والأردن سنة أربعين ومائتين (854/240) وقيل: سنة إحدى وأربعين ومائتين (855/241)، وكان ذلك أول انحداره من العراق نحو المغرب، فعدّلهما، وحمل كل أرض ما تستحقه.

وذكر ابن عساكر في تاريخه، (76) أن المتوكل ولي أحمد بن المدبر خراج جُنْدِيّ دمشق والأردن، والمساجد وغيرها.

وحين عزم المتوكل على المسير إلى دمشق، ووصف له برد هوائها، وكان محروراً، كتب إليه يأمره باتخاذ القصور، وإعداد المنازل، وإصلاح الطريق، وإقامة المنازل والمرافد.

(73) ص 252.

(74) «تاريخ اليعقوبي» ص 490 من ج 2

(75) «تاريخ اليعقوبي» ص 490 من ج 2

(76) ص 160 من ج 1

وسار من سُرَّ من رأى يوم الإثنين لعشر بقين من ذي القعدة سنة ثلاث وأربعين ومائتين (ذو القعدة 243/ فبراير 858).

ونزل دمشق يوم الأربعاء لثمان بقين من صفر سنة أربع وأربعين ومائتين (صفر 244/ ماي 858)، فحل بتلك القصور، وأقام بها ثمانية وثلاثين يوماً...<sup>(77)</sup>.

## ولايته خراج مصر

قال اليعقوبي في تاريخه: (78)

لما تولى محمد المنتصر الخلافة، نقل أحمد بن المدبر من ولاية خراج الشام إلى ولاية خراج مصر، وقرَّب أعمال الشام على جماعته، وذلك سنة ثمان وأربعين ومائتين (248/ 862).

ونص المقرئ في كتابه «المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار»<sup>(79)</sup> على أن ولاية أحمد بن المدبر خراج مصر، كانت بعد سنة خمسين ومائتين (864/250).

وإذا كان المنتصر هو الذي ولَّاه، فقد بويع في شوال سنة سبع وأربعين ومائتين (247/ 861)، وتوفي في ربيع الأول سنة ثمان وأربعين ومائتين (248/ 862).

وعليه فإن قول اليعقوبي أولى بالاعتبار، لأنه بغدادى الدار، وكان معاصراً لابن المدبر، وتوفي سنة ثمان وسبعين ومائتين (278/ 891).

وأما المقرئ فقد ولد ونشأ ومات بالقاهرة، سنة خمس وأربعين وثمانمائة (845/ 1441)، فهو متأخر جداً زماناً ومكاناً.

ثم قال المقرئ: «أول من أحدث مالا سوى مال الخراج بمصر، أحمد بن محمد بن المدبر، لما ولي خراج مصر، بعد سنة خمسين ومائتين (864/250)، وكان من دهاة الناس وشياطين الكتاب، فابتدع في مصر بدعا صارت مستمرة من بعده، لا تنقُض، فأحاط بالنظرُون وحَجَّرَ عليه بعدما كان مباحاً لجميع الناس، وقرَّر على الكل الذي ترعاه البهائم، مالا سمَّاه المراعي، وقرَّر على ما يطعم الله من البحر مالا، وسمَّاه المعاید، إلى غير ذلك. فانقسم حينئذ مال مصر إلى خراجي وهلالى. وكان الهلالى يعرف في زمنه وما بعده بالمرافق والمعاون».

(77) «تاريخ اليعقوبي» ص 491 من ج 2.

(78) نفس المصدر ص 493

(79) ص 167 من ج 1، مطبعة النيل سنة 1906/1324.

وكان شديداً على الناس في إلزامهم أداء ما يقرره عليهم من الضرائب، ولو بالسجن، ولا يستثنى منه احداً، ولو كان عالماً أو ذا مكانة في الهيئة الاجتماعية.

ومن ذلك ما ذكره ياقوت في «معجم الأدباء»<sup>(80)</sup> في ترجمة أحمد بن يحيى بن الوزير ابن سليمان بن مهاجر، الفقيه العالم بالشعر والأدب والأخبار وأيام الناس والأنساب، من أنه توفي في حبس ابن المدبر صاحب الخراج بمصر، لخراج كان عليه، قال : ودفن يوم الأحد لاثنتين وعشرين ليلة خلت من شوال سنة خمس مائتين ومائتين (864/250).

وكما كان يلزم الناس بالأداء ولو بالسجن، كان يماطل في أداء ما تكتب له به الحكومة المركزية، وتأميره بتنفيذه وأدائه من أرزاق الناس وذوي الحاجات.

ومن ذلك ما رواه ياقوت أيضاً في «معجمه»<sup>(81)</sup> من أن محمد بن القاسم المعروف بأبي العيّن، وكان من ظرفاء العالم، آية في الذكاء واللّسن وسرعة الجواب واستحضار النكتة، شكاً تأخر أرزاقه إلى عبيد الله بن سليمان فقال له : ألم نكن كتبنا لك إلى ابن المدبر، فما فعل في أمرك ؟ قال : جرنى على شوكة المظل، وحرمني ثمرة الوعد، فقال : أنت اخترته، فقال : وما علي وقد (اختار موسى قومه سبعين رجلاً). فما كان منهم رجل رشيد (فأخذتهم الرجفة) واختار النبي ﷺ ابن أبي سرح كاتباً فلحق بالمشرّكين مُرتداً، واختار علي بن أبي طالب أبا موسى الأشعري حكماً فحكم عليه.

وقال ياقوت أيضاً : ووعده بدايةً، فلما طالبه بها قال : أخاف أن أحملك عليها فتقطعني ولا أراك، فقال : عدني أن تضم إليها حملاً لأواظب مقتضياً. ووعده يوماً أن يعطيه بغلاً فلقيه في الطريق، فقال كيف أصبحت يا أبا العيّن ؟ فقال : أصبحت بلا بغل، فضحك منه وبعث به إليه.

وهكذا استمر ابن المدبر في ولايته المصرية، يقرر الضرائب، ويُنمي الدخل المالي، فكرهه الناس، وكادوا له كيّداً، فأحس بذلك، واحتاط لنفسه، واتخذ حرساً وجنداً يبلغ نحو مائة غلام هندي ممتازين بالقوة والشجاعة، فكانوا لا يفارقونه في حله وترحاله<sup>(82)</sup>.

(80) ص 149 من ج 5.

(81) نفس المصدر ص 286 و 293 من ج 18.

(82) «تاريخ مصر الحديث» ص 190 من ج 1.

## المبحث الخامس

### أحمد بن المدبر وأحمد بن طولون

قال المقرئ في «خططه»: (83) لما استلم أحمد بن طولون ولاية مصر سنة أربع وخمسين ومائتين (868/254)، كان على الخراج أحمد بن محمد بن المدبر، وهو من دهاة الناس وشياطين الكتاب كما تقدم، فأهدى إليه هدايا قيمتها عشرة آلاف دينار، بعدما خرج إلى لقائه هو وشقيق الخادم، غلام فتحية أم المعتز، وهو يتقلد البريد، فرأى ابن طولون، بين يدي ابن المدبر، المائة غلام المتقدمة الذكر، قد انتخبهم وصيّرهم عدة وجمالا، وكان لهم خلق حسن، وطول أجسام، وبأس شديد، وعليهم أقبية ومناطق ثقال عراض، وبأيديهم مقارع غلاظ، على طرف كل مقرعة مقمعة من فضة، وكانوا يقفون بين يديه في حافتي مجلسه إذا جلس. فإذا ركب ركبا بين يديه، فيصير له بهم هيئة عظيمة في صدور الناس.

فلما بعث ابن المدبر بهديته إلى ابن طولون ردّها عليه، فقال لابن المدبر: إن هذه لهمة عظيمة، ومن كانت همته هكذا، لا يؤمن على طرف من الأطراف، فخافه وكره مقامه بمصر معه، وسار إلى شقيق الخادم، صاحب البريد، واتفقا على مكاتبة الخليفة بإزالة ابن طولون.

فلم يكن غير أيام، حتى بعث ابن طولون إلى ابن المدبر يقول له: قد كنت أعزك الله، اهديت لنا هدية وقع الغنى عنها، ولم يجز أن يغتنم ما لك كثره الله، فرددتها توفيرا عليك، ونحب أن تجعل العوض عنها الغلمان الذين رأيتهم بين يديك. فأنا اليهم احوج منك. فقال أحمد بن المدبر لما بلغته الرسالة: هذه أخرى أعظم مما تقدم قد ظهرت من هذا الرجل، إن كان يرد الأعراض ويستهدي الرجال ويثابر عليهم، ولم يجد بدا من بعثهم إليه، فتحولت هيئة ابن المدبر إلى ابن طولون، ونقصت مهابة ابن المدبر لمقارعة الغلمان مجلسه.

قلت : هذا من دهاء ابن طولون وحكمته، فإنه تعفّف او تعالى عن اخذ ماله وهديته، ولكنه جرّده من قوته، ومنعه من الركون والاطمئنان الى حاشيته وحراسته، ليسهل تناوله باليد، اذا ساعدت الظروف الزمانية والمكانية على سلبه من وظيفته، وسجنه او اذهاب مهجته.

إِنَّ الْأَسْوَدَ أَسْوَدُ الْغَابِ هِمَّتُهَا يَوْمَ الْكَرِيهَةِ فِي الْمَسْلُوبِ لَا السَّلْبِ  
وكذلك كان كما سيأتي :

ثم كتب ابن المدبر فيه إلى الحضرة يغري به، ويحرّض على عزله، فبلغ ذلك ابن طولون، فكتمه في نفسه ولم يبده.

وأنفق موت المعتز في رجب سنة خمس وخمسين ومائتين (869/255)، وقيام المهدي بالله محمد بن الواثق، وقتل بابل، ورد جميع ما كان بيده إلى ماجور التركي حمو ابن طولون، فكتب إليه : تسلم من نفسك لنفسك، وزاده الأعمال الخارجة عن قسبة مصر، وكتب إلى اسحاق بن دينار، وهو يتقلّد الإسكندرية، أن يُسلمها لأحمد بن طولون، فعظمت بذلك منزلته، وكثر قلق ابن المدبر وغمّه، ودعته ضرورة الخوف من ابن طولون إلى ملاطفته، والتقرب من خاطره.

ثم حدثت أحداث بالشام والعراق، وحاول أحمد بن المدبر اغتنامها فبعث بسبعمئة ألف وخمسين ألف دينار حملا من مصر إلى بغداد، ففرقت بدون نتيجة.

وبعد قتل المهدي، وبيعة المعتمد بن المتوكل سنة ست وخمسين ومائتين (870/256)، كتب لابن المدبر أن يطلق من المال لابن طولون ما شاء لمحاربة المشغّبين على الدولة بالشام، ففعل.

ثم تلاحق<sup>(84)</sup> أحمد بن المدبر، وأحمد بن طولون، وكشف كل منهما اللثام عن وجهه، وأفسد بينهما شقير الخادم المعروف بأبي صحبة، وكان يتولى البريد وضياعا من ضياع الأقطار، وما يستعمل للسلطان من المتاع، وكتب كل منهما إلى الحضرة يغري به، وكان لابن طولون أعين وأصحاب يطلعون على سائر ما يروج بالحضرة.

فلما بلغه ذلك، تلطّف حتى توصل بكتب ابن المدبر، وشقير، من غير أن يعلم بذلك، فإذا فيها : ان أحمد بن طولون عزم على التغلب على مصر والمجاهرة بالعصيان، فكتم ذلك.

(84) «تاريخ اليعقوبي» ص 493 من ج 2، و«الخطط» المقرئية. صفحة 107، ص ج 2.

وبإثره مات شقير، وانفرد ابن المدبر، فكتب حينئذ ابن طولون إلى الحضرة يسأل صرفه عن الخراج وتقليد محمد بن هلال، فأجيب إلى ذلك، وصدر أمر الخليفة بعزله، وتولية ابن هلال.

وحينئذ قبض أحمد بن طولون على أحمد بن المدبر وحبسه وقيده، زاد اليعقوبي :  
والبسبه جبة صوف واقفه في الشمس، فاقام بهذه الحالة ثلاثة أشهر.

ثم ورد الامر برده إلى خراج مصر، فاقام تسعين يوما وورد الامر أيضا بإزالته ورد محمد بن هلال.

قال اليعقوبي :<sup>(85)</sup> ثم جاء امر المعتمد إلى ابن طولون متعقبا ما سبق، برّد أحمد بن المدبر إلى تدبير خراج مصر كما كان سابقا، فوجده الحال محبوسا في سجن ابن طولون، فأخرج يوم السبت لسبع ليال بقين من ذي القعدة، سنة ست وخمسين ومائتين (870/256)، وتولى الخراج، وكان حبسه تسعة أشهر وخمسة وعشرين يوما.

وبعد ذلك اشتد الصراع بين الأحمدين، وحدثت حوادث، ءالت إلى خروج ابن المدبر عن مصر، وتقلد ابن طولون خراجها، وجمع بين الرياستين المالية والحكومية.

## رجوع أحمد بن المدبر لتدبير خراج الشام

قال اليعقوبي<sup>(86)</sup> في المحرم سنة ثمان وخمسين ومائتين (محرم 258/نوفمبر 871)، خرج أحمد بن المدبر من القسطنطينية متوجها إلى الشامات فأقام بها، وقصد مدينة دمياط، وتولى أعمال الخراج، وصرف خراج مصر إلى أحمد بن محمد بن شجاع.

ولما رجع إلى الشام، ابتهج به الشاميون.

قال ابن عساكر، حاكيا عن أبي زرعة عبد الرحمان بن عمرو : قلت لابن المدبر بعد عوده من مصر : سبحان من أتى بك بعد إبانك على فاقة إليك، وحاجة وخلة واختلال، ولقد أملتُ بمقدمك، - مدُّ الله في طول أيامك -، أن تكون بركة، كخيث نزل يارض قُفْرَاء أمحلت لفقد الغيث، فلما أغيثت أخرجت بركتها، وظهert زيتتها وبهجتها، وإني لأرجو أن يصلح الله بك،

(85) «تاريخ اليعقوبي»، ص 508 من ج 2.

(86) ص 509 من ج 2.

وعلى يدك، وإن يعمر الأرض ويذكوا الفقيء. قال أبو زرعة : فلما خرجنا عنه قال لي عبد الله ابن نكوان : ليته كان قاضيا علينا.

قالوا :<sup>(87)</sup> وقبل مفارقتة مصر، اجتهد حتى أعاد صلات الوصل بينه وبين ابن طولون، وتوطيداً لها، زوج ابنته لخمارويه بن أحمد بن طولون، ووهبه معها جميع الأملاك التي كانت له بمصر.

ومع هذا كله، فإن هذا الصلح كان مبنياً على بخن، إذ كانت الشام داخلة تحت نفوذ ابن طولون، وكان المثال ان ابن طولون أعاد الكرة على خصمه ابن المدبر، واصطلم نعمته، وسجنه وداس كرامته.

## قتل أحمد بن المدبر

### وفاة أحمد بن طولون

بقي أحمد بن المدبر بالشام، وأحمد بن طولون بمصر يتجاذبان حبل الرياسة، ويتسابقان في ميدان السياسة، ويستغل كل واحد منهما الظروف والحوادث التي تبرزها الأيام، ويتربص كل واحد منهما بصاحبه الدوائر.

وحدثت فتنة العباس بن أحمد بن طولون، وخلافه على أبيه، وخروجه إلى برقة والمغرب الأوسط، ولم نقف على نص صريح يفصح عن موقف أحمد بن المدبر منها، إلا ما سنستنتجه من أقوال بعض المؤرخين، وأخيراً كانت الدبرة على ابن المدبر، فأدبرت أيامه، ولحق به خصمه، فطويت أعلامه، وعند الله تجتمع الخصوم.

قال ابن عساكر، نقلاً عن صالح بن مسافر الكاتب،<sup>(88)</sup> ان ابن طولون استدعى ابن المدبر من دمشق، فلما قدم عليه، حبسه وضيق عليه، فكتب إليه رقعة من الحبس، ودفعها إلى من كان يتولى خدمته، وأمره ان لا يدفعها إلا في يد ابن طولون، فأوصلها إليه، فدعا ابن طولون كاتبه ابن حدار، وكان شاعراً أديباً وقال له : اقرأ فقرأها فإذا مكتوب فيها.

(87) «تاريخ مصر الحديث»، لزيدان ص 195 من ج 2.

(88) «تاريخ ابن عساكر» ص 61 من ج 1.



أُرِيتُ قَبِيلَ الصُّبْحِ رُؤْيَا كَأَنَّا  
إِذْ فَارَسُ يَهْوِي إِلَى السَّطْحِ مُقْبِلًا  
يُلَوِّحُ بِالْبَشِيرِ إِلَيْكَ مُبَادِرًا  
وَقُلْ لِي قَدَتِكَ النَّفْسُ مِنْ كُلِّ حَادِثٍ  
أَمَا كَانَ دُونَ الْحَبْسِ لِلْمَرْءِ مَعْتَبُ  
يُصْرَحُ بِالْبَهْتَانِ تَصْرِيحٍ مَارِحٍ  
جَمِيعاً عَلَى سَطْحٍ يُنِيفُ بِنَا السَّطْحِ  
أَخُو شَكَّةٍ بُرْهَانُهُ السَّيْفُ وَالرُّمْحُ  
بِعَقْبِ كِتَابِ الْفَتْحِ إِذْ قُرِيَ الْفَتْحُ  
وَإِنْ بَانَ بِالنَّفْسِ النَّفَاسَةُ وَالشَّحُ  
يَتَمَوَّيْهِ وَاشْ شَائَهُ الْقَذْفُ وَالْقَذْحُ  
وَيَا رَبَّ جِدِّ قَادَهُ اللَّعْبُ وَالْمَرْحُ

فقال لابن حدار : أجبته، فقال : بالرضا أم بالسخط ؟ فقال : بالسخط فقلب الرقعة،

وكتب في ظهرها :

أَأَحْمَدُ كَانَ السُّطْحُ بَيْنَ مُحَمَّدٍ  
مَتَى كُنْتُ بِالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ مَوْقِنًا  
وَلَكِنْ أَدَامَ اللَّهُ عِزَّ أَمِيرِنَا  
فَكَمْ دَبَحْتَ كَفَاكَ مِنْ رَبِّ نِعْمَةٍ  
فَأَصْبَحَ مِمَّا خَوْلَ اللَّهُ عَارِيًا  
وَمَنْ عَدَلْنَا أَنْ قَدْزُوَيْتَ مُضِيًّا  
فَلَوْ جَاعَا النَّاعِي بِنَعْيِكَ جَاعَا  
مُنِيفًا، وَلَوْ عَالَيْتَهُ أَنْخَسَفَ السُّطْحُ  
فَتَصَدَّقَ فِي رُؤْيَاكَ إِذْ قُرِيَ الْفَتْحُ  
وَدَامَتْ لَهُ النُّعْمَى وَدَامَ لَهُ النُّجُجُ  
بِلَا شَفَرَةٍ بَلْ يُحْتَوَى الْمَلِكُ وَالسَّرْحُ  
فَلَا جَاهُهُ يَبْقَى وَلَا الْمَالُ وَالرَّيْبُ  
عَلَيْكَ فَلَا عَفْوٌ مُرَجَّى وَلَا صَفْحُ  
بِأَنْ جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ لِلنَّاسِ وَالْفَتْحُ

فلما قرأها عند ذلك يش من نفسه.

وقال أحمد بن خاقان : إِنَّ أَحْمَدَ بْنَ طُولُونَ أَشْخَصَ أَحْمَدَ بْنَ الْمَدْبَرِ إِلَى مِصْرَ سَنَةَ  
خَمْسَ وَسِتِينَ وَمِائَتَيْنِ (878/265)، وَحَبَسَهُ فِي أَضْيَاقِ مَجْلِسٍ حَتَّى مَاتَ. فَذَكَرَ أَحْمَدُ بْنُ كَامِلٍ  
ابْنَ خَلْفٍ، أَنَّ الْخَبَرَ وَرَدَ بِمَوْتِهِ فِي حَبْسِ ابْنِ طُولُونَ سَنَةَ سَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ (883/270)، وَذَكَرَ  
ابْنَ الْقَوَاسِ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ سَنَةَ أَحَدَى وَسَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ (884/271).

وقال ابن تغرى بردى في «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» (89) :

وفيهما، أَيُّ سَنَةِ سَبْعَ وَسِتِينَ وَمِائَتَيْنِ (880/267) وَثَبَّ أَحْمَدُ بْنُ طُولُونَ عَلَى أَحْمَدَ بْنَ  
الْمَدْبَرِ، وَكَانَ مَتَوَلِيَا خَرَاJ دِمَشْقَ وَالْأُرْدُنَّ وَفِلَسْطِينَ، وَحَبَسَهُ، وَآخَذَ أَمْوَالَهُ، ثُمَّ صَالَحَهُ عَلَى  
سِتْمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ بَقِيَ هَذِهِ الْمَرَّةَ فِي سِجْنِ ابْنِ طُولُونَ حَتَّى مَاتَ.

وذكر ابن خلكان: <sup>(90)</sup> أنه كان متولياً خراج مصر سنة خمس وستين ومائتين (265/878)، وحبسه ابن طولون. ومات في حبسه في صفر سنة سبعين ومائتين (270/883)، وهو ما تقدم أعلاه نقلاً عن ابن عساكر. وقيل بل قتله ابن طولون، ولم يمضِ حتفُ أنفه، والله أعلم. وفي ليلة الأحد لعشر خلون من ذي القعدة من هذه السنة، توفي أحمد بن طولون أيضاً، ولحق الخصمان بريهما، وهو سبحانه الحكم العدل بينهما.

هذا وقد علمنا مما جمعناه والتقطناه من أخبار أحمد بن المدبر، الذي يقال إنه الجد الأكبر لبني عشرة، المبعثرة في بطون الدواوين، وكتب التراجم والتاريخ والأدب والأخبار، أنه كان من كتاب الدولة العباسية البارزين المشار إليهم بالبنان، ومن جباة أموالها، ومنظمي خراجها بالعراق والشام ومصر. وأنه كان من رجالاتها المعدودين، الذين لهم في الدهاء والمعرفة ذكر وشان. ولذلك تجاذب حبل الرئاسة والسياسة والظهور مع أحمد بن طولون، وحصل بينهما نزاع وشنآن، انتهى بالقضاء على أحمد بن المدبر، ولم ينفعه معه حزم ولا تدبير، ونفذت فيه مشيئة الحكيم القدير.

### أولاد أحمد بن المدبر وذريته بمصر

علمنا مما سبق من أخبار أحمد بن المدبر، أنه كان له ولد بالعراق اسمه أبو غالب، ساد وظهر في حياته، ومدحه البحتري كما مدح والده وعمه إبراهيم. ولا نعلم هل رافق والده إلى الشام ومصر أم لا. ولعله بقي بالعراق، لأننا لم نقف له على ذكر أثناء الأطوار التي تقلب فيها والده، والحوادث التي مرت عليه في القطرين المذكورين.

وعلمنا أيضاً مما تقدم، أن أحمد بن المدبر، فارق العراق منحدرًا إلى الشام سنة أربعين ومائتين (240/854).

ودخل مصر سنة ثمان وأربعين ومائتين (248/862).

وأقام بها إلى أن مات، سنة سبعين ومائتين (270/883) ما يزيد على عشرين سنة، تخللها فترة رجوعه إلى الشام، لما ثارت عاصفة الخلاف والعداوة بينه وبين أحمد بن طولون.

(90) ص 55 من ج 6، طبع دار النهضة سنة 1948.

ولاشك أنه كان له في هذه الفسحة من حياته بالشام ومصر أزواج وذرية، لم تبلغنا عنها تفاصيل كافية، ولم نعرف عددها، ولا أسماء أفراد أعيانها، وإنما ورد ذكر بعض أحفاده، وأحفاد أحفاده، أو الإشارة إليهم أثناء سياق بعض الأخبار، أو سرد بعض الوقائع التاريخية، وربما أبهم اسمهم، واكتفى بنسبتهم إليه كما سيأتي أثناء تلفيق الأخبار القليلة التي التقطناها من كتب التاريخ والتراجم.

ومن ذلك أنه كانت له بنت بمصر، زوّجها لخمارويه، ولد أحمد بن طولون، وخلفه في الإمارة بعده تاميناً له، وتسكيناً لثورته، ورغبةً في ربط صلة الوصل بينه وبينه بالمصاهرة، فلم يُجد ذلك نفعا<sup>(91)</sup>.

ومن ذلك، أنه كان له ولد اسمه محمد. وهل هو أبو غالب؟ وكان لهذا الولد ولد اسمه عبد الله، وهو الذي روى لنا قصة خروج جده في جيش المامون إلى أرض الروم كاتبا مع جعفر الخياط، حسبما تقدم نقلا عن كتاب «الوزراء والكتاب» للجهشياري<sup>(92)</sup> وليست لدينا الآن معلومات أخرى عن الوالد وولده.

ومن أعيان حفدته الذين لم نقف على اسمهم بالتعيين «الشيخ ابن المدير» الكاتب مع وزير الدولة الاخشيدية، بالديار المصرية، أبي الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات، المعروف بابن حنّزابة<sup>(93)</sup> وهي جدته، وبها كان يعرف، المتوفى سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة (391/1001).

وله معه قصة ظريفة طريفة، أوردها كل من ياقوت الحموي في «معجم الأدباء»<sup>(94)</sup> ومحمد شاكر في «فوات الوفيات»<sup>(95)</sup> ولطافتها وطرافتها وغرابتها، وما يستنتج منها، لم نر بدءاً من إدراجها وهي :

(91) «تاريخ مصر الحديث»، لجرحي زيدان، ص 195 من ج 1.

(92) ص 199.

(93) حنّزابة بكسر الحاء المهملة وسكون النون وفتح الزاي ويعد الألف باء موحدة مفتوحة ثم هاء ساكنة المرأة القصيرة الغليظة.

(94) ص 170 والتي بعدها من ج 7 طبع الطبعة.

(95) ص 204 والتي بعدها من ج 1.

قال ياقوت :

قرأت بخط الشريف النسابة، محمد بن أسعد بن علي الجواني المعروف بابن النحوى :  
كان الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف بابن حَزْأَبَة، يهوى النظر إلى الحشرات من  
الأفاعي، والحيات، والعقارب، وأم أربعة وأربعين، وما يجري هذا المجرى. وكان في داره  
التي تقابل دار الشُّنْتِكَا نِي ومسجد ورش. - وكانت المَآذِرَانِي قبل ذلك - قاعة لطيفة مرخمة،  
فيها سُلُلُ الحَيَّات، ولها قيم فراش حارٍ من الحُوءَة، ومعه مستخدمون برسم الخِدْمَة، ونقل  
السُّلُل وحِطَّهَا. وكان كل حارٍ في مصر وأعمالها، يصيد له ما يقدر عليه من الحيات، ويتباهون  
في ذوات العجب من أجناسها، وفي الكبار، وفي الغريبة المنظر. وكان الوزير يثيبهم في ذلك  
أَوْفَى الثواب، ويبذل لهم الجزيل حتى يجتهدوا في تحصيلها. وكان له وقت يجلس فيه على دكة  
مرتفعة، ويدخل المستخدمون والحِوءَة، فيخرجون ما في السُّلُل ويطرحونه في ذلك الرخام  
ويحَرُّشُون بين الهوام، وهو يتعجب من ذلك ويستحسنه.

فلما كان ذات يوم، أنفذ رقعة إلى الشيخ الجليل ابن المدبر الكاتب، وكان من أعيان  
كتاب ءابائه ودولته، وكان عزيزا عنده، وكان يسكن في جوار دار ابن الفرات، يقول فيها :

نشعر الشيخ الجليل -أدام الله سلامته- انه لما كان البارحة، وعرض علينا الحِوءَة  
الحشرات الجاري بها العادة، انساب إلى داره منها الحية البتراء، وذات القرنين الكبرى،  
والعُقْرَبَان الكبير، وأبو صوفة، وما حَصَلُوا لَنَا إِلَّا بعد عناء ومشقة، وبجملته بذلناها لِلْحُوءَة.

ونحن نامر الشيخ - وفقه الله تعالى - بالتوقيع إلى حاشيته وصبيته، بِصَوْنٍ ما وَجَد  
منها، إِلَى أَنْ نُنْفِذَ الحُوءَة لأخذها وردها إِلَى سُلَّهَا.

فلما وقف ابن المدبر على الرقعة قلبها وكتب في ذيلها :

أتاني أمر سيدنا الوزير - أدام الله نعمته، وحرس مدته - بما أشار إليه في أمر  
الحشرات، والذي يعتمد عليه في ذلك، أَنَّ الطَّلَاق يلزمه ثلاثا إِنْ بات هو أو واحد من أولاده  
في الدار، والسلام.

ويستنتج من هذه القصة عدة استنتاجات :

- منها، اعتناء هذا الوزير بجمع الحشرات والحيات وأنواع الحيوانات الرَّاحِقة، وأنه كان  
يهوى النظر إليها إما للتسلية والعبرة أو الدرس، شأن ما يفعله علماء العصر الإختصاصيون

في علم الحيوانات ودرس طبائعها (Zoologues)، من إحداث أقسام في المتاحف العلمية لعرض هذه الحيوانات حية وميتة. وهو ما يعبرون عنه بعلم الحيوان، أو درس طبائع الحيوان (Zoologie) ويقصدها الناس والسياح من البلاد الدائنية والقاصية، بقصد التسلية أو العبرة، أو الدرس كذلك، حسب مذهب كل واحد منهم ومشربه.

وعليه فليس بغريب ما فعله هذا الوزير، وقد تقدّم من أتى بعده من علماء درس الحيوان وطبائعه في عصرنا هذا بنحو ألف عام .

- ومنها، ان ابن المدير هذا، وان كان الوزير ابن حنّابة أبيهم اسمه، فقد كان على ما يظهر من ذوي الإجلال والوقار، ولذلك خاطبه مع مكانته العلمية، ورتبته الوزارية، وما أدراك ماهية، في تلك الأزمنة الخالية، - بالشيخ الجليل - ولاشك أن هذا الخطاب يُشعر بالاحترام الكبير، ومزيد التقدير.

لَسْنَا نُسَمِّيكَ إِجْلَالًا وَتَكْرِمَةً وَقَدْرُكَ الْمُعْتَلَى عَنْ ذَاكَ يُغْنِينَا

- ومنها، أنه كان كاتباً في ديوانه، ولذلك خاطبه بالكاتب.

- ومنها، أنه كان من أعيان كُتّاب عابائه من الوزراء مال الفرات الذين سبقوه، مما يدلّ على أنه كان عريقاً في خطة الكتابة التي كان لها اعتبار وشأن عند أولئك القوم في ذلك الزمان، ودولته، يعني الدولة الكافورية الإخشيدية.

- ومنها، انه كان حظياً أثيراً عنده، مرموقاً بعين الاعتبار وسُمُو المكانة لديه، ولذلك الآن له القول ولطف العبارة.

- ومنها، انه كان يسكن بجوار داره، ليكون قريباً منه كلما احتاج إليه، وذلك دليل على اختصاصه به، وملازمته له، شأن الكُتّاب المقربين من الرؤساء والأمراء لكفائهم، وقيامهم بوظيفتهم في كل وقت وحين.

- ومنها، أن الشيخ ابن المدير، لما أتاه أمر الوزير بصيانة الحيات والعقارب المنسابة لداره، استشعر شراً، وخشي على نفسه وأولاده منها.

فأجاب مقسماً بالطلاق، بأنه لا يبيت هو أو أحد من أولاده بتلك الدار خوفاً من إدايتها، يعني وللوزير الحق في تفتيشها وتطهيرها من الحيات والحشرات، وردها لسليلها في قاعتها المختصة بها في داره.

ومن أعيان حفدة أحمد بن المدبر الذين ورد لهم ذكر في الدولة الفاطمية "عبد الله بن يحيى بن المدبر"، ولم نقف على من رفع نسبه بعد يحيى، ووصله بأحمد بن المدبر، وعلى كل حال فهو من حفدة حفدته الذين نشأوا بمصر، ولم يفارقوها، إذ بين تاريخ وفاتيهما نحو مائة وخمس وثمانين سنة.

ويؤخذ ممّا عثرنا عليه حتى الآن من أخباره القليلة، أنه كان من أعيان الدولة الفاطمية ورجالها البارزين، ولذلك ولأه الخليفة المستنصر الوزارة بعد عزل الوزير البابلي في المحرم سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة (1061/453).

ثم صرفه في رمضان من السنة، وتداول الوزارة بعده آخرون، إلى سنة خمس وخمسين وأربعمائة (1063/455) فأعيد للوزارة في صفر منها، بدلاً من الوزير أبي علي أحمد بن عبد الحكم، وبقي فيها إلى أن مات في شهر جمادى الأولى من السنة نفسها<sup>(96)</sup>.

وجاء في «النجوم الزاهرة» لابن تغرى بردى<sup>(97)</sup> أنه كان له ابن أخ من رجال الدولة الفاطمية أيضاً وأصهارها، لأنه تزوج إحدى بنات نزار بن الخليفة المستنصر. وكان مع ناصر الدولة بن حمدان، لما قتله إلكز التركي عقب فتنة الترك والسودان انصار أم الخليفة السودانية والمتعصبين لها والمُعصّوصبين عليها، فانهزم أمامه لما قامت الهيئة في رمضان سنة خمس وستين وأربعمائة (1073/465) في زي المكين، فأخذ، وحيث كان تزوج حفيدة الخليفة، فقد قطع ذكره وجعل في فمه ثم قُتل.

وجاء فيه أيضاً<sup>(98)</sup> أن بدر الجمالي لما وصل مصر مُلبياً دعوة الخليفة المستنصر لما استنصر به على إلكز المذكور، قاتل ناصر الدولة والمستبد عليه، وجده تغلب على مصر ووصل إلى دمياط. قال: وبها يومئذ ابن المدبر، ولم يذكر إسمه. وكان قد هرب منه، فقتله وصلبه وعاد إلى مصر.

ولما دخل بدر الجمالي مصر، احتال على إلكز، عدو الخليفة، حتى قتله، وذلك كله سنة سبع وستين وأربعمائة (1074/467)، وهو بلا ريب غير ابن المدبر المتقدم الذكر، الذي

(96) «حسن المحاضرة» للسيوطي ص 153 و 154 من ج 2 و«تاريخ مصر الحديث» لزيدان ص 269 من ج 1، والإشارة إلى من نال الوزارة لابن الصيرفي، المصري، ص 48

(97) ص 22 من ج 5 و«تاريخ مصر الحديث» ص 277 من ج 1.

(98) نفس الصفحة ونفس الجزء.

كان متزوجاً بحفيدة الخليفة، لأنه مُثِّلَ به وقُتِل، سنة خمس وستين وأربعمائة (1073/465). وهذا لم يُقتل إلا في سنة سبع وستين وأربعمائة (1074/467) ولعلّه كان والياً أو من الموظفين بدمياط، أو ذوي النفوذ والجاه بها.

والذي يُوخذ من هذا كله، هو أن جميعهم من الأسرة المدبرية النازحة إلى مصر، وحافظت على ذكرها ومركزها فيها نحو قرنين من الزمن، ومن حين لآخر كان يلمع منها نجم يضيء في سماء الرياسة والحكم والسياسة، ثم يختفي، والله عاقبة الأمور.

## انتقال آل أحمد بن المدبر من مصر إلى المغرب الأوسط

تبين لنا مما سطرناه في الفصل السابق، أن آل المدبر بقيت منهم بقية بمصر، وظهر أفراد منهم في الدولتين الإخشيدية، والفاطمية. وكان لهم ذكر ومقام في الكتابة والوزارة.

وليس لدينا الآن نص صريح نعتد عليه، يُفصح عن سبب وكيفية انتقال زمرة منهم، أو فرد من أفرادهم من مصر إلى المغرب الأوسط، ولا تعيين الزمن الذي وقع فيه هذا الانتقال بالضبط. وهذه نقطة غامضة في أخبار بني عشرة المنتسبين إليهم. ولم يبق لدينا إلا فروض واحتمالات وظنون واستنتاجات تاريخية تحتمل الصدق والكذب لذاتها، حتى يقوم الدليل بالنص الصحيح على نفيها أو إثباتها. وعليه :

فهل كان هذا الانتقال في زمن ابن طولون أو بعده ؟ وإذا كان في زمن ابن طولون، فهل فراراً منه لمأ نكب والدهم وسجنه، وسلبه رياسته ونعمته ؟ وهذا محتمل جداً لأنه :

لَا يُقْسِمُ عَلَى ضَمِيمٍ يُرَادُ بِهِ إِلَّا الْأَدْلَانِ عَيْرَ الْحَيِّ وَالْوَتْدُ  
فَذَا عَلَى الْخَسْفِ مَرْبُوطٌ بِرُمْتِهِ وَذَا يُشَجُّ فَلَا يَرِثِي لَهُ أَحْسَدُ

أو كان انتقَالُهم اختياراً منهم للهجرة من مصر ؟ حيث لم يبق لهم بها رياسة ولا ذكر ولا كرامة في الدولة الطولونية، لأن العز في النقل، وإذا نبا بك منزل فتحول.

أو دخلوا إلى إفريقية، بصفة أخرى مع بعض السرايا الحربية، أو القوافل التجارية ؟ أو لسبب آخر من الأسباب، التي لم نعلمها ولم يصلنا خبرها ؟

وهناك احتمال آخر، وهو أن آل المدبر لما ادبرت عنهم الأيام، وثار العباس بن أحمد بن طولون على والده، وتوجه إلى إفريقية، ووصل إلى برقة، سنة خمس وستين ومائتين (878/265) انضموا إليه، انحرافاً عن والده لما بينهم وبينه من العداوة، والتنافس على الرياسة، ولما وصلوا إلى إفريقية التحقوا بالثوار، ومنها تسربوا إلى المغرب الأوسط، فاستقروا به إلى أن كان منهم الأمير عشرة.

ولعل هذه الفتنة كانت من الأسباب التي دفعت ابن طولون إلى الوثوب وثبته الأخيرة على أحمد بن المدبر سنة سبع وستين ومائتين (880 / 267)، وحبسه واخذ ماله كما تقدم نقلاً عن ابن تغري بردي في «النجوم الزاهرة»<sup>(99)</sup>

وقد تعاقبت على إفريقية والمغرب الأوسط منذ انتهاء فتنة العباس ولد أحمد بن طولون في السنة المذكورة إلى أن ظهر عشرة بالمغرب الأوسط ووفد على هشام المؤيد بالأندلس، كما سيأتي، عدة دول، وهي :

- الدولة الفاطمية ، بطرابلس وتونس ، قبل أن تنتقل إلى مصر من سنة ست وتسعين ومائتين (909/296) إلى سنة اثنتين وستين وثلاثمائة (972/362).

- والدولة الرستمية، بالمغرب الأوسط، وشملته كله، ما عدا ناحيتي الزاب وتلمسان، من سنة ستين ومائة (976/160) إلى سنة ست وتسعين ومائتين (972/296).

- والدولة الإدريسية، ولم يمتد نفوذها إلا على طرف من المغرب الأوسط فقط، ولم يشملها كله، من سنة اثنتين وسبعين ومائة (789/172) إلى سنة إحدى عشر وثلاثمائة (923/311).

- والدولة الصنهاجية، ابتدأت سنة إحدى وستين وثلاثمائة (972/361) وطال زمنها، وانقسمت في الأخير إلى قسمين.

شرقي : وعاصمته القيروان

وغربي : وقاعدته القلعة الحمادية



إلى أن قضى عليها عبد المومن بن علي سنة سبع وأربعين وخمسمائة (1153/547)، ولم يرد لآل المدبر ذكر في هذه الدولة، ولا في حروفيها بالمغرب الأوسط وإفريقية، بل اختفى هذا الإسم ما يزيد على مائة عام، إلى أن ظهر عشرة الذي قيل إنه منهم مُتَّصِفاً بالإمارة من غير تعيين محلها بالمغرب الأوسط.

\* \* \*

وقد ظهر لنا بعد البحث في آل المدبر، وبنى عشرة المنتسبين إليهم، أن نُنْظَرُ بينهم وبين بني حمدون، مع مراعاة النظر، ومقابلة المشبه بالْمُشَبَّهِ بِهِ في حسن التنظير، بمن تعاقب على هذا المغرب الكبير، من الأسر السرية النبيلة من أمير ووزير، ولا يَخْلُو ذلك من فائدة تاريخية، وملح أدبية، لا تخرج عن نطاق دائرة موضوعنا، وربما ستجر ذيلها على ما سنحرره فيما سيأتي من فصول أبحاثنا، فنقول :



## المبحث السادس

### التنظير بين آل المدبر وبين آل حمدون<sup>(100)</sup>

نظير آل أحمد بن المدبر، الذين جاؤا من العراق إلى الشام، ثم إلى مصر ثم إلى المغرب الأوسط، وظهر منهم به عشرة الذي كان من شيعة الامويين بالأندلس، واقطعه هشام المؤيد أرض سلا، آل حمدون بن سماك بن مسعود بن منصور الجذامي، المعروف بابن الأندلسية، الذين جاؤا من الشام، وجدهم الأكبر، عبد الحميد، كان الداخِل إلى الأندلس. ولا نعلم بالضبط تاريخ دخوله.

ثم انتقل أحد حفدته، حمدون، المُسمَّاة به الأسرة، إلى بجاية، وصحب أبا عبد الله الشَّيعي الدَّاعِي، وكانت له به معرفة قبل ذلك بالمشرق، وانتحل نحْلته، وتشيع له ولده علي. وفي أيامه ظهر، وازداد ظهوراً في أيام أبي عبيد الله المهدي، وابنه أبي القاسم.

ولما اختطَّ مدينة المسيلة بأرض الزَّاب، سنة خمس عشرة وثلاثمائة (927/315)، رسمها برمحه، وهو على فرسه، أمره عليها، وأمره ببنائها.

كما مصرَّ عشرة سلا، وبقي في إمارتها إلى أن هلك في فتنه أبي يزيد سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة (940/334)، وخلفه عليها ولداه : جعفر ويحيى، فشيَّدا بها القصور

(100) مراجع هذا الفصل :

«ابن عذاري» ص 361 من ج 2، «ابن خلدون» ص 198-277-291 من ج 1، طبع الجزائر و ص : 76-21-38 من ج 2، نفس الطبعة، «الحلة السيرة» لابن الأبار ص 434، «اعلام الزركلي» ص 119 من ج 2 وص 93 من ج 5، «تاريخ الجزائر» لمبارك الملي ص 94 وما بعدها من ج 2، «ديوان ابن هاني» «نفع الطيب» للمقري ص 213 من ج 2، و ص 4 من ج 4، طبع دار السعادة بمصر عام (1949/1368).

Histoire des Musulmans d'Espagne par Dozy, T II, pages : 198-230-236-237.

Histoire de l'Espagne Musulmane par E. Levy-Provençal, T II, pages : 187-188-195-206-224-226-231-260-261-262-263.

Traduction d'Ibn KHALDOUN par le Baron de Slane, Appendice III, p. 554, T II.

الضُّخمة، والمنازل الفخمة. وامتازا من بين أمراء الفاطميين في أوَّل عهديهما، بالإخلاص لهم، وإشاعة مذهبهم، والكرم الحاتمي، والجود الفياض، والهمة العالية.

وكان لجعفر ولد اسمه إبراهيم، ساد في حياة أبيه، وشبهه في جوده وكرمه. ومن شبه أباه فما ظلم. فضُمَّت مجالسهم العامرة عيون أعيان الأمراء والعلماء، واجتمع على منادبهم، نخبة الكتاب والأدباء، وتغنَّى بجودهم وعطائهم الشعراء، ومنهم شاعر الدولة المُعزِّيَّة، أبو القاسم محمد بن هانئ الأزدي الأندلسي، فخلَّد فيهم قصائد، كأنها أزهار الأفنان، أو قلائد اللؤلؤ والمرجان، تُضارع ما قاله المتنبي في آل حمدان، فكان بأمداحه لهم بمنزلة البحتري من آل المدبر، أسلاف بني عشرة في الميدان ؛ ومن أمداحه فيهم قوله من قصيدة :

كَأَنَّ لَوَاءَ الشَّمْسِ غُرَّةَ جَعْفَرٍ      رَأَى الْقَرْنَ فَازْدَادَتْ طَلَاقَتُهُ ضِعْفًا  
وَقَدْ جَاشَتْ الدَّامَاءُ بِبِضْأِ صَوَارِمَاءُ      وَمَارِئَةَ سُمْرًا وَقُضْفَاضَةً زَعْفًا...

وفي جعفر يقول أيضا :

خَلِيلِي أَيْنَ الزَّابُ مِنِّي وَجَعْفَرُ      وَجَنَاتُ عَدْنٍ بَنَتْ عَنْهَا وَكُؤُورُ  
فَقَلْبِي نَأَى عَنْ جَنَّةِ الْخُلْدِ ءَادَمُ      فَمَا رَأَيْتُهُ مِنْ جَانِبِ الْأَرْضِ مَنْظَرُ

وفيهم يقول :

أَبْنِي الْعَوَالِي السُّمَهْرِيَّةَ وَالسَّيْدَ      وَفَ الْمَشْرِفِيَّةَ وَالْعَدِيدَ الْكَثِيرَ  
كُلُّ الْمُلُوكِ مِنَ السُّرُوجِ سَوَاقِطُ      إِلَّا الْمُلُوكَ فَوْقَ ظَهْرِ الْأَشْقَرِ  
مَنْ مِنْكُمْ الْمَلِكُ الْمُطَاعُ كَسَائِهِ      تَحْتَ السُّوَابِغِ تَبَعٌ فِي حَمِيرِ

ويُحكى أنه لما انشد هذه الأبيات، ترجل العسكر كله، ولم يبق راکبا سوى الممدوح. ولا يعلم سؤال كان جوابه نزول عسكر جرَّار غيره.

وبعد هذا كله، فقد حصلت وحشة ومناقسة على الرياسة بين الأخوين جعفر ويحيى، وبين زيري بن مُنَادٍ الصنهاجي، انتهت بحرب بينهم قُتِلَ فيها زيري عدو بني أمية، فخرج الإخوان ناجيين بأنفسهما من إفريقية إلى الأندلس، وأقدين على هشام المؤيد، كما وقد عليه عشرة بعد هذا التاريخ، نابذين دعوة الشيعة، ومُراجعين طاعة الخلافة الأموية، ومتقربين

إليها براس زيري بن مناد عدوها. فاحتفل بهما المنصور بن أبي عامر يوم دخولهما إلى قرطبة، وأمّرهما على المغرب الأقصى، كما كان عشرة أميرا بالمغرب الأوسط من قبل بني أمية وكان لهما به شان واخبار طويلة.

ثم إن المنصور لما رأى من ظهور الأخوين ما رأى، وخصوصا جعفرا، وما كان له من النفوذ والكلمة المسموعة بين القبائل البربرية بالعدوة المغربية، خافه وحذره، وغار منه، بعد أن استعان به على أعدائه، فاستدعاه إلى قرطبة، واحتفل به احتفالا فاخرا في ليلة من الليالي بقصره، ويُنْت له كميناً ترصد له عند خروجه، فقتله غيلة سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة (982/372)، وظهر الأسف عليه.

وفرّ يحيى إلى مصر مُردداً دعوة الشيعة، وملتجئاً إلى العزيز بن نزار، فقبله، واقام عنده، محترماً سنين عديدة، ووجهه في حركة عسكرية إلى برقة، فلم يُقدّر له النجاح فيها، فرجع إلى القاهرة. وبقي بها إلى أن مات أواخر المائة الرابعة للهجرة.

وقد تخلف خلف من هذه الأسرة الحمدونية بالمغرب، كان منهم بسلا سميّ جديّه : الشيخ علي ابن حمدون، ذكره في «التشوّف» في ترجمة الشيخ أبي علي الشريشي البكّاي، وقال : انه نَزَلَ عنده لما ءوى إلى سلا بعد مجيئه من مراكش، وذلك أواسط القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي).

وعلى كل حال، فان التّنظير حاصل مُتمكّن، والشبه تام بين الأسرتين : العشرية والحمدونية في مجيئهما معاً من المشرق، وإقامتهما دهرأ طويلاً بالمغرب الأوسط، ودعايتهما للخلافة الأموية، وانحرافهما عن الشيعة، ووفادتهما على الخليفة هشام المؤيد، واسناد الامارة إليهما من قبله، وبناء الحمدونيين مدينة المسيلة وعمرانها بالمغرب الأوسط، والعشريين مدينة سلا وعمرانها بالمغرب الأقصى، واشتعارهما جميعا بالجد والسخاء وحمل الكّل، واكساب المعدم، وتخليد الشعراء ماثراً أعيانهم وكرمهم في أشعارهم.

هذا، واخبار بني حمدون كثيرة متفرقة في كتب التاريخ والتراجم، وإنما أُلْمعنا إليها هنا إلماعاً لنقابل بينها وبين أسرة بني عشرة.

وكم من أسرة مشرقية أو مغربية هاجرت في ذلك العصر أو قبله أو بعده من المشرق إلى المغرب، أو من المغرب إلى المشرق فكان لها شأن.

قال أبو العباس المقرئ في «نفح الطيب»<sup>(101)</sup>، لما تكلم على الراحلين من الأندلس إلى المشرق، والراحلين من المشرق إلى الأندلس .

«إِعْلَمْ - جعلني الله وإياك ممن له للمذهب الحق انتحال -، ان حصر أهل الارتحال، لا يمكن بوجه ولا بحال، ولا يعلم ذلك على الإحاطة إلا عالم الغيوب الشديد المحال...»  
وقال أيضا: <sup>(102)</sup>

«إعلم أن الداخلين للأندلس من المشرق قومٌ كثيرون، لا تحصر الأعيان منهم فضلا عن غيرهم. ومنهم من اتخذها وطنا، وصيرها سكنا، إلى أن وفته مَنِيَّةً، ومنهم من عاد إلى المشرق، بعد أن قضيت بالأندلس أمنيته...»

قلت : وقد كان لهؤلاء الراحلين أثر كبير في العلم والأدب والحضارة والسياسة ونشر الدعاية إلى المذاهب التي كانت رائجة في ذلك العهد.

ومنهم من حفظ التاريخ أسماءهم ودونته المؤرخون، كبني عشرة وبني حمدون، ومنهم من لم يحفظه التاريخ ولم يدونه المؤرخون، فطوتهم الأيام طياً، وجعلتهم نسياً منسياً، وما حدثت بهم إنسياً، فذهب أولئك القوم في الداهيين الأولين، ولم يتركوا بعدهم أثراً للآخرين، والله يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

(101) ص 213 من ج 1، طبع السعادة بمصر.

(102) ص 4 من ج 4، نفس الطبعة

## المبحث السابع

### الأمير عشرة

ليس لدينا معلومات كثيرة عن ترجمة الأمير عشرة، ولا نعرف حتى اسم والده المنتسب لِأَلِ المدبر، مع ما في ذلك من الغموض والانتقطاع في ارتباط عمود نسبه بهم.

وغاية ما أدركناه من أخباره قبل نزوله بأرض سلا، أنه كان من دُعاة الأمويين بالمغرب الأوسط، وأميراً من أمرائهم به، من غير تعيين لمحل هذه الإمارة.

وقد جاء في النص المنقول عن الكاتب الأديب أبي بكر بن اللَّبَّانة الدَّاني في كتابه «سقيط الدر، ولقيط الزهر» أنَّ عشرة جدُّ الأسرة العشرية السلاوية، كان أميراً لخلفاء بني أمية بالمغرب الأوسط.

ويُعَصِّدُهُ ما ذكره علي بن ظافر في كتابه «بدائع البداية»<sup>(103)</sup> لما حكى مساجلة أديبة تُروى عن القاضي أبي الحسن علي بن القاسم بن عشرة، ستاتي في ترجمته آخر هذا البحث، من وصفه بأنَّه أحد رؤساء المغرب الأوسط، فاتفق في ذلك مع أبي بكر بن اللَّبَّانة.

ولا يخفى أن ابن اللَّبَّانة، كان من شعراء الدولة العبادية بإشبيلية، وتوفي سنة سبع وخمسمائة (507/1113). وعلي بن ظافر، كان وزيراً للملك الأشرف بالقاهرة، وتوفي سنة ثلاث عشرة وستمائة (613/1216)، وبينهما ما يزيد على مائة عام. وعليه، فإن إمارة عشرة بالمغرب الأوسط، كانت معروفة منقولة عند كُتَّاب ومؤرخي القرنين : السادس والسابع الهجريين، سواء بالأندلس أو بالقاهرة.

(103) ص 78 من ج 1، المطبوع على هامش كتاب «معاهد التتبع».

وقد ذكر الضبيّ "في بغية الملتمس" عرضاً<sup>(104)</sup> أن الأمير عشرة، وفد على هشام المؤيد مجاهداً في جُملة من أمراء المغرب، وكان حاجبه يقدمه، والدهر يخدمه.

والظاهر أن هذه الوفادة، كانت بعد سنة سبع وسبعين وثلاثمائة (887/377)، وهي السنة التي استولى فيها زيري بن عطية على فاس. ولا ندري هل كانت هذه الإمارة التي وُصف بها من غير تعيين محلها، في بيته قبله أو له وحده، ولا من الذي ولّاه.

ولكننا إذا تتبعنا شريط الحوادث التاريخية، في هذه الفترة الزمانية بالمغرب الأوسط، نجده كان ميداناً تسابق فيه بنو أمية الأندلسيون، والفاطمية الشيعيون، وتجادبوا حبل الرياسة والسيادة فيه حيناً من الدهر، وكانت بينهم فتن وحروب سجلها المؤرخون، ووقائع تناقلها الأخباريون، وكان داعية بني أمية الأكبر، زيري بن عطية، ومن أُلّف لفّه من أمراء الدولة الصنهاجية.

ولم يثبت تاريخياً أن قَدَم الأمويين رَسخت في المغرب الأوسط باستمرار، إلا في عهده، من سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة (991/381) إلى أن هلك سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة (1000/391)، مدة عشرة أعوام فقط.

ولعلّ عشرة، لمّا كان من دُعائهم وأنصارهم، أمرؤه وقدموه، جزاءً له على ما قام به من الدّعوة لهم، فتألّق نجمه في سماء الرياسة والإمارة في ذلك العهد، وجدّد للأسرة المدبرية المنتمية إليها ما كان لها من الذكر والشهرة والمجد.

ويؤخذ من هذا كله، أن بني عشرة، لم يكونوا مغاربة برابرة ولا أندلسيين مهاجرة، وإنما هم عراقيون مدبريون على ما قيل، بزغ نجمهم بالعراق، وأشرق بالشام، وتألّق بمصر، وبلغ نوره المغرب الأقصى، واستمر لامعاً في «سلا» أثر مجدهم الخالد، وذكرهم الدائم المستمر، إلى عصرنا الحاضر.

فِسي «سلاه» يُغشِي النّاظِرُ — نَ إِذَا هُمُ لَمَحُوا شُعَاعَهُ

### نزول الأمير عشرة بأرض سلا وابتداء تمصيرها

تقدم لنا أن مدينة سلا، كانت في أول تكوينها، كُتلاً وعمائر متفرقة من مهاجري شالة بعد خرابها، وما انضاف إليهم من المرابطين برباطها للجهاد في الفئة الضالة البرغواطية.



ولكنّها لم يتناسق عمرانها، ويتمّ تمصيرها، حتى نزل بها الأمير عشرة جد الأسرة العشرية الشهيرة.

وفي كتاب «المدن والقبائل المغربية»:<sup>(105)</sup> نقلاً عن أبي عبد الله محمد بن علي الدكالي أن أمير قرطبة، أذنَ للرئيس عشرة أن ينزل بازاء شالة فنزل، ومعه ثلاثة من أولاده ونساؤه وخدّمه وحشمه.

ثم بنى بأرض سلا قصره في المحل الذي يوجد فيه أقدم حيّ بها، وهو حيّ الطالعة، حيث يوجد الآن المسجد الأعظم والمدرسة المرينية الحسنية، وبني أيضا هناك مسجدا تخرّب ولم يبق إلا أثره...

وقال في كتاب «الاستبصار»<sup>(106)</sup> بعد ذكر شالّة : وقد كان اتخذ أرياب البلد العشريون وأولياؤهم، مدينة بالعدوة الشرقية، وهي المعروفة الآن بسلا، فيها ديارهم بحومة الجامع، ولم يبق منه سوى المنار، وأمّا السُقّف كله فتهدم، واحتُمى الغرياء في بنائه سنة أربع وسبعين وخمسائة (574 / 1178).

وهذا النص وإن كان صريحا في نسبة سلا إلى العشريين، فإنه لم يذكر جدهم الأمير عشرة ونزوله بها كما تقدّم، ولا من أين جاء العشريون إليها، ولم يُفصّل عن تاريخ نزولهم بها بالضبط، كما أنّه لم يُعبّر بالتأسيس وإنما عبّر «بالاتخاذ»، وهو لفظ يحتمل أنهم اتخذوها مدينة، يعني صيروها مدينة وعمّروها ومصّروها وسكنوها، لكونهم وجدوا مهاجري شالة سبقوهم إليها، كما يقال اتخذ فلان مدينة كذا دارا وقرارا، أي نزل بها وسكنها. وأمّا الجامع فسياتي الكلام عليه مُفصّلا في الفصول الخاصة به.

ويؤخذ من هذا كله، أن تمصير سلا وتصييرها مدينة ينطبق عليها مدلول هذا الإسم، إنما تمّ بعد نزول العشريين بها، ومنّ ذلك العهد عُرفت في التاريخ، وقُرّنَ إسمها باسمهم حتى قيل إنّها مدينة بني العشرة، واتّصلت هذه النسبة لهم من بعدهم دهرًا طويلا.

وقد فصّل في كتاب المدن والقبائل المغربية<sup>(107)</sup> كيفية تناسق العمران في المدينة، ولا ندري مستنده في ذلك فقال :

<sup>(105)</sup> "Villes et Tribus du Maroc", Rabat et sa région, T 1, page 27.

<sup>(106)</sup> ص 140، طبع الاسكندرية

<sup>(107)</sup> ص 27 من ج 1 ناحية الرباط.

لما دارت دور العشرين حول الجامع، نشأ حيُّ الطالعة، ثم تكاثر البنيان وأُتصل وتدرّج فتكوّنت بَلِيْدَةً صغيرة، هي حي البليدة بسلا الآن، وشرعوا حينئذ في إحاطتها بالسُور تحصيناً لها.

قال وقد عُثِرَ على أثر هذا السُور في زمننا هذا، بباب شَعْفَة، لما كانت البلدية تُجري بعض الإصلاحات بتلك الناحية في المدينة. وتلاحق الناس بعد ذلك، وتسارعوا إلى البناء والتعمير من القبائل البربرية والأندلسيين المهاجرين.

ومن أقدم ما بُني في ذلك العصر بتلك الناحية، دور بني مسطاس، سفراء وتراجمة البرغواطيين.

ومنهم السفير الترجمان، عيسى بن عمر المسطاسي، وهو أول من نزل منهم بهذه المدينة السلاوية.

وبعدهم نزل بنو خيرون الأندلسيون، وإليهم ينسب درب الأخيار الآن. وقد هاجرت فرقة من هذه الأسرة الخيرونية إلى القيروان، واستقرت بها فكان لها ذكر وأثر في العلم والتجارة.

ثم تكوّن حي زَنّاتَة، الذي كانت به دور ومنازل لأسرٍ آل تميم ابن زيري اليفرني الزناتِي، أمراء شالة وسلا وتادالا، وما وراعاها من البلاد. وهكذا، تناسق العمران وتسلسل، ونشأت المدينة السلاوية الجديدة العشرية واتّسع نطاقها.

وكانت تتكون في ذلك العهد من أربعة أحياء :

- حي الطالعة، الذي فيه المسجد الأعظم، ودور العشرين حوله.

- وحي البليدة، الذي فيه أتباعهم وحشمهم.

- وحي درب الأخيار، حيث منازل بني خيرون الأندلسيين.

- وحي زنّانة، المعمور بمنازل آل تميم بن زيري الزناتِي.

وكان كل مَنْ وضع يده على قطعة أرض وأحياها، وتصرف فيها صارت ملكا له، لأنَّ من أحيا أرضا مواتا فهي له.

وسنرى كيف تواصل العُمران فيها في الدول الآتية.

## المبحث الثامن

### قصر بني عشرة بسلا

قصر بني عشرة بسلا، رددَ صدى ذكره المؤرخون، وتغنَّى به الشعراء، وتبوأه السلاطين والأمراء، ونزل به الرؤساء والوزراء، وقصده العلماء والأدباء، المترددون على سلا من الأقطار المغربية، والعدوة الأندلسية، منذ تشييده في عهد العشريين، إلى أوائل دولة الموحدين، ثم اختفى ذكره بعد ذلك.

#### موقعه ومآله

علمنا ممَّا سبق، ومن نصِّ صاحب «الإستبصار» بالخصوص، أن بني عشرة لمَّا نزلوا بسلا، بنوا دورهم بحي الطالعة حول الجامع، ولاشك أن القصر كان من جملة دورهم.

وقد استظهر أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي، كما رأيته في بعض مُقيّداته، أنه كان مَبْنياً في محلّ المدرسة الحسنية المرينية الآن قال :

«الظاهر أن بِمحلّ القصر بنيت المدرسة المرينية، للعثور على جدار قديم يُجاورها غرباً، كشف الحال عن عَضادة باب دار عتيقة جدّاً يظهر أنها كانت قبل بناء المدرسة بكثير، وصورة الباب شاهقة في الجو، يَغْلُبُ على الظنّ أنه من بناء القصر الفاضلة على المساحة التي بنيت بها المدرسة. وهذه البقعة التي بها هذا الأثر، من أملاك الأقباس المحبّسة على الجامع الكبير، ولذلك ساغ أن تبنى فيها المدرسة وبقي بها الأثر إلى هذا الحين، ولولا الحبس لتداولتها الأيدي، وتغيرت الآثار التي استدللنا بها الآن، والعلم لله الملك الديان

سبحانه.»

والذي يُوخذ من أخبار بني عشرة، أنهم كان لهم قصران بسلا مركز عزهم، ومطلع شمسهم وأقمارهم.

الأول : بُني في عهد نزولهم، واستقرارهم بطالعتها.

والثاني بناه فخر الأسرة وعميدها أبو العباس أحمد بن القاسم بالطالعة أيضاً، كما يُعلم ذلك صراحة من أقوال المؤرخين الذين ترجموا له. وهل كان هذا القصر الثاني، تجديداً للقصر الأول، وبُني في محله، وعلى انقاضه، أو هو غيره ؟ لا ندري، لعدم وجود نص يُفصح عن ذلك. وهذا القصر الثاني، هو الذي تغنى به الشعراء، وتبوّاه الملوك والأمراء، وطاف بساحته ذروا الحاجات، واستجار به المنكوبون عند حلول النكبات، واستحكام الأزمات.

قال أبو العباس المقري في «نفع الطيب» (108) :

لما بنى أبو العباس أحمد بن القاسم قصره بسلا وشيّدته، وصفته الشعراء وهنّأته به، ودعت له.

وكان بالحضرة حينئذ الوزير أبو عامر بن الحمارة، ولم يكن أعدّ شيئاً، ففكر قليلاً ثم قال :

يَا أَوْحَدَ النَّاسِ قَدْ شَيْدَتْ وَاحِدَةً      فَحُلْ فِيهَا حُلُولَ الشَّمْسِ فِي الْحَمَلِ  
فَمَا كَدَّارِكَ فِي الدُّنْيَا لِذِي أَمَلٍ      وَلَا كَدَّارِكَ فِي الْآخِرَةِ لِذِي عَمَلٍ

وفيه يقول أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي في رَجْزِهِ : «إتحاف أشراف الملا، ببعض أخبار الرباط وسلا» :

أُنْشَأَ أَبُو الْعَبَّاسِ ابْنُ عَشْرَةَ      وَقَصَّدَتْهُ الشُّعْرَاءُ بِالْمَدْحِ  
وَعَادَ مَنْزِلًا لِعَبْدِ الْمُؤْمِنِ      وَحَلَّ فِيهِ الْمَلِكُ الصَّنْهَاجِي  
إِثْرَ أَنْصَرَفِهِ عَنِ الْمَلِكِ الْجَلِيلِ      وَكَانَ فِي بَجَايَةِ بَنَى الْعَجَبِ  
وَاعْتَمَ بِالْحَرِيرِ وَالْإِبْرِينِ      قَصْرًا بَدِيعًا بِسَلَا وَعَمْرَةَ  
مُهَنِّسِينَ طَلَبُوسًا لِلْمَنْحِ      لِحُسْنِهِ وَلَانْفُسَاحِ بَيْنِ  
وَالِي بَجَايَةِ أَخَا ابْتِهَاجِ      مَلِكِ بَنِي حَمَادِ ذِي الْفَخْرِ الطَّوِيلِ  
قَصْرًا بَدِيعًا بِسَرَاجِيِبِ الذَّهَبِ      عَمَائِمًا تَنْسَبُ لِلتَّطْرِيزِ

وقد ءال هذا القصر يعد رسوخ قدم الموحدين في المُلْك إلى الدولة، فتداوله أُمَراؤها، ولا نعلم الكيفية التي ءال بها إليها، هل بالشراء، أو الانتزاع والاستيلاء ؟ ولعله الراجح، لأن بني عشرة جنحت شمسهم للغروب، بعد استيلاء عبد المومن على سلا، لَمَّا احْتَفَّ بهذا الإستيلاء من الحوادث الحربية التي شغلت عبد المومن وجيشه فترة من الزَّمن، كثورة عمر الخياط بجزولة، وله نسب بسلا<sup>(109)</sup> وفتنة الثائر ابن هود السلاوي، التي كانت عاصفة ساحقة ماحقة هبت على سلا والسلاويين في ذلك العهد.<sup>(110)</sup>

لاسيما والدولة الجديدة إذ ذاك في طور نشوئها، وعنفوان قوتها وشبابها، فغضت من السلاويين، وأعظم أسرة بارزة فيهم نالها الغَضُّ، أسرة العشريين، كعبة القاصدين، ومحط رحل الوافدين، تمتد نحوها الأعناق، ويشار إليها بالأصابع، وويل لمن أشارت له، فنأوت إلى الظل ترى ولا ترى، وسترها حجاب الانكماش والعزلة عن الظهور، وولج ميادين السياسة والرياسة، وتكررت لها الوجوه، وتغيرت المعالم، وذهب الناس الذين كانت تعرفهم.

فَمَا النَّاسُ بِالنَّاسِ الَّذِينَ عَهِدْتَهُمْ وَلَا الدَّارُ بِالدَّارِ الَّتِي كُنْتَ تَعْرِفُ

فاختارت الاشتغال بالعلم، والانحياش إلى أهل الخير والصَّلاح والدين، كما سنعلمه ونستقصيه ونقصه من أخبار بعض أفرادها.

ولم يبق لهذا القصر اليوم اسم ولا رسم، إلا الذكر في الأوراق. كما أننا لا نعلم سبب خرابه واندثاره، وعفاء رسمه، ولا متى كان ذلك، والله يرث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين.

## نزول المهدي بن تومرت وعبد

## المومن بقصر بني عشرة بسلا

قال ابن البيدق في كتابه "أخبار المهدي بن تومرت، وابتداء دولة الموحدين": <sup>(111)</sup>.

(109) «أخبار المهدي» لابن البيدق، ص 106.

(110) «ابن عذاري» ص 20 وما بعدها من ج 3، طبع تطوان، و«ابن خلدون» ص 310، طبع الجزائر و«الاستقصا» ص 11، طبع القاهرة، ج 2، والاستقصا، طبع وزارة الثقافة - 2001، ص 55.

(111) ص 65.

لما خرج المهدي من فاس، مرَّ على مكناسة، ونزل بمسجد أبي تميم عند الحسن بن عشرة...<sup>(112)</sup> ولما رحل إلى سلا، سنة خمس عشرة وخمسمائة (515/ 1122-1121) نزل بقصر بني عشرة...

قال ابن البيدي: (113)

"أعلم أنه لما دخل المعصوم سلا، نزل بها عند الفقيه أحمد بن عشرة، وكان يأتيه الشُّبُلير، ومحمد بن الخير الوقاصي،<sup>(114)</sup> والسلطان بن قَيْلُو<sup>(115)</sup> والقاضي حُسُون بن عشرة، فكانوا يأخذون عنه العلم، ويأمرهم أن يأمروا الناس بالمعروف، وينهوا عن المنكر. وأقام بها أياماً عديدة، ثم أمرنا بالرحيل نحو مراكش، فخرجنا على بركة الله تعالى".

## نزول عبد المومن لما فتح سلا بقصر بني عشرة

لما تغلَّب عبد المومن على سلا، بعد واقعة قليلة، سنة أربعين وخمسمائة (540 / 1146-1145)، نزل بقصر بني عشرة الذي كان نزل فيه قبل ذلك مع إمامه المهدي، سنة خمس عشرة وخمسمائة (515 / 1122-1121).<sup>(116)</sup> ثم ثارت عليه وافتتحها مرة ثانية، وتلَّمَّ سورها ليلاً تستعصى عليه مرة أخرى<sup>(117)</sup>.

وفي نزول عبد المومن بقصر بني عشرة أقول في قصيدة "سلا في التاريخ":

«الْعَشْرِيُّونَ» بِهَا سَمَوْا : زَمَنًا كَمَا تَسْمُو الْبُدُورُ  
حَلَّ «الْخَلِيفَةُ» قَصْرَهُمْ لَمَّا بِهَا كَانَ الْمُرُورُ

(112) سياي مريد الكلام عليه في الفصل المعقود لترجمته مع أعيان بني عشرة.

(113) ص 66.

(114) يوجد اليوم حي بالرباط يسمى «وقاصة» مجاور لملاح اليهود فهل هو منسوب لهذا الرجل . ؟ وإمامه مسجد قديم يعرف بمسجد أم القاضي.

(115) هؤلاء الأشخاص غير معروفين، ما عدا حسون الذي سياي الكلام عليه.

(116) «ابن البيدي»، ص 66.

(117) «ابن خلدون» ص 308 المجلد 2 طبع الجزائر، و«الطل الموشية» ص 102 طبع تونس، و«الاستقصا»

ص 143 من ج 1 طبع القاهرة. والاستقصا، ص 51، طبع وزارة الثقافة، سنة 2001.

والظاهر أن عبد المومن، لما فتح سلا في التاريخ المتقدم، اختار النزول بقصر بني عشرة، لأنه أعظم بناء كان موجوداً بها في ذلك الوقت، يستحق أن ينزل به الخلفاء، ولأنه كان يعرفه قبل ذلك، ولم يكن في ذلك العهد بالقصبة عمران يستحق أن ينزل به الملوك، إلا حصن تاشفين، أو قصر بني تاركة، ولعلّه لم يكن مستوفياً لوسائل الراحة وشروط الاستقرار والاطمئنان اللذين يتطلبهما مطلق الناس، فضلا عن ملك أو خليفة كعبد المومن في أهله وذويه وخدمه وحشمه.

ولم يشرع في بناء قصره بالقصبة الذي صار ينزل فيه بعد ذلك، إلا سنة خمس وأربعين وخمسمائة (545 / 1150)، يعني بعدما يزيد على أربعة أعوام من استيلائه على سلا، وقبل وفاته بثلاث عشرة سنة، حسبما سيأتي تفصيله عند الكلام على عمران القصبة في عهد الموحدين.

## استقبال عبد المومن وفود أهل الأندلس بقصر بني عشرة بسلا

لقد تعددت وفادة أهل الأندلس على عبد المومن، وكان يستقبلهم حيثما وجده الحال أثناء حركاته وتنقلاته.

- فالمرة الأولى : كانت وفادتهم عليه بمراكش، سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة (542 / 1147)، برئاسة القاضي أبي بكر بن العربي.<sup>(118)</sup> وبها كان استقبالهم.

- والمرة الثانية : كانت سنة خمس وأربعين وخمسمائة (545 / 1150)، وهي السنة التي شرع فيها في بناء قصره بالقصبة، وكانت وفادتهم عليه بسلا بإذن منه، في نحو خمسمائة فارس من الفقهاء والخطباء والقضاة والأشياخ والقواد. فتلقاهم الشيخ أبو حفص عمر الهنتاتي، والوزير الكاتب أبو جعفر بن عطية على نحو ميلين من المدينة، وأمر بإنزالهم، وأفاض عليهم سجال الإكرام وأنواع الضيافات والانعام، ويقوا على ذلك ثلاثة أيام، ثم أذن لهم في الدخول، فدخلوا عليه، أول يوم من المحرم فاتح سنة ست وأربعين وخمسمائة (محرم 546 / أبريل 1151) فسلموا عليه، وأشار الوزير ابن عطية لأهل قرطبة بالتقدم، فتقدم قاضيهم أبو القاسم بن الحاج، فأراد أن يتكلم، فدهش، ثم وصف حال قرطبة فقال : يا أمير المومنين،

(118) الزركشي، ص 6، و«الاستقصا» ص 147 من ج 1، طبع القاهرة. و«الاستقصا» ص 64، طبع وزارة الثقافة، سنة 2006.

إِنَّ الفَنش، لعنه الله، قد أضعفها، فتلاقاه أبو بكر ابن الجد بالخطبة البليغة، فجلى في ذلك المجلس، واستحسن عبد المومن خطبته، ووصل الجميع كلاً على قدره، وقضى مطالبهم، وأوصاهم بما اقتضاه الحال، وأمرهم بالانصراف إلى بلادهم فأنصرفوا مغتبطين.

وقال ابن خلدون: (119) استدعى عبد المومن أهل الأندلس، وهو بسلا، فوفدوا عليه ويايعوه جميعاً...

وقد تضافر المؤرخون على أن عبد المومن كان ينزل بقصر بني عشرة بسلا قبل بناء قصره بالقصبة.

وعليه، فقد كان استقباله لهذا الوفد بالقصر المذكور، وقد ثبت أنه كان بأقدم حي بالمدينة، وهو حي الطالعة حول الجامع كما تقدم.

ولما تكلم مؤرخ رباط الفتح جاك كاي (Jacques Caillé) على هذه الوفادة قال: (120)

لا يمكن الجزم بأن عبد المومن استقبل هذا الوفد بحصنه أو قصره بالقصبة، لأنه كان لازال لم يتم بناؤه.

وعليه، فإن كان الاستقبال بالضفة اليمنى للنهر، فقد يكون من قبيل المحقق أنه أمره بزيارة منشئاته بالضفة اليسرى، ليطلع على ما أسسه فيها من المباني الضخمة لأهميتها عنده، فزارها، ورأى فخامة الدولة الناشئة، وعظمة شأنها، المتجلية في مبانيها الخالدة.

– والمرة الثالثة : كانت سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة (553/ 1158) كما عند الزركشي، قال: (121)

”لما نهض عبد المومن للجهاد، واحتل بسلا، قَدِمَ عليه هنالك وفد أهل الأندلس، سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة (553/ 1158) وفيهم حفصة الأدبية المعروفة بابنة الحاج الركوني (122) وكان يسمع عنها وعماً توصف به من الجمال الباهر، والأدب الظاهر، فأمر بإحضارها فحضرت، فقال لها: أنت حفصة الشاعرة، فقالت : نعم، خادمك، وصلت لتبرك بغرَّتكَ السعيدة، ودنت فقبَلْتُ يده. ثم انشدته تستدعي منه ظهيرا لموضع :

(119) ص 235 من ج 6، طبع بولاق.

(120) ص 62 من ج 1.

(121) ص 7.

(122) ترجمة حفصة الركونية مبسطة في «نقح الطيب» ص 1078 من ج 2، طبع بولاق و«الإحاطة» ص 491 من ج 1.



يَا سَيِّدَ النَّاسِ يَا مَنْ  
أُمْنُنْ عَلَيَّ بِصَكَ  
تَحُطُّ يَمْنَاكَ فِيهِ  
يُؤَمِّلُ النَّاسُ رِقْدَهُ  
يَكُونُ لِلدَّفْرِ عُدَّةً  
الْحَمْدُ لِلَّهِ وَخُدَّةً<sup>(123)</sup>

فأعجب عبد المومن بها، ووقع لها بالقرية المعروفة بركونة وإليها تنسب، فعاشت فيها عيشة الملوك.

والظاهر أن عبد المومن استقبل هذا الوفد بقصره الجديد الذي أسسه بالقصبة، لأنه كان موجودا في هذا التاريخ، كما سيأتي في أخبار القصبة.

## نزول آخر ملوك بني حماد بقصر بني عشرة بسلا

لما استغنى عبد المومن عن النُّزول بقصر بني عشرة بسلا، لبناء قصره بالقصبة، اتخذ كدار الأضياف في وقتنا هذا، وصار ينزل به الملوك والأمراء الذين يفدون عليه، أو يستنزلهم عن عروشهم، لأنه كان أحسن وأتم بناء في العدوتين في ذلك العصر. وممن نزل به، آخر ملوك، آل حماد بالقلعة، قال ابن خلدون<sup>(124)</sup> في أخبار دولة آل حماد الصنهاجيين أصحاب القلعة :

(123) إشارة بذلك إلى العلامة السلطانية عند الموحدين، فإنها كانت، أن يكتب السلطان بخط يده في رأس المنشور «الحمد لله وحده» وإلى ذلك يشير الشاعر ابن مرج الكحل في القطعة التي مدح بها عبد المومن بعد فتحه المهدية

ولما توالى الفتح من كل وجهة  
تركنا أمير المومنين لشكره  
فلا نعمة إلا تؤذي حقوقها  
ولم تبلغ الأوهام في الوصف حده  
بما أودع السرُّ الإلهي عنده  
علامته به الحمد لله وحده.

لما بايع يحيى بن عبد العزيز، آخر ملوكهم، لعبد المومن سنة سبع وأربعين وخمسائة (1152/547)، ونزل له عن قسنطينة، اشترط لنفسه، فوقى له عبد المومن، ونقله إلى مراكش، فسكنها، ثم انتقل إلى سلا، سنة ثمان وخمسين وخمسائة (1162/558)، فسكن قصر بني عشرة، إلى أن هلك من سنته، وأُقبر بمقابر سلا الجوفية. (125)

## المبحث التاسع

### بعض أعيان بني عشرة السلاويين

#### تمهيد

نبغ من هذه الأسرة المجيدة العشرية السلاوية - التي كانت تعرف ببني القاسم أيضا - أفراد كانوا في سلا كما قال الفتح : «بدور سمائها وصدور أسمائها». قصدهم العلماء، وطاف بساحتهم الأدباء والشعراء، ولأذ بهم في قصرهم الشامخ، وتقياً ظل مجدهم الباذخ، كل من عثر به الزمان، وكبا به فرسه في حلبة الرهان، فكانوا يجدون لديهم ملجأ يلجئون إليه، وحرما يستجيرون به، فتُقال عشراتهم، وتُحمى هفواتهم، وتُقبل أعذارهم، وتُقضى حاجاتهم، لأن العشريين كانت لا تُردُّ عند المرابطين شفعاتهم، فيرجعون إلى مراكز عزهم مجبورين، وينقلبون إلى أهلهم مسرورين، آمنين مطمئنين، حامدين مادحين، منوهين شاكرين.

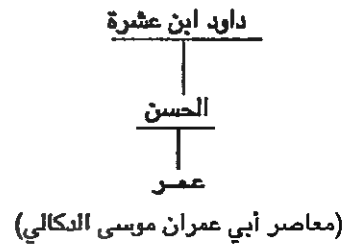
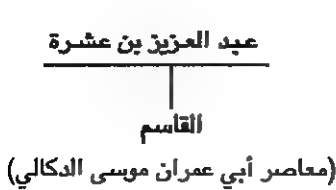
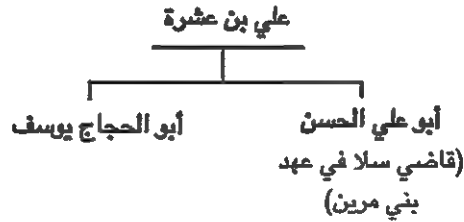
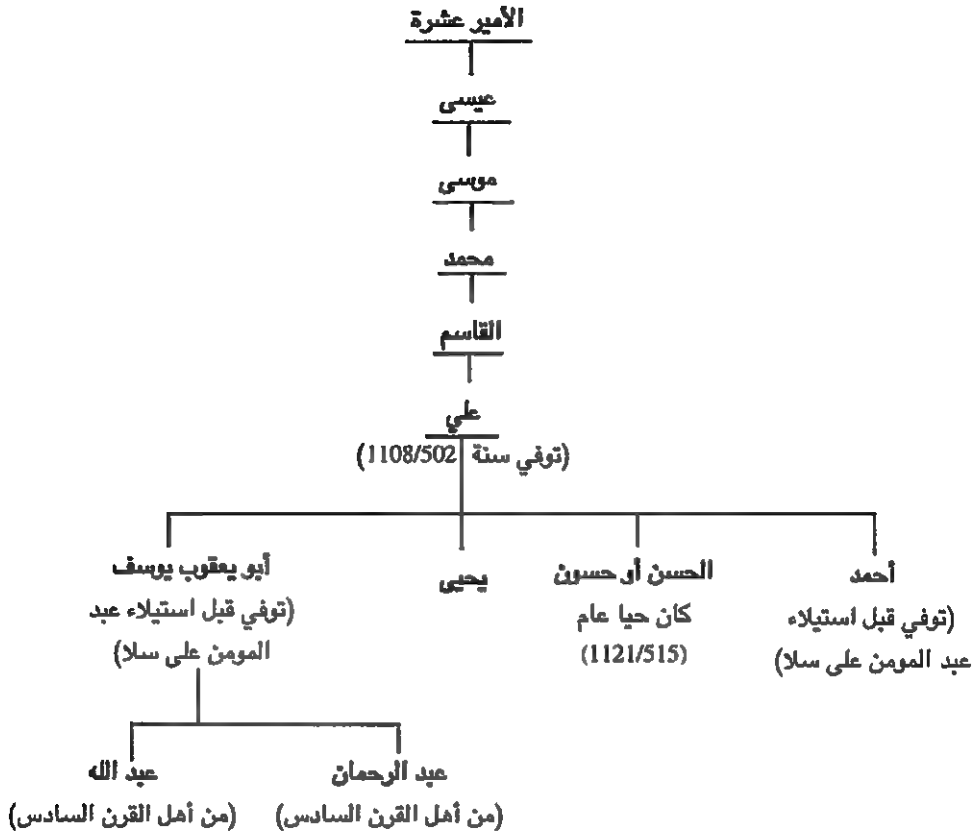
وقد تناسلوا بسلا وامتدت بها فرووعهم، وبرز منهم أفراد جلّوا في ميادين الجود والعلم والأدب والرياسة.

ثم خلفهم خلف نهجوا نهج أسلافهم في الاتصاف بالعلم والتقوى، والاستمسك بحبلها الأقوى، والتخلق بأخلاق الدين المتين، والانحياش إلى أهل الخير والفضل من الأولياء والصالحين، لم يصلنا من أخبارهم إلا النزر اليسير، لطول الزمن، وعدم الاعتناء بالتقيد في ذلك العهد.

وقد ورد ذكر أفراد منهم في «كتاب التشوف إلى رجال التصوف»، للشيخ أبي يعقوب يوسف التادلي، المعروف بالزيّات، عرضا ؛ روى عنهم مباشرة أو بواسطة، حكايات وأخباراً في تراجم بعض صلحاء سلا أو الواقدين عليها من رجال التصوف.

وعلى كل حال، فإننا، وإن كنّا لم نعرف من أخبارهم، إلا مارواه عنهم، فإنّهم كانوا من أهل المروءة والزهد والورع، واحترام الناس لهم، حسبما يؤخذ من روايته عنهم، وأنّهم كانوا موجودين أحياء في القرنين السادس والسابع للهجرة (الثاني عشر والثالث عشر للميلاد)، لأن ابن الزيات، - وإن كان لم يعقد لهم تراجم خاصة، لأنه التزم أن لا يترجم للأحياء -، فقد ذكر<sup>(126)</sup> أنه شرع في تأليفه سنة سبع عشرة وستمئة (617 / 1220). وعليه، فقد كانوا أحياء موجودين في ذلك العصر.

وهذه سلسلة تقريبية لنسب من وصلتنا تُنتف من أخبارهم أو أسمائهم فقط، مفرقة في بعض كتب التاريخ والتراجم والأدب المكتوبة في زمنهم أو بعده، رسمناها في الصحيفة المضافة إلى هذه، والله أعلم.



هذا، وقد شارك بعض المشاهير والأعيان بني عشرة في هذا الإسم، لأن التسمية بالأعداد كانت شائعة فيهم، حسبما تقدمت الإشارة إليه في فصل «تسميتهم ببني عشرة» وليس لهم اتصال بهم. منهم:

- علي بن عشرة الاشبوني : ذكره ابن عذاري<sup>(127)</sup> في حوادث سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة (948/ 337) فقال :

«وفيها صُلب بقرطبة على بن عشرة، من أهل شبونة، بعد أن قطعت يداه ورجلاه، وكان من المفسدين في الأرض». ومنهم :

- أبو عمر أحمد بن عمر بن إبراهيم بن عشرة، التَّجِيبِي : من أهل بلنسية، روي عن أبي الربيع بن سائلم، ذكره ابن عبد الملك المراكشي في «الذيل والتكملة». ومنهم :

- أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أبي عشرة الفاسي :

ذكره ابن عبد الملك أيضا في «الذيل والتكملة»، ونصَّ على أنه تولَّى القضاء ببلنسية سنة عشر وستمائة (1213 / 610) وبإشبيلية قبل الفتنة، ثم قلَّده العادل الموحي قضاء الحضرة المراكشية، سنة إحدى وعشرين وستمائة (1224/ 621). وورد ذكره في تاريخ مراكش لابن إبراهيم<sup>(128)</sup>.

فهؤلاء ليسوا من بني عشرة السلاويين، وإنما جمعتهم التسمية فقط، وليس لهم ارتباط بهم قط.

(127) ص 322، طبع بيروت

(128) ص 102، من ج 3.

## القاضي أبو الحسن علي بن

القاسم ابن عشرة السلاوي<sup>(129)</sup>

هو علي بن القاسم بن محمد بن موسى بن عيسى بن عشرة السلاوي، يكنى أبا الحسن. زينة هذا البيت العشري ونجمه اللامع، في سماء الجود والكرم بلا منازع، وكعبة القاصدين واللّاجئين لاستمناح فضله وجوده وجاهه ووجاهته عند السلاطين بلا مدافع.

تَسْقَطُ الطَّيْرُ حَيْثُ يَلْتَقِطُ الْحَبَّ بِؤْتَفَشَى مَنَازِلِ الْكُرْمِ سَاءَ

كان من أهل العلم والنباهة والسؤدد، رئيساً جواداً ممدّحاً : تولى قضاء سلا، وأورث بنيه من بعده سؤوداً ضخماً، وشرفاً جماً.

وحلّاه الضبيّ في «بغية الملتمس» بأنه كان قاضياً فقيهاً عالماً أديباً بليغاً جواداً، وأنّ جدّه عشرة، ورد على هشام المؤيد مجاهداً في جملة من أمراء المغرب.

قال ابن الأبار في تكميل الصلة : كان دخوله الأندلس غازياً سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة (438/ 1046)، وامتدحه جماعة من أدبائها. وفيها رحل إلى المشرق، لأداء فريضة الحج، وامتدح بالمهدية ومصر وغيرهما، وقفل بعد ذلك.

وترجمه ابن عبد الملك المُرّاكشي في «الذيل والتكملة»، ووصفه بأنه كان حافظاً سريّ أهل بلده، وجيهاً فيهم، نبيّة القدر، رئيساً جواداً ممدّحاً موثقاً، واستقضى ببلده، وأورث عقبه سؤوداً وشرفاً...

## شيء من شعره في الزهد

قال رحمه الله تعالى، كما أثبتّه له الضبيّ في «البغية»<sup>(130)</sup>

(129) مراجع هذه الترجمة . «بغية الملتمس»، ص 414 ؛ «تكميل الصلة» لابن الأبار، ص 231 ؛ «أعتاب الكتاب» له، ص 224 ؛ ابن البيدق، ص 106 من الترجمة الفرنسية : «الروض المعطار»، ص 197 ؛ «بدائع الفوائد»، ص 78 من ج 1، على هامش شرح «شواهد التلخيص» ، و«النفح» ص 146 من ج 5 ؛ و«الذيل والتكملة»، مخطوط الخزانة العامة بالرباط ؛ و«الذخيرة» لابن بسام، ق 2، مخطوط الخزانة العامة بالرباط أيضاً.

(130) ص 414، طبع مدريد.

أَلَا رَحِمَ اللَّهُ عَزَبْدًا أَحْسَدُ  
تَضَاعَلَ فِي نَفْسِهِ فَاسْتَرَا  
وَأُطْلِعَ مِنْ شَسْمَسِ أَفْكَارِهِ  
فَقُلْ لِلَّذِي عَابَ أَفْعَالَهُ

وَأَحْسِبَا الْفَوَادَ بِدَمْعِ هُمُولِ  
حَ وَالْقَى عَلَيْهِ رِدَاءَ الْخُمولِ  
أَيَابَ السَّلَامَةِ قَبْلَ الْأَفُولِ  
سَيَذَرِي الْحَقِيقَةَ عَمَّا قَلِيلِ

وله أيضا :

تَغْيِيرَ حَالِي وَحَالَتِ صِفَاتِي  
وَمَا كُنْتُ أَخْشَاهُ بَعْدَ الْمَمَاتِي

وَذَلِكَ أَجْمَعُ مِنْ سَيِّئَاتِي  
تَ فَهَا أَنَا أَبْصَرْتُهُ فِي حَيَاتِي

وقال أيضا رحمه الله :

إِلَى كَمْ ذَا الثَّمَادِي فِي الْمَعَاصِي  
ذُنُوبُكَ كُلُّ يَوْمٍ فِي ازْدِيَادِ  
تُؤَمِّنِي النَّفْسَ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ  
أَتُعْصِي اللَّهَ خَالِقَ كُلِّ شَيْءٍ  
تُبَاكِرُ سُوءَهُ وَتُظَلُّ تَبْغِي  
سَتَعْلَمُ مَا أَقُولُ وَسَوْفَ تُجْزَى

أَمَّا تَخْشَى هَبَلْتَ مِنَ الْقِصَاصِ  
تُسَرُّ بِهَا وَعُمْرُكَ فِي انْتِقَاصِ  
وَمَا بَعْدَ الْمَنِيَّةِ مِنْ مُنَاصِ  
وَأَنْتَ لِشَرِّ نَفْسِكَ غَيْرُ عَاصِ  
رَضَى رَبٌّ وَتَطْمَعُ فِي الْخَلَاصِ  
بِفِعْلِكَ يَوْمَ يُؤْخَذُ بِالنُّوَاصِ

وقال أيضا ولعله في كتاب كتبه ونسخه:

كُتِبَتْكَ يَا كِتَابُ وَعِلْمُ قَلْبِي  
إِلَى رَبِّ رَحِيمٍ مِنْ يَرْدُهُ

يَدُلُّ عَلَى بَقَائِكَ وَانْقِلَابِي  
يَقْضَى بِالْعَفْوِ فِي يَوْمِ الْحِسَابِ

وقال أيضا في التحذير من المزاح المخل بأدب الوداد :

إِنَّ الْوِدَادَ إِذَا تَحَاكَمَ عَقْدُهُ  
وَلَرُبَّمَا كَانَ الْمِزَاحُ ذُرِيْعَةً

نَزَحَتْ دَوَاعِي الْمَزَاحِ وَالْإِدْلَالِ  
لَتَبَاعُثُ وَتَقَاطِعِ وَتَقَالِي



## شعراء الأندلس وأسرة بني عشرة

لما ظهر القاضي أبو الحسن علي بن عشرة بسلا بمظهر العلم والنباهة والنزاهة والسؤدد والفضل، والرياسة الدينية، والكلمة المسموعة النافذة عند أمير المسلمين، وأمراء الدولة اللثونية، والجود الفياض، والعطاء الجزل، طار صيته في الآفاق، وتجاوز بحر الزقاق، عابراً من الاقطار المغربية، إلى الأصقاع الأندلسية، فتسامع به فحول شعراء الأندلس في عصره، الذين كانوا يطوفون بملوك الطوائف، يستمطرون سحاب جودهم الواكب، إلى ان انقشع، بعد انقضاء ملكهم، والقضاء على ملوكهم، فخطبه بعضهم من بلاده، وانسال إليه آخرون زرافات ووحدانا، لانذين بقصره العامر، مشيدين بما لهُ من المزايا والمفاخر، مُندمجين في جملة إخوانه الملازمين لإخوانه، فغمرهم بجوده وإحسانه، وصلاته المتصلة بمواصلة البر بكل واحد منهم والرفع من شأنه، فأنحلت عقد ألسنتهم، وتفجرت ينابيع أفكارهم بحمده وشكره، والتنويه بمكانته وقدره، بما خلّوه من القصائد الغراء في مدحه ومدح كافة عشيرته.

ولا غرابة في ذلك، فان النّها تفتح اللّها، والوجود ينفع بالوجود. فكان وقوفهم من الأسرة العشرية وقوف زهير من هرم ابن سنان، وأبي الطيب من بني حمدان، فسجلوا في أشعارهم أفراح الأسرة وأتراحها، وأيامها الغراء وأمجادها، وفضلها وكرمها، وانهم كانوا يحملون الكل، ويكسبون المعدم، وياخذون بيد المظلوم.

ولقد ذهب ما أخذوه منهم من مال ونشب، وأصبح الجميع في خبر كان، وبقي ما قلّده جيدهم من الشعر الحرّ، والقصائد العالية الغالية مخلّدة ذكرهم على ممرّ الأعصار والأزمان.

وسنثت في ترجمة أبي الحسن هذا وتراجم بعض أفراد عشيرته، ما تيسّر لنا الوقوف عليه من تلك الأشعار الملتقطة من الدفاتر والنواوين الأدبية، لما لها من القيمة التاريخية والفنية، والدلالة على عراقة مجد هذه الأسرة العشرية السلوية.

## شهامته في تحمل ما انكسر

### من مال الجباية عن أبي الوكيل

ومن شهامته وعلوّ همّته، ما قصّه ابن الأثير في «إعتاب الكتاب»، وابن عبد المنعم الحميري في «الروض المِعطار»، وابن عبد الملك المراكشي في «الذيل والتكملة» قالوا :

كان أبو عيسى ابن الوكيل الكاتب، مستعملاً في غرناطة في الدولة الممتونية، فحكى أنه انكسر عليه مال جليل، يبلغ عشرة آلاف دينار، فقُبض عليه وأُشخص منكباً إلى مراكش.

فلماً بلغ الموكلون به مدينة سلا، - وبها يومئذ بنو القاسم، المعروفون ببني عشرة، رِيَابِ السَّمَاح، وأَرِيَابِ الأَمْدَاح - زاد ابن الأَبَّار : ويذكر أن جدهم الأكبر، أحمد بن محمد ابن المدبر قال قصيدته الشهيرة، يمدح بها القاضي أبا الحسن، ويستجير به، وسأل إيصالها إليه، فبادر عند الوقوف عليها، إلى مخاطبة أمير المسلمين، بتضمن المال وتحمُّله، وسؤال الصَفْح عنه، والإبقاء عليه، بإعادته إلى عمله.

فصدر جوابه بالإسعاد والإسعاد. وعاد ابن الوكيل إلى غرناطة ابنه معاد، وأوَّل القصيدة :

سَلِ الْبَرْقُ إِذْ يَلْتَا حِمْيَرَ الْجَانِبِ الْبَلْقَا      أَقْرَطِي سَلِيمِي أَمْ فَوَادِي حَكِي خَفَقَا  
وَلَمْ أَسْبَلْتُ تِلْكَ الْغَمَامَةَ دَمْعَهَا      أُرِيدُ لَوْشَكَ الْبَيْنِ أَمْ ذَاقَتِ الْعِشْقَا ؟

إلى أن قال :

غَرِيبُ بَارِضِ الْغَرْبِ فُزِقَ قَلْبُهُ      فَنَافَتْ سَلَا فَرْقَا وَيَا بُورَةَ فَرْقَا  
إِذَا مَا بَكَى أَوْ نَاحَ لَمْ يَلَفْ مُسْعِدًا      عَلَى شَجْوِهِ إِلَّا الْغَمَائِمُ وَالْوُرُقَا

ومنها في المدح :

حَيَاءُ يَغْضُ الطَّرْفَ إِلَّا عَنِ الْعُلَا      وَعَرِضُ كَمَاءِ الْمَزْنِ فِي الْحَزْنِ بَلْ أَنْقَى  
وَفَضْلُ نُمَيْرٍ قَدْ خَضَلَ الرَّبِّي      وَعَدْلُ مُنِيرِ النُّجْمِ قَدْ نَوَّرَ الْأَفْقَا  
بَلَّغْنَا بِنِعْمَتِكَ الْأَمَانِي كُلَّهَا      فَمَا بَقِيَتْ أُمْنِيَّةٌ غَيْرَ أَنْ تَبْقَى

وقد غلط من نسب هذه القطعة للشيخ أبي محمد عبد الله الياقوري، دفين رباط الفتح، ولعله كان يتمثل بها فقط.

## سعيه في فداء الشاعر ابن سوار من الأسر وادماحه فيه

قال ابن بسام في «الذخيرة» (131)

أبو بكر محمد بن سوار الاشبوني، شاعر كبير، وأديب بارع، مدح ملوك الطوائف، ولما أفل نجمهم، حالت به الحال، وتقسّمه الإديار والإقبال، ثم أسره العدو عقب محنة، وبين أطباق فتنة، وقيد بقورية «Coma» (132) من أعمال الطاغية فرديناند.

وقد بقي في أسره سنة كاملة، فاستغاث بكريم الاسرة العشرية السلاوية، القاضي الكريم، أبي الحسن علي بن عشرة، وخاطبه بقصيدته الرائية، التي وصف فيها كيفية أسره وما جرى عليه من الأهوال والخطوب وصفاً كاشفاً، فقال :

وَأَيْلَ كَهْمُ الْعَاشِقِينَ قَضَيْتُهُ	رَكِبْتُ دِيَاغِيهِ وَمَرْكَبُهَا وَعَرُ
سَرَيْتُ وَأَصْحَابِي يُمِيلُهُمُ الْكُرَى	فَهُمْ مِنْهُ فِي سُكْرِ وَمَا بِهِمْ سُكْرُ
رَمَيْتُ بِجِسْمِي قَلْبَهُ فَتَنَفَّذْتُهُ	كَمَا نَفَذَ الْإِصْبَاحُ إِذْ فَتَقَ الْفَجْرُ
وَلَمَّا بَدَأَ وَجْهُ الصَّبَاحِ تَطَلَّعْتُ	خَيُْولَ مِنْ الْوَادِي مُحَجَّلَةٌ غُرُ
فَقُلْتُ لَهُمْ خَيْلٌ فَشَمَرُوا نَحْوَهَا	وَكُرُوا إِلَيْهَا مِنْ هُنَا يَحْسُنُ الْكُرُ
وَكَانَتْ حَمِيًّا الثَّوَمُ قَدْ صَرَعَتْهُمْ	فَقُلُّوا وولُوا مُدْبِرِينَ وَمَا فَرُّوا
وَأَخْرَجْتُ سَهْمًا وَاحِدًا مِنْ كَنَانَتِي	مِنْ الْحَرْبِ لَا يَخْشَى عَلَى مِثْلِهِ الْكَسْرُ
وَكُنْتُ عَهْدْتُ الْحَرْبَ مَكْرًا وَخُدْعَةً	وَلَكِنْ مَعَ الْمَقْدُورِ لَا يَنْقَعُ الْمَكْرُ
فَطَاعَنَتْهُمْ حَتَّى تَحَطَّمَتِ الْقَنَى	وَضَارِبَتْهُمْ حَتَّى تَكْسُرَتِ السُّمُرُ
أَضْرَجْتُ أَثْوَابِي دِمَاءً وَجُوهَهُمْ	كَأَنَّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ عِطْرُ
وَأَحْدَقُ بِي وَالْمَوْتُ يَكْشِرُ نَابَهُ	وَمَنْظَرُهُ جَاهَهُمْ وَمَنْظَرُهُ شَرُّ
فَأَعْطَيْتُهَا وَهِيَ الدُّنْيَا صَاغِرًا	وَقَدْ كَانَ لِي فِي الْمَوْتِ لَوْ يَدْنِي عُدْرُ
فَطَارُوا وَصَارُوا بِي إِلَى مُسْتَقَرِّهِمْ	يُصَاحِبُنِي ذُلٌّ وَيَصْحَبُهُمْ فَخْرُ

(131) ق 2 . ورقة 148 وما بعدها، مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

(132) قال في «الروض المِعْطَار» ص 164 قورية قريبة من ماردة وبينها وبين قنطرة السيف مرحلتان، ولها سور منبع. وهي أولوية البناء، واسعة القناء، من أحسن المعازل، وأحسن المنازل، ولها بوادٍ شريفة خصيبة، وضياع طيبة، وأصناف من الفواكه كثيرة، وأكثرها العنب والتين

فَقَالَ الْعَذَارَى حَرَّقُوهُ مُقَارِضاً  
فَجَاعُوا بِأَنْوَاعِ الْكُبُولِ وَنَظَّمُوا  
وَسَاقُوا كِلَاباً كَالْفُحُولَةِ أَجْسَمًا  
فَمِنْ قَتْلِهِ الْفِتْيَانِ عَطَلَتِ الْبِكْرُ  
سَلَاسِلَ فِي جَيْدِي كَمَا يُنْظَمُ الدَّرُّ  
لَهَا أَعْيُنُ خُضِرَ مَلَاظُهَا شَرُّرُ

ومنها :

فَسُبْحَانَ رَبِّي مَا أَجَلُ جَلَالِهِ  
فَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ حَتَّى كَانَتْهَا  
فَنَادَيْتُ فِي حَوْلٍ مِنَ الدَّهْرِ كَامِلٍ  
وَإِنْ وَرَاءَ الْبَحْرِ أَرْوَعُ مَا جَدَا  
أَلَا خَبَّرَانِي ابْنَتِي أَبِي هَلْ أَتَاكُمْ  
سَلَا عَنْ سَلَا هَلْ مِنْ عَلَيَّ حَقِيقَةٌ  
أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا عَلَيَّ وَقُرْبِي  
بِعَدَلٍ عَلَيَّ تَغْمُرُ الْأَرْضُ كُلُّهَا  
حَنِينِي إِلَيْهِ مُوثِقًا وَمُسْرَحًا  
تَخَلَّصَنِي مِنْهَا لَهُ الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ  
بِمَا رَحِبَتْ مَا كَانَ فِي طَوْلِهَا شِبْرُ  
أَلَا رَجُلٌ حُرٌّ أَلَا رَجُلٌ حُرٌّ  
بِغُرَّتِهِ الْغُرَاءُ يُسْتَنْزِلُ الْقَطْرُ  
وَشَيْكًا عَنِ الْقَاضِي أَبِي حَسَنِ ذِكْرُ  
بِأَنِّي فِي أَحْشَاءِ قُورِيَّةٍ سِرُّ  
وَلَا فَإِنَّ الْأَرْضَ عَامَرَهَا قَفْرُ  
وَتَتَّسِعُ الدُّنْيَا وَلَوْ أَنَّهَا قَبْرُ  
كَمَا حَنُّ لِلْبَرِّ الَّذِي يَغْرِقُ الْبَحْرُ

ولما وقف القاضي أبو الحسن بن عشرة على هذه القصيدة، بادر إلى السعي في فدائه وإزالة سلاسل الأسر على رقبته.

قال ابن بسام: (133) فخرج من وثاقه، خروج البدر من محاقه، وتردد في البلاد، يحمله قرب على بعد، ويكفه سُعَيْدٌ إلى سعد، حتى ضاقت عليه الأرض بما توالى عليه من الخطوب، ومله السرى واللُغوب، فجذب أبو الحسن بضبعه، واستدناه إليه، فأعاد هلاله بدرا، وصير خَلَّهُ خمرا... فالتحق به بسلا، وصار من نويه وناسه، وخاصة جُلَّاسِه.

ولما اطمأنُّ باله، وحسن حاله، خاطبه بقوله: (134)

(133) «الذخيرة» ق 2، ورقة 148 مخطوط الخزانة العامة بالرباط

(134) «المُعَرَّب في حلى المُعَرَّب»، ص 412 من ج 1.

رَأَيْتَكَ أَتَدْرِي النَّاسَ كَفًّا وَكُلُّ مَا  
وَلَوْلَاكَ مَا فَكَّ السُّلَّاسُ ضَاغِطٌ  
وَصَيَّرَتْ عَيْشِي فِي جَنَابِكَ بِالَّذِي  
عَلَى ذَاكَ لَا أَنْفَكَ أَخْلِصُ دَائِمًا  
تَجَوَّدُ بِهِ فَاللَّهُ يُنْمِيهِ لِلْآخِرَى  
وَمَا فَارَقَتْ عَيْنَايَ سُلْسَلَةُ الْأَسْرَى  
مَنْنْتَ بِهِ حُلُومًا وَكَمْ نَقَّصْتَهُ مُرًّا  
إِلَى اللَّهِ أَنْ يُنْمِيَ لَكَ الْجَاهُ وَالْعُمُرَا

## خروجه إلى نزهة مع ولي نعمته أبي الحسن ابن عشرة

ومن لطائفه الأدبية، ما حكاه الوزير أبو الحسن علي بن ظافر في كتابه «بدائع البداية»،  
وأبو العباس المقرئ في «نفح الطيب» قال: (135)

يُروى أَنَّ الْقَاضِي أَبَا الْحَسَنِ عَلِيَّ بْنَ الْقَاسِمِ بْنَ مُحَمَّدٍ بْنِ عَشْرَةَ، أَحَدَ رُؤَسَاءِ الْمَغْرِبِ  
الْأَوْسَطِ، تَنَزَّهَ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فِيهِمْ : مُحَمَّدُ بْنُ عَيْسَى بْنِ سَوَارِ الْأَشْبُونِيِّ، وَرَجُلٌ  
يُسَمَّى بِأَبِي مُوسَى، خَفِيفُ الرُّوحِ، ثَقِيلُ الْجِسْمِ، يَعْثُرُ بِالْحَاضِرِينَ بِأَبْيَاتٍ مِنَ الشُّعْرِ  
يَصْنَعُهَا فِيهِمْ، فَصَنَعَ الْقَاضِي أَبُو الْحَسَنِ مَعَابِثًا لَهُ، وَاسْتَجَازَ ابْنُ سَوَارٍ فَقَالَ :

وَشِعَاءُ عَمْرٍ أَثْقَلُ مِنْ ظِلِّهِ  
يَهْجُو وَلَا يَهْجَى فَهَلْ عِنْدَكُمْ  
لِسَانُهُ فِي هَجْوِهِ حَيَّةٌ  
أَمَّا أَبُو مُوسَى فَفِي كَفِّهِ  
يُصِيبُ سِرَّ الْمَرْءِ فِي رَمِيهِ  
كَأَنَّمَا الْعَالَمُ فِي عِلْمِهِ  
تَآتِي مَعَانِيهِ عَلَى حُكْمِهِ  
ظِلَامَةٌ تَعْلُدِي عَلَى ظُلْمِهِ  
مَنْيَّةُ الْحَيَّةِ فِي سَمِّهِ  
عَصَا ابْنِهِ وَالسَّحَرُ فِي نَظْمِهِ  
كَأَنَّمَا الْعَالَمُ فِي عِلْمِهِ

وهذه القطعة تدلُّ على أريحيته، ورقة طبعه، وانتشراحه في مجالسه مع خاصته وجُلَّاسه.

## وفادة أبي الحسن ابن عشرة على أمير

### المسلمين وتهنئة ابن سوار له بالأوبة

يظهر أنَّ القاضي أبا الحسن ابن عشرة، كان له أُنْدَادٌ وَحَسَدَةٌ، كغيره من ذوي الجاه والنفوذ، والكلمة المسموعة في الدولة في كل زمان ومكان، فكانوا يظهرون له وُدًّا، ويكيدون سِرًّا له كَيْدًا، ويكفرون بفضلَه ليكونوا عليه ضِدًّا، فلم يعجل عليهم وأعدَّ لهم عَدًّا، ووَقَدَ على أمير المسلمين ليحبط أعمالهم، ويخيب آمالهم، ويبطل سعائيتهم، فاستقبله استقبال أبٍ حنون، مظهرًا له البشر والرعاية به، لاعتقاده أنه ناصح للإسلام مستمسك بعهده الوثيق، حسبما يُوخِذُ ذلك كله من منطوق القصيدة التي هنأه فيها بالأوبة، مرفوع الرأس، متوجًا بتاج الكرامة، منتصرًا على أعدائه، فغضَّ الطرف عنهم، ولم يواخذهم كما هي شيمة الكرام ذوي النفوس الكريمة أمثاله.

قال ابن سوار (136) :

مَضَيْتَ بِوَجْهِ السُّعْدِ وَهُوَ طَلِيقُ  
لَقِيتُ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ مُقَرَّبًا  
رءَاكَ لِلْإِسْلَامِ نَصْرًا كُلُّهُ  
تَلَقَّاكَ بِالْبَشْرِ الَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ  
وَأَبْتَ بَنَى بِنَاءَ النَّجْحِ وَهُوَ يَرُوقُ  
كَمَا يَتَلَقَّى شَائِقُ وَمَشُوقُ  
وَعَنَى هَدَكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَثِيقُ  
فَقَالُوا أَبُ حَانَ عَلَيْهِ شَفِيقُ

ومنها :

وَلَمَّا طَغَى قَوْمٌ وَفَرَّتْ حُلُومُهُمْ  
وَضَلَّ أَنْاسٌ بِالْجَهَالَةِ مِثْلُ مَا  
وَجَاؤَكَ بِالْمَكْرِ الْكَرِيهِ وَإِنَّمَا  
أَرَاهُمْ مَكَانَ الْفَضْلِ مِنْكَ فَرُوعُوا  
وَفَرُّوا وَلَوْلَا حُسْنُ رَأْيِكَ فِيهِمْ  
فَلَا عَدِمُوا مِنْكَ الَّذِي عَهِدُوا فَمَا  
تَوَسَّخَتْ فَضْلًا فِي وَلِيٍّ وَحَاسِدٍ  
كَرُمْتُمْ فُرُوعًا فِي الْمَعَالِي حَمِيدَةً  
فَعَا جَ فَرِيقُ وَاسْتَقَامَ فَرِيقُ  
أَضَلَّ سَوَاعَ مَعْشَرًا وَيَعُوقُ  
بِصَاحِبِهِ الْمَكْرُ الْكَرِيهِ يَحِيقُ  
كَمَا انْتَشَقَّتْ رِيحَ الْغَضَنِ نَوَقُ  
لَمَّا حَمَلَتْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ سَوَقُ  
بَغْيِكَ غُفْرَانُ الذُّنُوبِ يَحِيقُ  
وَلَمْ يَكْ فِي بَاعِ الْمَكَارِمِ ضَبِيقُ  
وَطَابَ أَصُولُ مَنُكُمُ وَعُزُوقُ

## أمداحه فيه وفي أسرته في عدة مناسبات

لابن سوار أمداح كثيرة غير ما ذكرنا في علي وسائر أسرته، كلما تجددت حال، أو حدثت مناسبة.

ومن ذلك قوله يوم زيارته واصفاً جوده ومحل نزله : (137)

أياك من ظبيّة في ذلك الكنّس  
كَمْ نَمَّ لِي جَرَسُ قُرْطِيهَا وَسَاعِدَنِي  
مَا تَعْرِفُ الْعَرْفُ فِي الْمِسْوَكَ مِنْ سَبَبٍ  
يَارِبَةُ الْخَدْرِ حَيْثُ الْبَحْرِ مِنْ مَدَدٍ  
رُسُومٌ دَارِكٍ فِي يَبْرِينَ دَارِسَةٍ  
قَسْ مَا تَشَاءُ تَجِدُ فِي مِثْلِهِ عَوْضًا  
أَلَسْتُ تَذْكُرُ يَوْمًا حِينَ زُرْتُهُمْ  
نَزَلْتُ فِي مَوْضِعٍ حَفَّ الْغَدِيرُ بِهِ  
كَأَنَّ جُودَ عَلِيٍّ جَادَ لُجَّتُهُ  
فَإِنَّهَا أُخْتُ ذَاكَ الضَّيْفِ الْهَرَسِ  
مَا فِي الْخَالِجِ مِنْ صَمْتٍ وَمِنْ خَرَسِ  
إِلَّا مِنَ الشَّنْبِ الْمَعْطَارِ وَاللَّعْسِ  
وَالْمَوْجُ مِنْ زَرْدٍ وَالسَّيْفُ مِنْ جَرَسِ  
وَفِي الْحَشَا لَكَ رِبْعٌ غَيْرُ مُنْدَرَسِ  
وَيَا لَزْمَانَ الَّذِي وَلَّى فَلَا تَقْسِ  
وَالدَّهْرُ يَخْرُجُ مِنْ عِيدٍ إِلَى عُرْسِ  
كَمَا يَحْفُ أَخْضَرَارُ اللَّيْلِ بِالْفَسَقِ  
فَلَيْسَ يُخْشَى عَلَيْهِ أَفْسَةُ الدَّرَسِ

ومن أمداحه فيه هذه القطعة التي يذكر فيها جوده وكرمه المتوالي توالي الغيث المسجم على كل من ينزل بمنزله من الاضياف والزوار في غبطة وأمان :

إِذَا نَزَلَ الْعَافُونَ فِي عُقْرِ دَارِهِ  
بِحَيْثُ حِيَاضُ الْجُودِ زُرْقُ مَيَاهُهَا  
وَالْغَيْثُ أَوْقَاتُ يُفَاجِيهِ مَوْبُهُ  
أَغْرُ طَلِيقِ الْوَجْهِ يَهْتَرُ لِلنَّدَى  
فَمَا لِعَلِيٍّ فِي الْبَرِيَّةِ مُشَبِّهٌ  
قَلَوْ أَنَّنِي فِي الْوَصْفِ لَمْ أَذْكُرِ اسْمَهُ  
فَقَدْ نَزَلُوا فِي غِبْطَةٍ وَأَمَانٍ  
وَمُزْنُ الْعَطَايَا دَائِمُ الْهَظْلَانِ  
وَنَائِلُهُ يَنْهَلُ كُلُّ أَوَانٍ  
كَمَا اهْتَزَّ مَصْنُوقُ الْفِرْدِ يَمَانٍ  
وَمَا لِعَلِيٍّ فِي الْأَنَامِ بِثَانِي  
دَرَوْهُ وَقَالُوا ذِي صِفَاةٍ فَلَانٍ

ومن أمداحه فيه قوله: (138)

صاروا وحبلٌ وصالحهم مَبْتُوتُ  
بانوا وروحي عندهم وحشاشتي  
أُسْفِي على وادي الأراك وإنما  
أُنْحَى على الأقراط ناطقةً ولا  
لا تأخذوا في اللوم لستُ بِسَامِعٍ  
هذا فؤادي إن وجدتكم غيرَها  
لو أن رفقك في قلوب مَرْكَبُ  
ولقد حَمَلت من الوقار سَكِينَةً  
فَسَلُّوا نُجُومَ اللَّيْلِ كَيْفَ أُبَيَّتُ  
ظَنَنْتُ بَأَنَّهُمْ مَضُّوا وَبَقِيتُ  
يَتَأَسَّفُ المَحْزُونُ وَهُوَ يَمُوتُ  
أُنْحَى على الخُلُخال وَهُوَ صَمُوتُ  
إِنَّ المَلامَةَ في الهوى تُعْنِيْتُ  
في طَيِّبِهِ فَالنَّارُ وَالْكِبَرِيْتُ  
لَمْ يَلْتَقِمِ في البَحْرِ يُونُسَ حُوتُ  
لَمْ يَحْتَمِلْهَا قَبْلَكَ الثَّابُوتُ

ثم إن ابن سوار، انتقل من سلا بدون إرادة ممدوحه إلى تلمسان، ولا ندري السبب الذي أوجب انتقاله وبعده عنه.

ولعله لم يجد بتلمسان ما خُلفه وراءه بسلا عند آل عشرة، من البرِّ والرعاية، والوجود والحقاوة، فندِمَ على مفارقتها لهم، وخاطب ممدوحه أبا الحسن بهذه القصيدة، معذراً عن يَبُونَتِهِ، ومُفَصِّحاً عما يقاسيه من مضاعفة ألم ندامته. (139)

بَدَتْ الغَزَالَةُ والغَزَالَةُ وَجْهَهَا  
خَالَسْتُهَا وَتَبَسَّمتُ فظننتُهَا  
فَتَشَابَهَتْ مِنْهَا الثَّلَاثَةُ أَضْرَبُ  
لو كان مرثياً جُمانَ حَدِيثِهَا  
ومضتُ تَجَرُّ وراءها شَعْرًا كما  
يَمْحُو مواقع أثرها فَكَانَتْهُ  
والمِسْكُ فَوْقَ الثَّرِبِ من أُرْدَانِهَا  
مالي ومالك يا عِيُونَ تَسُوْمُنِي  
هَلَا التَّقِينَا حَيْثُ يَنْتَثِرُ الظُّبَى  
وَتَكَلَّمْتُ فَسَمِعْتُ ظَلْبِيَا يَنْفُمُ  
عن مُثُلِ ما في نَحْرِهَا تَتَبَسَّمُ  
عِفْقُدُ وَثَغْرُ طَيِّبٍ وَتَكَلَّمُ  
لَرَأَيْتُ مِنْهُ أَجَلَ شَيْءٍ يُنْظَمُ  
أَعْطَاكَ جَانِبِهِ الْغُرَابُ الْإِسْحَمُ  
يُخْفِيهِ عَنْ عَيْنِ الرَّقِيبِ وَيَكْتُمُ  
خَطُ كَمَا رَقِمَ الرِّدَاءُ الْمَعْلَمُ  
خُطَطُ الرَّدَى وَأَنَا الْمُعْنَى الْمُغْرَمُ  
وَالهَامُ تَسْقُطُ وَالْقَنَى تَتَحَطَّمُ

(138) «النخيرة» ق 2 ورقة 149، مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

(139) نفس المصدر ورقة 150



وَالْجَوْدُكَ نُ وَالْغُبَارُ قَمِيصُهُ  
وَكَا نَ يَوْمَ الْحَشْرِ يَوْمُ جُمُوعِنَا  
وَكَا نَ كُلُّ كَمِيٍّ حَرْبٍ مَارِدًا  
وَمُدْرِيَيْنَ عَلَى الطَّعَانِ لَقِيْنَهُمْ  
لَبِسُوا جُلُودَ الرِّقْمِ وَاعْتَقَلُوا الْقِنَى  
حَتَّى عَلَوْنَاهُمْ بِكُلِّ مُهْنَدٍ  
ذُو خُطْبَةٍ فِي الْهَامِ يَسْمَعُ صَوْتَهَا  
وَلَقَدْ سَلِمْتُ مِنَ الصَّوَارِمِ وَالْقِنَى  
أَعْلَى يَابْنَ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ  
رَدُّ التَّحِيَّةِ مِثْلَ وَدِي غَضَّةٍ  
وَلَقَدْ كَتَبْتُ وَادْمَعِي مُنْهَلَةً  
أَمِنَ السَّوِيَّةِ إِنْ أَكُونُ كَمَا أَنَا  
وَاللَّهُ يَرْضَى عَنْكَ مِنْ حَكْمٍ فَقَدْ  
إِنْ بِنْتُ عَنْكَ وَلَمْ تُرِدْهُ فَمَا إِنَّهُ  
وَلَقَدْ نَدِمْتُ عَلَى فِرَاقٍ سَلَا كَمَا

وقال أيضا يمدحه، وكتب بها إليه من تلمسان (140)

لَعَلَّ إِيَابَ الظَّاعِنِينَ قَرِيبُ  
مَغَانِي تَلَاقِينَا وَعَهْدُ اجْتِمَاعِنَا  
وَأَيَّامُنَا بِبُخْرِ اللَّيَالِي وَدَهْرُنَا  
بِهَا كَانَ يَدْعُونِي الْهَوَى فَأَجِيبُهُ  
وَأَرْمِي الْمَهَى مِنْ نَظَرِي فَتُصِيبُهَا  
وَفِي الْخَذَرِ مَكْحُولُ الْجَفُونِ صِفَاتُهُ  
إِذَا مَا أَدَارَ الْكَأْسَ مِنْ مِثْلِ رِيقِهِ  
فَتَرْجِعُ أَيَّامُ الْحَمَى وَتَتَوَبُّ  
وَلَيْسَ عَلَيْنَا فِي الزَّمَانِ رَقِيبُ  
مِنَ الْحُسْنِ مَا لِلشَّمْسِ فِيهِ غُرُوبُ  
مُطِيعًا وَادْعُوا بِالْهَوَى فَيُجِيبُ  
سِهَامِي وَتَرْمِينِي الْمَهَى فَتُصِيبُ  
مِنَ السُّحْرِ مَغْسُولُ الرُّضَابِ شَنِيبُ  
تَمَائِلُ غُصْنٍ وَارْجَحَنُ كَثِيبُ

فَسَاجِفَانُهُ سَكْرَى وَنَحْنُ وَقَدُهُ  
وَيَهْدِي لِتَوَارِ الْحَدَائِقِ عَرْقَهُ  
عَلَى مِثْلِ الزَّمَانِ الَّذِي مَضَى  
تُشَقُّ قُلُوبٌ لَا تُشَقُّ جُيُوبُ  
وَكُلُّ بِمَا اسْتَوَلَى عَلَيْهِ مُرِيبُ  
فَيَعْبِقُ مِنْ أَنْفَاسِهِ وَيَطِيبُ

ومنها وقد شبهه بالملوك ونزله منزلتهم :

أَمِثْلَ عَلِيٍّ تَطْلُبُ الْعَيْنُ أَنْ تَرَى  
فَتَنِي يَهْبُ الدُّنْيَا وَيرْتاح لِلنُّدَى  
وَتَاتِي عَطَايَاهُ أَطْرَادَ خِصَالِهِ  
وَأَنْ كُنْتُ قَدْ أَضْرَبْتُ عَنْ مَدْحِ غَيْرِهِ  
فَلَيْسَ لَهُ فِي الْعَالَمِينَ ضَرِيبُ  
فَكُلُّ سَلَاوِيٍّ لَدَيَّ حَبِيبُ  
وَصَيْرَتَهَا مِصْرًا وَنَيْلُكَ نَيْلُهَا  
وَكُفَّاكَ بَطْحَاهَا وَأَنْتَ خَصِيبُ  
وَمِثْلَ عَلِيٍّ فِي الْمُلُوكِ غَرِيبُ  
كَمَا اهْتَزَّ غُصْنُ الْبَانِ وَهُوَ رَطِيبُ  
كَمَا اطَّرَدَتْ لِلسُّمَهْرِيِّ كُغُوبُ

قال ابن بسّام : وقد كُثر هذا المعنى فيه أبو بكر في مواضع من شعره، منها قوله من

قصيدة :

يَقُولُ رِجَالٌ غَيْرَ مَا يَفْعَلُونَهُ  
فَلَا تَطْلُبُوا فِي سَاحَةِ الْأَرْضِ مِثْلَهُ  
وَلَوْلَاكَ مَا كَانَتْ سَلَا دَارَ هَجْرَتِي  
فَأَلْفَيْتُهَا مِصْرًا وَأَنْتَ خَصِيبُهَا  
وَأَنْ عَلِيًّا قَائِلُ وَفَعُولُ  
فَمِثْلُ عَلِيٍّ فِي الْمُلُوكِ قَلِيلُ  
وَلَا كَانَ لِي عَمَّنْ أَحَبُّ رَجِيلُ  
وَكُفَّاكَ بَطْحَاهَا وَنَيْلُكَ نَيْلُ

والغالب على الظن أن ابن سوار لما لم يطب له المقام بتلمسان، واشتاق إلى ممدوحه من بني عشرة بسلا، وحن إليهم، وتذكر ما كان له عندهم من الحرمة والحظوة والمكانة والإعتبار، وما كانوا يقدقونه عليه من العطايا، ويخصونه به من المنح والمزايا، حسبما يوحى ذلك من القصائد والأشعار التي خاطبهم بها أثناء انفصاله عنهم، شد الرحلة مرة ثانية، ورجع إليهم مُجدداً صلته بهم، مستانفا أمداحه فيهم ، فقابلوه بما هو معروف من جودهم، وشرف نفوسهم، فاطمأنت به في هذه المرة الدار، وطاب له المقام والقرار.

وممّا فاضت به سجيته، وانطلق به لسانه في مدح الاسرة العشرية، إمّا قبل انتقاله عنهم أو بعد رجوعه إليهم، قوله: (141)

إِلَى ضَوْءِ ذَاكَ الْبَارِقِ الْمُتَعَالِي  
تَأَلَّقَ يَزْجِي عَارِضاً مِثْلَ أَنْمَعِي  
فَلَوْ لَا شِمَالِي فِي زِمَامٍ شَمَلْتُهُ  
إِلَى مَسْقَطِ الْغُرْسِ الَّذِي كَانَ غَرَسُهَا  
وَلَمْ تَنْسَهَا الْأَرْضَى رِيَاضُ تَرُودِهَا  
وَحُبُّ لِلْإِنْسَانِ أَوَّلُ مَوْطِنٍ  
هُمْ بَعَثُوا طَيْفَ الْخِيَالِ الَّذِي سَرَى  
وَأَقْبَلَ مِنْ تَلْقَائِهِمْ فَكَأَنَّهُ  
فِي أَدَارِهِمْ بِالْحَزَنِ حُزْنِي مُجَدِّدٌ  
أَرَى أَعْيُنًا صَوْرًا عَلَيَّ كَثِيرَةً  
وَأَبْيَضَ هُنْدِيٍّ كَأَنَّهُ بِحَدِّهِ  
جَرَى فَوْقَهُ مَاءُ الْفِرْنِدِ وَتَحْتَهُ

حَنَنْتُ وَحَنَنْتُ أَيُنِّي وَجِمَالِي  
وَيَحْكِي فُؤَادِي خَفَقَهُ الْمُتَوَالِي  
لَطَارَتْ إِلَيْهِ فِي صَبَا وَشِمَالِي  
بِهِ لَا إِلَى سِدْرٍ هُنَاكَ وَضَالٍ  
لَدَا مَوْرِدٍ عَذْبٍ الْمِيَاهِ زُلَالٍ  
وَإِنْ كَانَ فِي حَاشَاهُ نَاعِمٌ بَالٍ  
فَعَانَقَ جِسْمًا مِثْلَ طَيْفٍ خِيَالٍ  
مُغْلَقَةً أَعْطَافُهُ بِفُؤَالٍ  
عَلَيْكَ وَقَلْبِي لَيْسَ عَنكَ بِسَالٍ  
وَمِنْ دُونِ أَنْ أَلْقَاكَ سُورَ عَوَالٍ  
مُطَارَ ذُبَابٍ أَوْ مَدْبُ نِمَالٍ  
وَجَالَ عَلَى مَتْنِيهِ كُلُّ مَجَالٍ

و في المدح :

وَقَدْ أَظْهَرَتْ فِيهِ الْمَنَايَا نَفُوسَهَا  
وَلَمْ يَحْكِهِمْ صَوْبُ الْحَيَا لَكِنْ اقْتَدَى  
وَجَادُوا عَلَى جِيدِ الزَّمَانِ قَلَانْدًا  
أَقَامُوا لِمَوَاءِ الْمَكْرُمَاتِ وَخَيَّمُوا  
إِذَا احْتَجَبُوا لَمْ يَسْتُرِ الْحَجَبُ نَوْرَهُمْ  
أَوْ انْتَسَبُوا فِي الْمَجْدِ كَانَ انْتِسَابُهُمْ  
وَإِنْ وَرِثَ الْعَلِيَاءَ عَنْهُمْ عَلِيُّهَا  
سَكِينَتُهُ مِنْ «أَعْفُفِرْ» وَيَلْمَلَمْ  
إِلَيْكَ رَمَتْكَ الْعَيْسُ حَتَّى كَانَتْهَا

كَمَا خَوْضَتْ لُجَّ السَّرَابِ سِبْعَالٍ  
بِمَا فِيهِمْ مِنْ شَيْمَةٍ وَخِلَالٍ  
وَأَفْعَالُهُمْ فِيهَا ضُرُوبُ لُثَالٍ  
مِنَ الْمَجْدِ وَالْعَلِيَاءِ تَحْتَ ظِلَالٍ  
وَإِنْ طَلَعُوا كَانُوا بِدُورِ جَمَالٍ  
لَأَعْظَمَ عَمٍّ أَوْ لَأَكْرَمَ خَالٍ  
فَلَا يَدْعُ فِي عَالٍ وَرَأْتُهُ عَالٍ  
وَيَعُضُ رِجَالٍ فِي سَكُونِ جِبَالٍ  
مِنَ الْوَهْنِ أَقْوَاسُ رَمَتْ بِنَبَالٍ

و من أمداحه في بني عشرة قوله: (142)

وَفِتْنِيَّةٍ مِنْ أَعَارِيِبٍ كَأَنَّهُمْ  
لَا يَلْبَسُونَ جُلُودَ الرِّقَمِ سَابِغَةً  
وَلَا تَبَسِيْتُ عَلَى قُرْبٍ مَحَلَّتُهُمْ  
فَكَمْ مُضِيَّتْ وَصَوْتُ الْهَوْلِ يَتَّبِعُنِي  
مُلَابِسًا مَا تَرَاهُ الْعَيْنُ مُلْتَبِسًا  
وَأَطْرَقَ الْفَتَيَاتِ الْبَيْضُ لَابِسَةً  
وَالْقُرْطُ كَالْقَلْبِ مِنْ خَوْفٍ وَمِنْ حَذَرٍ  
لَمْ آتِهَا قَطُّ إِلَّا نَمَّ بِي وَبِهَا  
وَلَا انْتَهَيْتُ إِلَى أَطْنَابِ قُبَّتِهَا  
بِأَبْيَضٍ بِدَمِ الْأَجْسَامِ مُفْتَسِلٍ  
وَالطَّبْعُ أَكْرَمُ فِي تَكْوِينِ خَلْقَتِهِ  
إِنْ كُنْتُ يَا دَهْرُ لَمْ تَحْسِنِ مُعَاشِرَتِي  
أَجْرَبُ النَّاسَ فِي ضَيْقٍ وَفِي سَعَةٍ  
وَمَا عَلَى الْعُودِ أَنْ يَهْدِيَ نَوَافِحَهُ  
وَيُطَلِّبُ الْجُودَ مِنْ قَوْمٍ وَجُودُ بَنِي  
مَحَاسِنٍ تُقِفْتُ مِنْهَا أَوَائِلُهُمْ

و من أمداحه فيهم قوله: (143)

مِنْ لُطَى قَلْبِي اقْتَسَدِحْ لَا مِنْ زِنَادٍ  
صَرَفُوا نَوْمِي لِيَدْنُوا غَيْرَكُمْ  
أَنْتُمْ الْأَحْبَابُ فِي حُكْمِ الْهَوَى  
جَسَدِي أَتَحُلُّ مِنْ سِرِّكُمْ  
وَدُمُوعِي اسْتَقْي لَا مِنْ غَوَادٍ  
وَهَنِيئًا مَا غَصَبَتْكُمْ مِنْ فَوَادٍ  
فَارْقُقُوا لَا تَفْعَلُوا فِعْلَ الْأَعَادِ  
فِي تَنَاجِيكُمْ بِهِ يَوْمَ الْبِعَادِ

(142) «الذخيرة» ق 2. الورقة 152، مخطوط الخزانة العامة بالرياض.

(143) نفس المصدر، ورقة 150،

تَكْمُنُ الشُّحْنَاءُ فِي أَحْشَائِهِمْ      يَحْمَدُ النُّجْمُ الثَّرِيًّا أَلْفَتِي  
مَا مُرَادِي أَنْ أَرَى مُنْقَرِداً      لَا سَقَى الرُّوْضَ غَمَامٌ سَاكِبٌ  
إِنْ مِنْ بَعْدِ بَنِي الْقَاسِمِ لَا      نَسَبٌ مُطَرَّدٌ مِنْ شَرْفٍ  
وَقَبِيلٌ كُلُّهُ مِنْ عَثْرَةٍ      وَيَنُ الْعَشِيرَ ذَوُوا الْعَلِيَاءِ لَمْ  
وَعَفَافٍ وَعَاسِتِكَافٍ وَتَقَى      وَوَفَّاءٍ وَعَطَاءٍ وَأَيَّادٍ

و فيهم يقول أيضا . (144)

بَكَتْ وَمَا أَسَلَتْ دَمْعاً وَلَا هِيَ أَعْرَبَتْ      وَلَمْ أَرِ أَشْجَى مِنْ بَكَاءِ بَعِثْتُهُ  
نَوَائِحُ مَا غَاضَتْ دُمُوعُ جَفَوْنَهَا      وَمَا ذَلِكَ الْمُحْمَرُّ فِيهِنَّ خَلْقَةٌ  
سَقَى مَنْزِلًا بِالْقَرْبِ مُنْسَكِبُ الْحَيَا      بِحَيْثُ بَنُو عَشْرِ تَنْيِرُ وُجُوهُهُمْ  
فَمَا أَكْثَرَ الْمُتَنَبِّئِي عَلَيْهِمْ سَجِيَّةٌ      رَعَى اللَّهُ فِيكُمْ ذِمَّةَ الْمَجْدِ وَالْعَلَا

ومات احدهم اسمه محمد، ولا نعرف عنه شيئاً، فرثاه بقوله: (145)

مَا كُنْتُ أَعْلَمُ عِلَّةَ الدَّهْرِ الرَّدِّيَّ (146)      حَتَّى تَوَّى فِي الْقَبْرِ جِسْمُ مُحَمَّدٍ  
خَطْبُ ثَنَى وَجْهِ الصَّبَاحِ كَأَنَّهُ      بِالْحُزْنِ مِنْ قِطْعِ الظُّلَامِ الْأَرِيدِ  
وَرِزْيَةٍ نَزَلَتْ بِئَالِ مُحَمَّدٍ      خَصَّتْ وَعَمَّتْ آلَ دِينَ مُحَمَّدٍ

(144) «الذخيرة» ورقة 151، مخطوط الخزانة العامة بالرباط

(145) نفس المصدر ورقة 153،

(146) مِنْ رَدَى رَدَى مِنْ بَابِ تَعَبٍ إِذَا هَلَكَ.

ومات لأحدهم ولد فقال فيه يرثيه. (147)

وَنَاعَ نَعَى وَالْقَلْبُ كَالْقَلْبِ خَافِقُ مَرُوعٌ وَمِمَّا رَابِنِي لَمْ أَصْدُقْ  
بَكَتْ رَحْمَةً لِي عَيْنُ كُلِّ غَمَامَةٍ وَسَاعَدَنِي نَوْحُ الْحَمَامِ الْمُطَوَّقِ  
فَيَا حُزْنَ لَا تَذْهَبْ بِتَسْكَابِ أَدْمُعِي فَلِي مَدْمَعٌ مِنْ لُجَّةِ الْحُزْنِ يَسْتَقِي  
فَلَوْلَا الْتِهَابُ النَّارِ مَا بَيْنَ أَضْلُعِي لِأَصْبَحْتُ فِي بَحْرِ مَنْ الدَّمْعُ مُغْرَقِ  
دَعُونِي أَشْكُو الدَّهْرَ لِلدَّهْرِ مُعَلِنًا عَلَى أَنْتِي أَشْكُو إِلَى غَيْرِ مُشْفِقِ  
فَمَا فَوْقَ هَذَا الرُّزْءِ رُزْءٌ وَإِنَّمَا رَمَى كَبِدَ الْعَلْيَا بِسَهْمٍ مُفَوَّقِ  
قَضَى بِابْنِ عَشْرِ كَابِنِ عَشْرِ وَأَرْبَعِ فَهَلْ هِلَالٌ مَثْلُ نُونٍ مُسْعَرَقِ  
مَضَى بِفَتَى تَزْرِي أُسْرَةً وَجْهَهُ بِضَوْءِ الصَّبَاحِ الْمُشْرِقِ الْمُتَأَلَّقِ

وممن مدح القاضي أبا الحسن ابن عشرة، وأشاد بفضلته وجوده وكرمه من شعراء الأندلس، الشاعر الأديب الوشاح، أبو جعفر أحمد بن عبد الله الأعمى التطيلي.

وهو من شعراء الدولة المرابطية، المقيمين بإشبيلية، ومنها كان يخاطب ممدوحيه لعجزه عن الاتصال بهم، لأنه كان مُصاباً بالعمى.

ويؤخذ من بعض أشعاره، أنه عاش عيشة إقلال، لما عامله به الدهر من الحرمان والإهمال.

ومن أمداحه فيه قوله: (148)

تَنَاصَرُ الشَّيْبُ فِي فَوْدِيهِ خِذْلَانُ إِنَّ الزِّيَادَةَ فِي النُّقْصَانِ نَقْصَانُ  
لَا تَفْتَرِدُ بِعُيُوسٍ يَنْظُرُونَ بِهَا فَإِنَّمَا هِيَ أَحْدَاقُ وَأَجْفَانُ  
كَمْ مُقَلَّةٍ ذَهَبَتْ فِي الْغَيِّ مَذْهَبَهَا بِنَظَرَةٍ هِيَ شَانُ أَوْلَهَا شَانُ  
رَهْنٌ بِأَضْغَاثِ أَحْلَامٍ إِذَا هَجَعَتْ وَرَبِّمَا حَلَمَتْ وَالْمَرءُ يَقْظَانُ  
فَانْظُرْ بِعَقْلِكَ إِنَّ الْعَيْنَ كَاذِبَةٌ وَاسْمَعْ بِجِسْلِكَ إِنَّ السَّمْعَ خَوَّانُ

(147) «الذخيرة» الورقة 153، مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

(148) «ديوان الأعمى التطيلي»، طبع دار الثقافة ببيروت، ص 218

وَلَا تَقُلْ كُلُّ ذِي عَيْنٍ لَهُ نَظَرٌ  
 دَعِ الْغِنَى لِرِجَالٍ يَنْصِبُونَ لَهُ  
 وَاخْلَعْ لِبُوسِكَ مِنْ شَحٍّ وَمِنْ أَمَلٍ  
 وَصَاحِبٍ لَمْ أَزَلْ مِنْهُ عَلَى خَطَرٍ  
 أَغْرَاهُ حَظٌّ تَوَخَّسَاهُ وَ أَخْطَأَنِي  
 وَغَرَّهُ أَنْ رَءَاهُ قَدْ تَقَسَّدَمَنِي  
 إِنِّي اسْتَجَرْتُ عَلَى رَيْبِ الزَّمَانِ فَتَيَّ  
 حَسْبِي بَعْلِيَا عَلَيَّ مَعْقِلٌ أَشِبُّ  
 صَعْبُ الْمِرَاقِي وَلَكِنْ رَيْمًا سَهَلْتُ  
 الْوَاهِبُ الْخَيْلَ عِقْبَانًا مُسَوِّمَةً  
 مِنْ كُلِّ سَاعٍ أَمَامَ الرِّيحِ يَقْدُمُهَا  
 دُجْنَةٌ تَصِفُ الْأَنْوَارَ غُرَّتُهَا  
 عَصَا جَذِيمَةٌ إِلَّا مَا أُتِيحَ لَهَا  
 هَيْمٌ رَوَاءُ لَوْ أَنَّ الْمَاءَ صَافَحَهَا  
 يَكَادُ يَخْلُقُ مَهْرَاقُ الدِّمَاءِ بِهَا  
 مَوْتِي فَإِنْ خَلَعْتُ أَجْفَانُهَا عَلِمْتُ  
 نَفْسِي فِدَاؤُكَ لَا كُفُؤًا وَلَا ثَمَنًا  
 وَالتَّبَرُّ قَدْ وَزَنُوهُ بِالْحَدِيدِ فَمَا  
 إِنَّ الرُّعَاةَ تَرَى مَا لَا يَرَى الضَّانُ  
 إِنَّ الْغِنَى لِفُضُولِ الْهَمِّ مَيِّدَانُ  
 لَا يَقْطَعُ السَّيْفُ إِلَّا وَهُوَ عُورِيَانُ  
 كَأَنَّنِي عِلْمٌ غَيْبٍ وَهُوَ حَسَّانُ  
 أَمَا دَرَى أَنْ بَعْضَ الرِّزْقِ حَرَمَانُ  
 كَمَا تَقَدَّمَ «بِسْمِ اللَّهِ» عَنْوَانُ  
 إِلَّا يَكُنْ لَيْثٌ غَابٍ فَهُوَ إِنْسَانُ  
 زَمَانٍ سَيَّرِي بِهِ فِي الْأَرْضِ أَزْمَانُ  
 عَلَى الْمُنَى مِنْهُ أَوْطَارُ وَأَوْطَانُ  
 لَوْ سُوِّمَتْ قَبْلُهَا فِي الْجَوِّ عِقْبَانُ  
 مِنْهُ مَهَاةٌ وَإِنْ شَاءَتْ فَسِرْحَانُ  
 وَتَبَعَةٌ يَدْعِي أَعْطَافُهَا الْبَنَانُ  
 مِنْ أَمْرِ مُوسَى فَجَاعَتْ وَهِيَ تُعْبَانُ  
 لَزَالُ أَوْ زَلْ عَنْهَا وَهُوَ ظَمْآنُ  
 فَلَا تَقُلْ هِيَ أَنْصَابُ وَأَوْثَانُ  
 أَنْ الدُّرُوعَ عَلَى الْأَبْطَالِ أَكْفَانُ  
 وَلَوْ عَدَا الْمُشْتَرَى مِنْهَا وَكِيَوَانُ  
 سَاوَى وَلَكِنْ مُقَادِيرٌ وَأَوْزَانُ

وَمِنْ مَدْحِهِ أَيْضًا مِنْ جُلَّةِ الشُّعْرَاءِ وَمَشَاهِيرِهِمْ، أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْجَبَّارِ بْنِ حَمْدِيسَ الصَّقْلِيُّ بِقَصِيدَةٍ يَقُولُ فِيهَا: (149)

لِكُلِّ مُحِبٍّ نَظْرَةٌ تَبْعَتْهُ الْهَوَى  
 وَلِي نَظْرَةٌ نَحْوَ الْقَتُولِ هِيَ الْقَتْلُ  
 تُرَدِّدُ بِالتَّكْرِيهِ رُسُلَ نَوَاطِيرِي  
 وَمِنْ شَيْمِ الْإِنْصَافِ أَنْ تُكْرِمَ الرُّسُلُ

ومنها :

رَكِبْتُ نَوَى جَوَابَةِ الْأَرْضِ لَمْ يَعِشْ  
أَسَانِلُ عَنْ دَارِ السَّمَاكِ وَأَهْلِهِ  
وَلَوْلَا ذُرَى ابْنِ الْقَاسِمِ الْوَاهِبِ الْغَنَى  
تُخَفِّضُ أَقْدَارُ اللَّئِمَامِ بِلُؤْمِهِمْ  
فَتَى لَمْ يَفَارِقْ كَفُّهُ عَقْدُ مِثَّةٍ  
لَهُ نِعَمٌ تَخْضَرُ مِنْهَا مَوَاقِعُ  
وَرَحْبُ جَنَابٍ حِينَ يَنْزِلُ لِلْقُرَى  
وَوَجْهٌ جَمِيلُ الْوَجْهِ تَحْسِبُ ضِرَّةَ  
مُرُوعَةٍ أَمْوَالُهُ يَعْطَانِهِ  
وَأَيُّ أَمَانٍ أَوْ قَرَارٍ لِخَائِفٍ  
لِرَاكِبِهَا عَيْسُ تَخِبُ وَلَا رَجُلُ  
وَلَا دَارَ فِيهَا لِلْسَّمَاكِ وَلَا أَهْلُ  
لَمَّا حُطَّ فِيهَا عِنْدَ ذِي كَرَمٍ رَحُلُ  
وَقَسْدَرُ عَلِيٍّ مِّنْ مُّكَارِمِهِ يَعْلُو  
وَلَا عِرْضُهُ صَوْنٌ وَلَا مَالُهُ بَذْلُ  
وَلَا سَيْمًا إِنْ غَيَّرَ الْأَفْقُ الْمَحْلُ  
وَقَصْلُ خُطَابٍ حِينَ يَجْتَمِعُ الْحَفْلُ  
حُسَامًا لَهُ مِنْ لَحْظٍ سَائِلُهُ صَقْلُ  
كَأَنَّ جُنُونًا مَسَّهَا مِنْهُ أَوْ خَبْلُ  
عَلَى رَأْسِهِ مِنْ كَفِّ قَاتِلِهِ نَصْلُ

ومنها

لَقَدْ بَهَرَتْ شُهَبُ الدَّرَارِي مُنِيرَةً  
وَرِثْتُمْ تَرَاثَ الْمَجْدِ مِنْ كُلِّ سَيِّدٍ  
فَمِنْ قَمَرٍ يَبْقَى عَلَى الْأَفْقِ بَعْدَهُ  
وَأَصْبَحَ مِنْكُمْ فِي سَلَا الْجَوْرِ أَخْرَسًا  
مَلَكْتُ الْقَوَافِي إِذْ تَوَخَّيْتُ مَدْحَكُمْ  
مَآثِرُ مِنْكُمْ لَا يَكَاثِرُهَا الرُّمْلُ  
عَلَى مَنَكِبَيْهِ مِنْ حُقُوقِ الْعُلَا ثَقْلُ  
هَلَالًا وَمِنْ لَيْثٍ خَلِيفَتُهُ شِبْلُ  
وَقَامَ خَطِيبًا بِالَّذِي فِيكُمْ الْعَدْلُ  
وَيَا رَبَّ أَذْأَوْدَ تَمَلَّكَهَا فَحَلُ

وفي «بغية الملتبس» للضبي زيادة على ما في الديوان : (150)

أَيَا قَاضِيَا تَذْكِي بَصِيرَةً رَأَيْهِ  
وَيَا جَبَلَ الْعِلْمِ الَّذِي نَوَّنَ سَفْحِهِ  
سِرَاجٌ هَدَى يَجْلُو مِنَ الظُّلُمِ مَا يَجْلُ  
يُقَابِلُنَا مِنْ صَفْحِهِ الْخُلُقُ السَّهْلُ



ومنها في مقابلة ممدوحه بالبحر

تَغِيْظُ مِنْ حِقْدٍ وَأَزِيدَ مِثْلَ مَا رَمَتْ بِلِغَامٍ مِنْ شَقَاشِقِهَا الْبُزْلُ  
لَأَنَّكَ تُبْخِي (151) وَهُوَ تَعَطَّبُ سَفْنُهُ وَتَحْلُو لَوْرَادِ النَّدَى وَهُوَ لَا يَحُلُ  
وَتَفْتَحُ لِلْأَمَالِ بَاباً وَبَابُهُ عَلَيْهِ دَوَاماً مَنْ عَوَاصِفِهِ قُفْلُ  
وَتُقَطِّعُ عَنْهُ رِجْلُ كُلِّ سَفِينَةٍ وَعَنْكَ فَلَمْ تُقَطِّعْ لِرَاجِلِهِ رِجْلُ  
وَعِلْمُكَ دُرٌّ لَا يُبَاعُ بِقِيَمَةٍ وَذَا دُرُّهُ بِالْبَيْعِ يَرْخُصُ أَوْ يَغْلُ  
وَلَوْ أَنَّهُ عَذِبُ فُرَاتٍ لَمَا اكْتَفَى بِدَلِّ صَيُوبٍ (152) فِي حِمَاكَ لَهُ سَجْلُ

والأمداح في أبي الحسن ابن عشرة جداً، وإنما أثبتنا ما توقفنا إلى الوقوف عليه، حرصاً على بقائها، وعدم ضياعها، لما لها من القيمة الفنية والتاريخية، وأصلحنا ما أمكننا إصلاحه من ألفاظها، مع المحافظة التامة على أصلها، وحقائق معانيها، لأن النسخ تلاعبوا بها، وصحفوها تصحيفاً كادت تضيع معه بلاغتها وأساليبها وما قصده الشاعر منها، والله الموفق.

### وفاة أبي الحسن ابن عشرة

نص ابن الأثير في «تكميل الصلة» (153) على أنه توفي ببلده سنة اثنتين وخمسمائة (1108/502) رحمه الله تعالى، وخُلف لنفسه وأسرته لما اتَّصف به من الجود والفضل والمروءة والحسب ذكراً مُخلداً، لا ينقطع خبره، ولا يعفى أثره.

وقد رثاه شاعر حضرته، ومدح أسرته، أبو بكر محمد بن سوار الأشبوني بقوله (154).

(151) بخا غضبه سكن وفتر.

(152) دل الماء انصب، والصيوب الصائب، والسجل الدلو العظيمة والطاء والرجل الجواد

(153) ص 232، طبع مدريد

(154) «الذخيرة» ص 152، مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

الْعَيْشُ بَعْدَكَ يَا عَلِيُّ نَكَالُ  
يَا عَثْرَةً عَثَرَ الزَّمَانُ بِأَهْلِهِ  
يَا عَصْمَةَ الْفُقَرَاءِ بَلَّ يَا مَالَهُمْ  
أُبْكِيكَ بِالدَّمِّ لَا بِدَمْعِي إِنَّهُ  
دُنْيَا ظَفِرْتُ وَمَا مَتَاعُكَ كُلُّهُ  
قَدْ كُنْتُ مَشْغُولًا بِهِ مُتَوَقِّعًا  
فَالآنَ مَا أَنَا لَا أَبَالِي عَنْ أَسَى  
قَدْ كُنْتُ أَمَالِي الَّتِي أَنَا طَالِبُ  
لَا الظِّلُّ ظِلُّ بَعْدَ فَقْدِكَ يَا أَبَا

ومنها :

كَيْفَ الصَّفُوحُ عَنِ الْمُسَيِّءِ وَلَمْ يَكُنْ  
حَطُّوا عَنِ الْاِخْوَارِ قَدْ مَاتَ الَّذِي  
قَدْ وَدَّعَ الْقَوَالَ وَالْفَعَالَ مَا  
وَتَهْدَمُ الْجِبَلُ الْمُنِيفُ فَزُلْزِلَتْ  
فَلَا جَعَلَنَ حَاجِي لِقَبْرِكَ إِنَّهُ  
أَيْنَ الْعَزَاءُ فَقَدْ أُدْبِلَ بِأَحْمَدِ  
إِلَّا الْجَمِيلُ لَدَيْكَ وَالْإِجْمَالُ  
يَتَحَمَّلُ الْأَعْيَاءَ وَهِيَ ثِقَالُ  
فِي الْأَرْضِ قَوْلًا وَلَا فَعَّالُ  
رُتَبُ الْعُلَا وَمِنْ الرِّجَالِ رِجَالُ  
الْخَيْرِ فِيهِ وَالتَّقَى أَوْصَالُ  
دَوْلُ الْأَقَاضِلِ بِالْبَنِينَ تُدَالُ

ومنها :

طَوَّقْتُ النُّعْمَى فَصِرْتُ حَمَامَةً  
وَإِذَا الْإِيَادِي لَمْ تَكُنْ مَشْكُورَةً  
تَشَدُّوْا وَغَضَبُكَ نَاطِرُ مِيَالُ  
لِلْمُنْعِمِينَ فَإِنَّهَا إِعْغَفَالُ

## القاضي أبو العباس أحمد ابن علي ابن عشرة السلاوي

كان لأبي الحسن علي ابن عشرة عدة أولاد كلهم سيد سري في أسرته، وصلنا أسماء أربعة منهم، وهم .

- أبو العباس أحمد، و هو أشهرهم ذكرا، وأرفعهم قدرا.

- وأبو علي حسن أو حسون.

- وأبو زكرياء، يحيى.

- وأبو يعقوب، يوسف.

ولما توفي أبو الحسن علي في التاريخ المتقدم، أسند أمير المسلمين علي بن يوسف ابن تاشفين، ولاية قضاء سلا، إلى أبي العباس أحمد منهم، محافظة على مجد أسرته، وإبقاء لهذه الرياسة الشرعية الدينية في بيتهم. وقد كان حَقاً سَيِّداً من سادات هذه الأسرة العشرية، و بدرًا طالعا في سمائها، وصدرا من صدورها، وأديبا من أدبائها، ذا همة عالية، ومكانة بين ذويه وأقرانه ممتازة سامية، موطن الأكناف رقيق الحاشية، له صلة مع سلاطين وقته، وأدباء عصره، بالمغرب والأندلس، فكانوا يشدُّون الرحلة إليه، كما كانوا يشدُّونها إلى ابنه من قبله، و ينتابون منزله، ويتبعون مَعْقِلَه، ويخصونه بأمداحهم، ويترنمون بذكر جوده وكرمه في أشعارهم، وتجري بينهم في مجالسه الأنسية، مساجلات شعرية، ومطارحات أدبية، ومذاكرات علمية، أعذب من الزلال، وأرق من السُّحر الحلال.

وقد ترجمه الضَّبِّيُّ في «بغيته»<sup>(155)</sup> وحلَّاه :

بأنه فقيه أديب شاعر من أهل بيت وزارة وجلالة...

ولا نعرف أن بني عشرة كانوا وزراء، وإنما نعرف أنهم كانوا قضاة، اللهم إلا أن يكون قصد أن منزلتهم من سلاطين الدولة المرابطية، ومكانتهم عندهم جعلتهم في صف الوزراء، موصوفين بالوزارة، تشريفا لهم ورفعاً لشأنهم، فذلك ممكن.

وأنشد من شعره نقلا عن الفتح في «المطمح».

جَنَيْتُ بِالْوَهْمِ وَرَدَّ الْخَدَّ مُجْتَنِبًا      وَبَلْتُ مَا أَشْتَهِي مِنْ رِيْقِهِ الشَّنْبِ  
فَعَلْتُ فِعْلَ امْرِئٍ لَا شَيْءَ يَحْجُبُهُ      قَدْ صَارَ مَخْتَرِقَ الْأَسْتَارِ وَالْحُجُبِ

و أبو العباس هذا هو الذي بنى القصر الدانع الصَّيْت و رفع سَمْكُه، و أجرى في بحر الشهرة فُلْكه، وقد تقدَّم الكلام عليه مستوفى، وما قيل فيه من الشعر، ومن نزل به من الملوك والأمراء في الفصل الخاص به.

## زواجه بابنة عمه

ساق أبو يعقوب يوسف ابن الزيات في كتابه «التشوف، إلى رجال التصوف»، في ترجمة أبي الفضل ابن النُحوي خبر زواجه بابنة عمه فقال (156)

حدثني يحيى بن عبد الرحمان، عن يحيى بن أبي بكر بن الأخنس، عن أبيه، عن أحمد ابن عشرة قال : تزوجت ابنة عمي، فلما خرجتُ من عندها مررتُ بسوق الصيارفة، فرأيت سَلَكاً بين يد دَلالٍ ينادي عليه بخمسائة دينار، فاشتريته إلى أجل وحملتهُ إلى ابنة عمِّي علي عادة الناس في اتحاف العروس، و لم يكن عندي من أين أقضي ثمنه، فلماً بقي من أجله يومٌ بقيت متحيراً، فاسبغتُ الوضوء و صليتُ، وجعلتُ أهنفُ طول ليلتي بدعاء كان علمُنيه أبو الفضل، و كان لا يَقْبَلُ من أحد شيئاً، وإنما يأكل ما يساق إليه من بلده، فاذا احتاج وتأخر عنه ماله، دعا بذلك الدعاء فيفرج عنه.

فلماً طلع الفجر سمعت قارعا يقرع الباب، فخفت أن يكون صاحب السَلَك، فاذا هو رسول أبي، فأردت أن أكتتم منه، فلم يكن بدُّ من النهوض إليه، فلماً دخلت عليه، سألني عن حالي وأنسني وقال لي : ارفع ما تحت البِساط، فحملت خريطة، فاذا فيها ألف دينار، فقضيت الدين بنصفه، وأصلحتُ بعض حالي ببقيته.

و يؤخذ من هذه القِصة، أنه اجتمع بأبي الفضل ابن النحوي، وأخذ عنه، ولا ندري في أي بلد كان اجتماعه به.

كما يُوخذ منها، أنَّ مال عشرة، مع ما ءاتاهم الله من فضله، وما أُسبِغ عليهم من نعمه، كانوا يعيشون في بيوتهم عيشة اقتصاد وعفاف، لا عيشة تبدير وإسراف. وكانوا يربُّون أولادهم على ذلك، اقتداءً بأهل الخير والصَّلاح الرَّاهدين في الدنيا، الراغبين في الآخرة، ليلا يشبُّوا على حب التَّرف المفسد للأخلاق، المستغرق لموارد الأرزاق، المضيق لمجال الإنفاق، على الوُرُاد والزُّوار الوافدين عليهم من الآفاق. ولا شكَّ أنَّ ذلك يضيع سمعتهم التي اشتهروا بها في عالم الكرم والجود، بما لديهم بكل موجود.

فهذا أبو العباس، وهو من فخر بني القاسم، وابن أبي الحسن زينة الأيام والمواسم، الذي كانت الدنيا خادمة له، وينايع الأرزاق متفجِّرة من بين يديه، ومن خلفه، لا يجد ما يؤدي به ثمن سلك اشتراه لعرسه، ويؤجل صاحبه إلى أجل، ويهتم به غاية الاهتمام، ويتوجه إلى الله تعالى أن يرزقه ما يؤدي به منه.

وفي ذلك دليل على أنهم كانوا يزهدون فيما يذهب وَيَفُوتُ، ويرغبون فيما يخلد ذكرهم ومجدهم بعد الموت، وقد حصلوا عليه بجودهم وكرمهم، وذهب ما بذلوه لِقُصَادهم ومدَّأهم من الأدباء والشعراء، وبَقِيَ ما خَلَّدوه من ذكرهم والثناء العاطر عليهم في بطون الدفاتر وأسرار المعاجم، منذ نحو تسعمائة عام، وانظر ماياتي بعد ذلك إلى ان يشاء الله سبحانه.

تِلْكَ الْمَكَارِمُ لَأَقْعَبَانٍ مِنْ شَيْبَا بِمَاءٍ فَغَادَ بَعْدُ

## حلول الوزير أبي محمد بن عطية

### بسلا في غيبة أبي العباس عنها

ذكر الفتح في «قلائده»: (157) أنَّ الوزير الحافظ القاضي أبا محمد عبد الحق بن عطية حلَّ بسلا، والفقير أبو العباس فخر بني القاسم، وزين الأعياد والمواسم، الذي تهمل من يديه للندى سحب تكف، وتطوف بكعبته الآمال وتَعْتَكِفُ غائب عنها، فلم يُنَخَّ فيها عيسه، ولم يرَّ تخييمه فيها وتكريسه، ورحل من ساعته، وقال شعراً أخذ الناس في اشاعته وأذاعته، وهو : .

يَا صَاحِبِيْ اَنْزِلْ اَقْصَرَ الْحِمَى فَسَلَا      اُنِّى سَلَا الْمَجْدُ عَنْ اَنْ تَحْتَوِيهِ سَلَا  
كَأَنَّمَا الرَّيْعُ لَمَّا غَابَ أَحْمَدُهُ      مَنَازِلُ ظِلٍّ عَنْهَا الْبَدْرُ مُنْتَقِلَا  
جَادَ الزَّمَانُ بِلَقْيَا مِنْكَ سَرُّ بِهَا      طَوْرًا وَسَاءَ بِذَاكَ الْعَهْدُ إِذْ بَخِلَا  
فَاسْمَعْ مُنَاجَاةَ نَفْسٍ مِنْ أَخِي ثَقَّةٍ      مَضَى تُحْمَلُهُ مِنْكَ النَّوَى عِلَا  
وَعُدْ إِلَيْهَا أَبَا الْعَبَّاسِ تَحْكُ بِهَا      مَرَاتِبَ الشُّمُسِ لَمَّا حَلَّتِ الْحَمَلَا  
لَا زِلْتُ فِي عِقْدِهَا وَنُسْطَى وَلَا عَدِمْتُ      مِنْكُمْ حُسَامًا يُبَاهِي خَوْلَهُ خِلَا

## قصته مع الوزير أبي محمد بن القاسم

كان الأمير أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن القاسم الفهري، من أمراء الأندلس، بحصن البونْت، واستنزله أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من حصنه كغيره من أمراء الأندلس، ولكنه رعى له حقه، وتدرجت به الأيام حتى أصبح وزيراً لولده أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين. وفي أيام وزارته، حصل بين أمير المسلمين وأبي العباس بن عشرة، ما ترتب عليه شيء من الغضب منه، فشد الوزير ابن القاسم عضده، ودافع عنه وحماه، وتأكدت أواصر الود والإخاء بينهما، واستحكمت عراها، وكان كل منهما يحفظها ويرعاها.

ثم إن أمير المسلمين، انقلب على وزيره ونكبه وعزله، فاختر ان يتخذ بسلا مقامه ومنزله، فانقبض عنه أبو العباس وتكر له، وتناسى ما أسدى له من المعروف وبذله، فاننقذ الناس عمله، وظنوا أنه خيب فيه أمله.

وقد ساق الفتح في «قلائده» هذه القصة احسن مساق فقال: (158) ولما نُفِّذَ في أمره ما نُفِّذَ، وانفصل عن أمير المسلمين وانتُزِدَ، خيره في بلاد المغرب، فاختر سلا، واعتقد أنه يانس فيها ويسلى بمجاورة بني القاسم الذين غدوا بدور سمائها، وصدور أسمائها.

فلما حلها، انقبض عنه أبو العباس انقباضاً نعي عليه اقبح نعي ونسب فيه إلى قلة الوفاء والرعي، وكان بينهما أيام وزارته مودة محمودة التواخي، مشدودة الأواخي، واشتملت إذ ذاك

على أبي العباس مساع أدجت مطلعته، وحنّت على الوجد أضلعه، فجذب فيها أبو محمد بضبعه، والقاء بين بصر العضد وسمعه، ثم قال الفتح :

فلما وردت مشيت إليه ونقمت عليه صدوده، وإحاشه لمن كان وبوده، وعرفته بحرّماته، وأوقفته على موأته، فاعتذر بما يخاف من أمير المسلمين ويحذر، وكتب إليه :

وَأَحْسَرْتَنَا لِصَدِيقٍ مَّالُهُ عَوْضُ      إِنْ قُلْتَ مَنْ هُوَ لَا يَلْقَاكَ مُعْتَرِضُ  
أَلْقَاهُ بِالنَّفْسِ لَا بِالْجِسْمِ مِنْ حَذَرٍ      لِعِلَّةٍ مَا، رَأَيْتَ الْحُرَّ يَنْقَبِضُ

فكتب إليه أبو محمد مراجعا :

شَرُّ الْجِيَادِ إِذَا اجْرَيْتَ مُنْقَبِضُ      مَا لِلْوَجِيهِ عَلَى الْمِيدَانِ مُعْتَرِضُ  
أَتَى تَضَاهِيهِ فُرْسَانُ الْكَلَامِ وَمَنْ      غُبَارُهُ فِي هَوَادِيهِمْ مَا نَقْضُو  
جَرَتْ عَلَى مُشْتَوٍ مِنْ طَبْعِهِ كَلَمٌ      هِيَ الْمَشَارِبُ لَكِنْ مَالَهَا فَرَضُ  
كَأَنَّ مُنْشِدَهَا نَشْوَانُ مِنْ طَرَبٍ      أَوْ بُلْبُلًا مِنْ سَقِيطِ الطَّلِّ يَنْتَفِضُ  
تَحِيَّةٌ مِنْ أَبِي الْعَبَّاسِ زَارَ بِهَا      طَيْفٌ مِنَ الْعُذْرِ فِي اثْنَانِهَا يَمِضُ  
لَا بِالْجَلِيِّ فَتُسْتَوْفَى حَقِيقَتُهُ      وَيُسْتَبَانُ بِعَيْنٍ مَا بِهَا غَمَضُ  
لَكِنْ أَغْضُ عَلَيْهِ جَفَنَ ذِي مِقَّةٍ      كَمَا يَسُدُّ مَسَدَ الْجَوْهَرِ الْعَرَضُ  
يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نُعَاتِبَهُ      إِلَّا عِتَابَ مُحِبٍّ لَيْسَ يَمْتَعْضُ  
نَاشِدُكَ اللَّهُ وَالْإِنْصَافُ مَكْرَمَةٌ      أَمَّا الْوَفَاءُ بِحُسْنِ الْوَدِّ مُفْتَرَضُ  
هَبِ الْمَرَارَ لِمَعْنَى الرَّيْبِ مُرْتَفِعُ      مَا لِلْوِدَادِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُنْخَفِضُ  
أَمَّا لِكُلِّ نَبِيٍّ فِي الْعِلَاقِ حَيْلُ      تُقْضَى الْحُقُوقُ بِهَا وَالْمَرْءُ مُنْقَبِضُ  
كُنْ كَيْفَ شِئْتَ فَمِنْ دَائِي مُحَافِظَةٌ      عَلَى الذُّمَامِ وَعَهْدُ لَيْسَ يَنْتَقِضُ  
وَهِمَّةٌ لَمْ تَضُقْ ذُرْعًا بِحَادِثَةٍ      إِنَّ الْكَرِيمَ عَلَى الْعِلَاقِ يَنْتَهِضُ  
وَالْحُرُّ حُرٌّ وَصُنْعُ اللَّهِ مُنْتَظَرُ      وَالذَّكْرُ يَبْقَى وَعُمُرُ الْمَرْءِ يَنْقَرِضُ

وقد أخبر الفتح عن مال هذا الوزير بعد تخلي الدولة عنه وتكرها له بقوله : (159)

«وهو اليوم قد انقبض عن أنواع الناس وأجناسهم، واستوحش من إيناسهم، وأنس بنتائج أفكاره، وهام بعيون العلم وأبكاره، وكلف بفنونه، وتصرف من سهوله إلى حزنه، ونبذ الدنيا نبد النواة، وانتبذ من ملايسة الغواة، وصرف وجهه تجاه البر والتقوى، وترك رُبْعَ الحظوة عافيا قد اقوى، وعلم أن الله به حفي، وأنه له صفى، حين اعلقه بأسبابه، وصرفه عن باب الملك إلى بابه...»

ومن تأمل جوابه لصديقه عما أبداه من أسفه وحسراته، علم أنه لقنه درسا جامعا في حياته. وقد بقى مقيما بسلا، إلى ان أدركه أجله بها، ولم نقف على تاريخه.

قال أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي في رجزه «اتحاف أشرف الملا»: (160)

وَبِسَلَا غَابَ سَنَاءُ بَدْرِهِ    بَابُ حُسَيْنٍ ضَمَّ نَوْرَ قَبْرِهِ  
ولا نعلم محله بالتعيين، والله اعلم .

هذا، ولاغربة فيما صدر من أبي العباس، فإن الزمن كالزمن والناس كالناس، يظهرون ودك، ويرعون عهدك، ويتأدبون معك، ويشتهون قربك، مادام الدهر رافعا قدرك، ناشرا ذكرك، ولاسيما إذا كنت متصفاً برياسة ولو موهومة، أو وظيفة ولو غير معلومة، فإذا تنكر لك الدهر، تنكروا لك، ونسوا عهدك، ونبذوا ودك، وجحدوا إحسانك وفضلك، واستثقلوا ظلك، والكيس منهم يعاملك بالتقصير ولا ينبئك مثل خبير.

وأبو العباس، كغيره من الناس، خاف من أمير المسلمين، فانكمش عن صديقه، وأمسك عن زيارته، ولو إلى حين، وإلا فمقامه في الجود والكرم معروف، واعتناؤه بزواره وقصاده بألسنة الشعراء والأدباء موصوف، ولكن المحافظة على حياة الرياسة الدنيوية، كالمحافظة على الحياة الروحية، ومن عدم الأولى حساً، عدم الثانية معنى، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

## بعض ما قيل فيه من الأمداح

كان القاضي أبو العباس كوالده وأسرتة مُمدحاً مقصوداً من شعراء عصره. ومن مدحه شاعر والده، أبو بكر محمد بن سوار بقوله: (161)

(160) ورقة 92، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا  
(161) «الذخيرة» ورقة 152، مخطوط الخزانة العامة بالرباط.



بَعَثْتُ إِلَيْكَ مَعَ الْبُرُوقِ حَيَالَهَا      فَأَرَاكَ شَكْلَكَ حَامِلًا أَشْكَالَهَا  
هَلْ يَنْكُرُ الْغَيْرَانُ مِنِّْي وَقَفَّةً      وَقَفْتُ أَمَانِي النَّفُوسِ حَيَالَهَا  
فِي لَيْلَةٍ عَبَثَ الْمِحَاقُ بِبَدْرَهَا      غَضِبًا فَقَصَرَ عُمُرَهُ وَأَطَالَهَا  
سَوْدَاءَ أَشْرَقَ نَجْمُهَا فَلَوْ أَنَّي      أَجْرِي عَلَى فَلَكٍ لَكُنْتُ هِلَالَهَا  
وَلَقَدْ فَتَكْتُ بِقُرْطِهَا وَبِمِرْطِهَا      حَتَّى هَتَكْتُ حُجُولَهَا وَحِجَالَهَا

ومنها في المدح :

مَا الْخَطَّةُ الْعَلِيَاءُ زَانَتْهُ بَلَى      هُوَ زَانَهَا حَتَّى أَتَمَّ كَمَالَهَا  
وَيَشْقُ مَاءُ الْعِنَقِ مَفْحَةً خَدَّهِ      شَقَّ الْفِرْنَدِ مِنَ السَّيُوفِ صِبَالَهَا  
وَيَأْخُذُ بْنُ عَلِيٍّ بِنَ قَاسِمٍ بِنَ      بِنِ مُحَمَّدٍ دَرَّتِ الْمَكَارِمُ حَالَهَا  
هُوَ لَفْظَةٌ مِّنْ مَنْطِقِ الدُّنْيَا بِهَا      فَخَرَ الزَّمَانُ عَلَى بَنِيهِ فَقَالَ لَهَا  
مِنْ كُلِّ مُكْتَمِلِ الْوَقَارِ وَأَزْهَرِ      لَيْسُوا الشَّيْبَةَ وَاكْتَسَوْا سِرِّيَا لَهَا  
يَمْشُونَ فَوْقَ الْأَرْضِ تَحْتَ حُلُومِهِمْ      فَتَخَالَهُمْ أَوْتَادُهَا وَجِبَالَهَا  
لَوْلَاهُمْ لَتَحَرَّكَتْ جَنْبَاتُهَا      مِنْ رُجْفَةٍ وَلَزَلَزَتْ زِلْزَالَهَا

وقال في مدحه أيضا : (162)

أَمَعَاهِدِ الْمَرْجِ الَّذِي غَادَرْتُهُ      مَفْدَى لِبَارِقَةِ الْمَهَى وَرَوَاحَا  
وَادٍ إِذَا ضَرَبَ الْهَجِيرُ رِوَاقَهُ      أَهْدَى إِلَى مُهْجِ الْقُلُوبِ رَوَاحَا  
إِنْ كَانَتْ الْأَرْوَاحُ مِنْ مَاءٍ فَمِنْ      ذَاكَ الْمَجَاجِ تَكُونَتْ أَرْوَاحَا  
فَأَنْتَ تَقْبَلْنِي فَقُلْتُ لَهَا أَمْسِكِي      عَنِّي فَإِنِّي لَا أَقَارِبُ رَاحَا  
فَمَضَتْ وَقَدْ أَخْجَلَتْهَا فَتَبَسَّمَتْ      فَرَأَيْتُ فِي أَرْضِ الْعَقِيقِ أَقَاحَا  
حَتَّى إِذَا مَا الرُّوضُ نَبَّهَهُ النَّدى      فَتَحَتْ عُيُونًا كَالْعُيُونِ مِلَاحَا

وتخلص للمدح فقال .

طَالِبْتُهَا أَدْباً فَسَالَ تَوَقُّدًا وَطَلَبْتُه كَرَمًا فَذَابَ سَمَاحًا

وقال فيه أيضا: (163)

عَلَى طُولِ مَا أَبْكِي تُعَاتِبُنِي عَثْبًا      فَيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَكُونُ لَهَا عَثْبًا  
سَرَى جَانِبٌ مِنْ جَانِبِ الْغَرْبِ خَافِقُ      خُفُوقُ فُؤَادِ الصَّبِّ قَدْ فَارَقَ الْحُبَّ  
فَمَا قَنَعَتْ فِي الْحَرْبِ بِيضُ صَوَارِمٍ      بَأْيَدِي كُمَاةٍ يُكْتَبِرُونَ بِهَا الضُّرْبَا  
تُكَلِّفُنِي نَظْمَ النُّجُومِ قَلَانِدًا      لَعَمْرِي لَقَدْ كَلَّفْتُنِي مِرْتَقَى صَعْبَا  
وَهَبْنِي مَلَكْتَ الشَّمْسِ وَالْبَدْرِ فِي يَدٍ      وَسُقْتُ إِلَى جَنَّتَيْهِمَا الْأَنْجَمُ الشُّهْبَا  
إِذَا لَمْ أُعَلِّقْهَا عَلَى جِيدِ أَحْمَدٍ      فَلَا جِيدَ فِي الدُّنْيَا يَكُونُ لَهَا حَسْبَا  
صَبَا بِالْغَوَانِي مَنْ صَبَا وَهُوَ لَمْ يَزَلْ      بِيْنَتْ الْمَعَالِي هَانِمًا كَلَفًا صَبَا  
فَتَى يَهَبُ الْبَيْضَ الْكَوَاعِبَ كَالْدُمَى      وَيَبِيضُ الظُّبَا وَالسُّمُرَ وَالضُّمُرَ الْغُبَا  
لَقَدْ وَهَبَ اللَّهُ الْجَمَالَ لِأَحْمَدٍ      وَشَرَفَ مِنْهُ الْخَلْقَ وَالْخَلْقَ الْعَذْبَا  
مُوقِفُ عَارَاءِ الْقَضَاءِ كَأَنَّمَا      بِصِيرَتِهِ فِي الْغَيْبِ تَخْتَرِقُ الْحُجْبَا  
إِذَا اكْتَسَبَ النَّاسُ الدَّنَانِيرَ عُدَّةً      فَأَحْمَدُ لَا يَرْضَى بِغَيْرِ الْعُلَا كَسْبَا  
كَذَاكَ مَضَتْ فِي السَّالِفَاتِ جُدُودُهُ      كَمَا مَرَّ كَعْبُ الرُّمَحِ مُطْرِدًا كَعْبَا

وله فيه: (164)

يَا رَاقِدًا ثَمِلَ الْمَنَامُ جُفُونَهُ      إِنِّي بِحُبِّكَ سَاهِرٌ مَا أُرْقُدُ  
إِنِّي لَا أَرْحَمُ خَصْرَهُ مِنْ رِقَّةٍ      وَأَرْقُ لِلْغُصْنِ الَّذِي يَتَأَوَّدُ  
وَعِدَا يُطَمِّعُنِي الْوِصَالُ تَمَنِّيًّا      إِنِّي سَأَهْلِكُ قَبْلَ أَنْ يَدْنُو غَدُ  
وَلَيْسَتْ أَثْوَابُ الْمَلَاحَةِ مِثْلُ مَا      لَيْسَ السَّمَاحَةُ وَالرَّجَاحَةُ أَحْمَدُ  
لَوْ كَانَ خُلِدَ فَاضِلٌ لِفَضِيلَةٍ      فِيهِ لَكَانَ عَلَى الزَّمَانِ يُخْلَدُ  
الْمَجْدُ وَالشَّرَفُ الْمُؤْتَلُّ وَالنَّدَى      وَالْجُودُ وَالْعَلِيَا لَهُ وَالسُّودُ

(163) «الذخيرة»، ورقة 152 و 153 مخطوط الخزنة العامة بالرباط

(164) «الذخيرة»، ورقة 152 و 153 مخطوط الخزنة العامة بالرباط.

وَبَلَاغَةُ لَمْ أَدْرِ حِينَ سَمِعْتُهَا أَفَصَاحَةً أَمْ أَوْلَى مُتَبَسِّدٍ  
لَا نَاطِقٌ عَجَلَ الْكَلَامَ بِهَا وَلَا مَتَوَقِّفٌ فِيهَا وَلَا مُتَرَدِّدٌ  
مِنْ مَعْشَرٍ طَابُوا مَنَاصِبَ فِي الْعِلَا وَإِذَا يَطِيبُ الْأَصْلُ طَابَ الْمَوْلِدُ

وَمِمَّنْ مدحه من شعراء الأندلس الشاعر الوشَّاح، أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن أبي  
هريرة، المشهور بالأعمى التطيلي، ولم يرحل إليه بسلا، وإنما خاطبه من إشبيلية، لما كان  
مصابا به من العمى، حسبما تقدمت الإشارة إليه قبل هذا، قال: (165) وهي من أبلغ شعره.

صُدُودٌ مُلِظٌ أَوْ فِرَاقٌ مُوَاشِكٌ لَعَمْرِي لَقَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ الْمَسَالِكُ  
أَتَى دُونَ أَسْمَاءِ الْعِتَابِ وَدُونَنَا مَأْخُذُ أَحْصَتْهَا النَّوَى وَمَتَارِكُ  
وَمَنْ لِي بِهَا وَالْبَيْضُ وَالسُّمُرُ دُونَهَا وَجُرْدُ الْمَذَاكِي وَالْقِلَاصُ الرُّوَاتِكُ  
وَكُلُّ طَوِيلِ الرُّمَحِ طِيبٌ بِحِمْلِهِ إِذَا شَاءَ أَبْكَاهُ دَمًا وَهُوَ ضَاحِكُ  
أَخُو عَزَمَاتٍ لَا الْمَهَارَى أَمَامَهَا نَوَاجِحُ وَلَا الْخَيْلُ الْعِتَاقُ مَسَاهِكُ  
لَهُ مُقَلَّةٌ شَوْسَاءُ أَكْثَرُ نَوْمِهَا غَرَارًا إِذَا نَامَ الْعُدَاةُ الصُّعَالِكُ  
إِذَا مَرَّقَتْ بَيْنَ الْوَدَائِقِ وَالْدُّجَى فَلَا حِجْلَ إِلَّا مَا تُثِيرُ السَّنَابِكُ  
وَعَرَضُ فَلَاحَةٍ مَا تُعَارِضُهَا النَّوَى تَرَى الْمَوْتَ فِيهَا وَهُوَ أَعَزُّ شَائِكُ  
وَجُنْحُ ظَلَامٍ لَوْ تَنَارَ عَجَاجَةٌ لَمَّا لَمَعَتْ فِيهَا السُّيُوفُ الْبَوَاتِكُ  
دُجَى لَوْ سَرَتْ فِيهَا الشَّيَاطِينُ تَرْتَقِي إِلَى السَّرِّ لَمْ تَخْلُصْ إِلَيْهَا النَّيَازِكُ  
خَلِيلِي هَلْ فِي أَدْمُعِي وَانْحِدَارِهَا جَلَاءُ لَعَيْنٍ دَمْعُهَا مُمَاسِكُ  
وَلِي سَكَنٌ يَنْهَى وَيَدْنُو وَحُبُّهُ بِصَبْرِي مُودٍ أَوْ لِسِرِّي هَاتِكُ  
سَلِّ الْخَيْلِ هَلْ جَشِمْتُهَا كُلَّ غَايَةٍ يَهُونُ عَلَيْهَا شَدُّهَا الْمُتَدَارِكُ  
وَهَلْ عَرَفْتَنِي رُبَّمَا بَسْتُ مُغْرَمًا تُدَافِعُهُ أَكْفَالُهَا وَالْحَوَارِكُ  
وَمَا نَكَرْتُ إِلَّا التَّفَانِي بِالْقَنَى وَقَدْ شَرِقَتْ بِالْمُعَلِّمِينَ الْمَعَارِكُ  
وَالَا اخْتِيسَالِي فِي ذُرَى صَهَوَاتِهَا وَقَدْ نَظَرْتُ شَزْرًا إِلَيَّ الْمَهَالِكُ

أَيَا رَحْمَتًا لِلشَّعْرِ أَقْوَتَ رُبُوعُهُ  
وَاللشُّعْرَاءَ الْيَوْمَ ثُلُثَ عَرُوشِهِمْ  
إِذَا ابْتَسَدَرَ النَّاسُ الْحُطُوطُ وَأَشْرَقَتْ  
رَأَيْتُهُمْ لَوْ كَانَ عِنْدَكَ مَدْفَعُ  
فِيَا دَوْلَةَ الضَّيِّمِ أَجْمَلِي أَوْ تَجَامَلِي  
وَيَا «قَامَ زَيْد» أَعْرِضِي أَوْ تَعَارِضِي  
سَمَتَ «بَابِي الْعَبَّاسِ» بِتِلْكَ وَهَذِهِ  
رَحِيبُ مَجَالِ الْفِكْرِ وَالْأَمْرِ ضَيْقُ  
وَمُشْتَرِكُ الْإِكْفَاءِ فِي السُّخْطِ وَالرُّضَى  
بِقَاضِي قُضَاةِ الْغَرْبِ وَابْنِ قُضَايَةِ  
فَتَى لَمْ يَكُنْ يَوْمًا لِيُنْهَاهُ مَطْلَبُ  
يُطِلُّ عَلَى الْأَعْدَاءِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ  
إِزَاءَ الْعَوَالِي وَهُوَ جَذْلَانُ بِاسْمِ  
حَرِيٍّ بِأَنْ لَا يَعْدُوَ الْحَقُّ وَجْهَهُ  
وَأَنْ تَعْرِفَ الْأَقْوَامُ سَوْرَةَ عَدْلِهِ  
وَأَنْ يَتَوَقَّى الضَّيِّمُ جَانِبَ جَارِهِ  
نُضَاهُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ<sup>(166)</sup> مُهْنُودًا  
وَنَاهَتْ بِهِ الْأَيَّامُ عِلْقَ مَضْبُتَةٍ  
إِذَا التَّقَتِ النَّارُ الْفِرَاشَ تَأَلَّقَتْ  
إِذَا سَمِعَتْ أَذْنَاهُ حَيَّ عَلَى الْعُلَا  
وَأِنْ عَلَقَتْ كَفَّاهُ حَبْلَ سَيِّدَاةٍ  
وَأِنْ أَسْعَرَتْ عَيْنَاهُ وَجْهَ صَنِيعَةٍ

عَلَى أَنْهَارِ الْمَكْرُمَاتِ مَنَاسِكَ  
فَلَا الْفَخْرُ مُخْتَالٌ وَلَا الْعِزُّ تَامِكُ  
مَطَالِبُ قَوْمٍ وَهِيَ سَوْدُ حَوَالِكُ  
كَمَا كَسَدَتْ خَلْفَ الرِّئَالِ الثَّرَائِكُ  
فَقَدْ أَصْبَحَتْ تِلْكَ الْعُرَى وَالْعَرَائِكُ  
فَقَدْ حَالَ مِنْ دُونِ الْمُنَى «قَالَ مَالِكُ»  
إِلَى حَيْثُ لَا تَسْمُو النُّجُومُ السَّوَامِكُ  
صَلِيبُ قَنَاةِ الصَّبْرِ وَالْأَمْرُ نَاهِكُ  
وَلَيْسَ لَهُ فِي الْمَكْرُمَاتِ مُشَارِكُ  
تَوَدَّدَتِ الْأَمَالُ وَهِيَ فَوَارِكُ  
وَلَوْ أَنَّهُ فِي مَسَلِكِ الْبَحْرِ سَالِكُ  
وَقَدْ أَفَكَّتْ عَنْهُ الْخُطُوبُ الْأَوَافِكُ  
وَدُونَ الْمَعَالِي وَهُوَ شَيْحَانُ فَاتِكُ  
لَدَيْهِ وَقَدْ زَاغَ الْأَلَدُ الْمَحَاحِكُ  
كَمَا احْتَمَلَتْ نَارَ الْقِيُونَ السَّبَائِكُ  
كَمَا يَتَوَقَّى الْبُغْلُ عَذْرَاءَ عَارِكُ  
لِكُلِّ دَمٍ مِنْهُ وَإِنْ عَزَّ سَافِكُ  
تَتَارَعُهُ أُمْلَاكُهُ وَالْمَمَالِكُ  
أَيَادِيهِ فَاتَلَقَّتْ عَلَيْهَا الْهَوَالِكُ  
فَلَا الْجُودُ مَشْرُوكٌ وَلَا الْبَاسَ تَارِكُ  
قَلَّهِ مَسْمُوكٌ بِهِ الْمَجْدُ سَامِكُ  
رَأَيْتَ عُيُونَ الْأَسَدِ وَهِيَ مَضَاحِكُ

(166) كذا بالأصل. والمعروف أن سلاطين المرابطين كانوا يتلقبون بأمرء المسلمين أديباً مع خلفاء بني العباس

الْكُنْيَ إِلَيْهِ فِي السَّلَامِ وَبَيَّنَّا  
 بآيَةٍ مَا يَكْفِي الْمُلِمَّ وَرَبِّمَا  
 أَجِدُكَ لَمْ تَوْقُظْكَ وَالنَّجْمُ هَاجِعٌ  
 دَعَتْ فَاشْأَعَتْ بِدَّهَاهَا وَسُرُورَهَا  
 بَنَاتُ الْهُوَى تُمْلِيهِ أَوْ تَسْتَمْلِيهِ  
 يَلُكُنْ حَدِيثًا رُبَّمَا أَفْصَحَتْ بِهِ  
 وَأَحْسَبُهَا غَنَتْ بِذِكْرِكَ مُوهِنًا  
 لِذَاكَ جَلَاهَا مِنْ سَنَا الصَّبْحِ شَارِقٌ  
 وَرَأَقَتْ رُبَاهَا كُلُّ حُسْنٍ كَأَنَّمَا  
 فِي كُلِّ بَطْنٍ مُشْرِعٌ مُتَلَاوِجُنْ  
 إِلَيْكَ أبا العَبَّاسِ غُرٌّ مَدَانِحِي  
 إِلَيْكَ وَرَبِّعَانُ الرُّجَاءِ يَوْمُهُمَا  
 قَلَانْدُ أَعْنَاقٍ وَأَزْهَارُ أَعْيُنٍ  
 فَحِكْ لِي مِنْ نَعْمَاكَ بَرْدًا أَجْرُهُ  
 بَنِي قَاسِمٍ قَدْ زِنْتُمْ الدَّهْرَ كُلَّهُ  
 رَفَعْتُمْ لِأَهْلِ الْغَرْبِ أَعْلَامَ دِينِهِمْ  
 فَقُلْ لِسَلَا شُحِّي عَلَى آلِ قَاسِمٍ  
 إِذَا الدَّيْمُ الْوُطْفُ انْتَحَتَكَ فَلَا تَبْلُ

وله فيه هذا الموشح ، وقيل إنه لابن بقي : (167)

أَعْيَا عَلَى الْعُودِ رَهِيْنُ بَلْبَالٍ مُـــــــوَدَّقٍ  
 أَذْلَهُ الْحُبُّ لَا يَنْكِرُ الذُّلَّةَ مَسْنً يَغْشَقُ  
 مَنْ لِي بِهِ يَزْنُو بِمَقَلَّتِي سَاحِرٌ إِلَى الْعِبَادِ

يُنْأَى بِهِ الْحُسْنُ فَيَنْتُنِي نَافِرُ صَعْبَ الْقِيَادِ  
وَثَارَ يَدْنُو كَمَا احْتَسَى الطَائِرُ مَاءَ التَّمْصَادِ  
فَجِيَدُهُ أَغْيَدُ وَالْخَدُّ بِالْخَالِ مِنْ مَقْ  
تَكُنْفُهُ الْحُجُبُ فَلِئْسِي إِلَيَّ الْكَلَّةُ تَشْ—وَقْ  
عَمَّا بَلَيْتِهِ وَمَرُّ كَالظَّبْيِ لِإِي—دِهِ  
فَدَلَّ عَلَيْهِ تَكْسُرُ الْحَلِي بِجِي—دِهِ  
تَغْتِيرُ عَيْنِيهِ يُسْرِعُ فِي بَرِي عَمِي—دِهِ  
فَإِنْ أَكُنْ أَقْصَدُ هَلْ مِنْهُ فَأُولَى لِي إِذَا يَرْمُقْ  
هَلْ يَسْلَمُ الْقَلْبُ وَأَسْهَمُ الْمُقْلَةُ لَا تَرْفُقْ؟  
وَدِدْتُ مِنْ خَلْسِي وَمِثْلُ نَشْرِ الْكَاسِ فِي شَفْرِهِ  
لَوْ جَادَ بِالْوَصْلِ جَوْدَ أَبِي الْعَبَّاسِ بَوْفَرِهِ  
فِي الْجُودِ وَالنُّبْلِ وَقُلْ أَجَلُ النَّاسِ فِي قَدْرِهِ  
يَا كَعْبَةَ السُّؤْدُ حَتَّى عَلَى الْمَالِ لَا تُشْفِقْ  
فَمِثْلُكَ النَّذْبُ يَسَابِقُ الْجَلَّةُ فَيَسْبِقْ  
يَأْيَهَا الْحَائِمُ هَلْ لَكَ فِي عَذْبٍ مَلَأَ الدَّلَا  
يَمُّ بَنِي الْقَاسِمِ وَأَقْصِدْ مِنَ الْغَرِبِ إِلَى س—لا  
وَأَسْتَمِطِ رَوَاسِمُ تُخَادُّ بِالرُّكْبِ وَسَطَ الْفَلا  
سَفَانًا تَجْهَدُ فِي أَبْحُرِ الْآلِ مَا تَفَرِّقْ  
يَسْتَبْشِرُ الرُّكْبُ وَتَشْتَكِي الرَّحَاةُ الْإِيْنُ—قْ  
أَدْعُوهُ بِالْقَاضِي وَأَمْرُهُ يَقْضِي عَلَيَّ لِي—ي  
أَنَا بِهِ رَاضِي لِأَنَّهُ يُرْضِي لِأَمَلِي—ي  
قَلْ غَيْرَ مُعْتَاضٍ بِمَنْ عَلَى الْأَرْضِ مِنْهُ مُلِي—ي  
أَمَا تَرَى أَحْمَدُ فِي مَجْدِهِ الْعَالِي لَا يَلْحَقْ  
أَطْلَعَهُ الْغَرِبُ فَأَرْنَا مِثْلَهُ يَامَشْ—رِقْ

وفيه يقول أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الصَّبَّاح الجُدَّامي في موشحته كما في «أزهار الرياض»<sup>(168)</sup> وذكرها بتمامها، واقتصر على البيتين الأخيرين في «نفح الطيب»<sup>(169)</sup> وكلاهما لأبي العباس المقرئ، ونسبهما لابن بقي، ولعله ضمنهما فقط.

رُسُومُ ظَاهِرِ الْبِلَاسِ	بِكُلِّ رَسْمٍ طَاسِمٍ عَنْوَانُ
وَرَبَّعُهُمْ مَا أَشْكَلا	مَنْهَا لِكُلِّ حَازِمٍ تَبْيَانُ
قِفْ بِالذِّيَارِ وَأَعْتَبِرْ	إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الْعَبَرِ
وَانْظُرْ لَهَا وَارْتَجِرْ	فَلِنْ فِيهَا الْأَجَرِ
كَمْ مُعْلَمٍ قَدْ دُتِرْ	فَلَمْ يَبْنِ مِنْهُ أَثَرُ
تَبْكِيهِ وَدَقُّ الْفَلَا	وَفِي بُكَاءِ الْحَمَامِ أَشْجَانُ
فَلَنْتَ دَبَّ إِلَى الطَّلَا	فَفِي قَوَادِرِ الْهَائِمِ أَحْزَانُ
سَمَاعاً مِّنَ الْوُجُودِ	عَنْهُ تَفَاهُصُ الْعُقُولُ
فَفَيْبَةُ وَشُهُودُ	كِلَاهُمَا عَيْنُ الدَّلِيلِ
حَتَّى مَتَى يَا مُرِيدُ	تَخْتَالُ فِي ثَوْبِ الْخُمُولِ
تَشْكُرُونَا الْعَالَا	وَأَنْتَ بِالْمُنَائِمِ جَسْدَلَانُ
فَلَنْدُ بَعِزِّ الْعَالَا	فَعِنْدَنَا لِلنَّائِمِ إِحْسَانُ
فَنَاءُ أَهْلِ الطَّرِيقِ	هُوَ الْوُجُودُ الْمُطْلَقُ
فَكُلُّ مَعْنَى دَقِيقِ	يُوصَفُ فِيهِمْ بِحَقِّ
أَنْوَارُهُمْ فِي شَرِيقِ	بِهَا اسْتَخْضَا الْمُؤَفَّقُ
قَدْ أَوْضَحُوا السُّبُلَا	فَهُمْ لَنَا فِي الْعَالَمِ بَرْهَانُ
فَاجْنَحْ إِلَيْهِمْ وَلَا	تَقْبَلْ لِلْمَوَاسِمِ إِبْسَانُ
يَا نَاسِيَا لِيُوصِلَنَا	أَيَقِظَ مِنَ النَّوْمِ الْجُفُونُ
سَلِّمِ إِلَيْنَا فِعْلَنَا	مَا كَانَ مِنْهُ أَوْ يَكُونُ

(168) ص 233 من ج 2.

(169) ص 996 من القسم 1، طبع بولاق.

لَا حَوْلَ إِلَّا حَوْلَنَا      فَاَنْفِ الشُّكُوكَ وَالظُّنُونُ  
 يَا غَادِرًا قَدْ سَلَ      أَقْصِرْ فَلَيْسَ يَجْمَلُ سَلَوَانُ  
 لِلَّهِ مَا أَجْمَلُ      مِنْ بَاتَ وَهُوَ بِالْهَوَى نَشْوَانُ  
 يَا طَالِبًا لِلنُّزْدَى      يَبْغِي السَّمَا حَةَ وَالنُّوَالُ  
 يَمَّمْ فُؤَدِيَّتَ أَحْمَدَا      بَدَّرَ الْعُلَا شَمْسَ الْكَمَالُ  
 وَعَدَّ عَمُّنْ شَدَا      وَاسْتَغْرَقَ الْمَدْحَ وَقَالَ :

البيتان مضمنان من توشيح الأعمى التطيلي في مدح يوسف، كما سيأتي في ترجمته :

إِنْ جَرَّ نَتَ أَرْضَ سَلَ      تَلْقَاكَ بِالْمَكَارِمِ فِي ثِيَانُ  
 هُمْ سَطُورُ الْعُـ      وَيُوسُفُ بْنُ الْقَاسِمِ عُنْوَانُ

ومن مشاهير شعراء الأندلس الذين مدحوه ومدحوا أسرته، الشاعر الوشاح أبو بكر يحيى بن بقي.

وقد كان كما حلاه الفتح في «قلانده»<sup>(170)</sup> رافع راية القريض وصاحب أية التصريح فيه والتعريض، أقام شرائعه وأظهر روائعه، وصار عَصِيَّهُ طَانَعَهُ، إذا نظم أُرِي بنظم العقود، وأتى بأحسن من رقم البرود، وطفى عليه حرمانه، فما صفا له زمانه...

ولكنه لما اتَّصل ببني عَشْرَةَ بسلا هلَّ هلاله، واطمأنَّ بآله، وصلح حاله، وزال إقْلَالُهُ، وأمنَ سِرْبُهُ وعياله، على يد مجيره من الزمان، ومنقذه من الحرمان، ابي زكرياء يحيى منهم، كما سيأتي التنبيه عليه في ترجمته.

وجاء في كتاب «أخبار وتراجم أندلسية» مستخرجه من «معجم السفر» للحافظ السلفي: <sup>(171)</sup> انه سَرَقْسُطِيُّ النَسَبِ، إِشْبِيلِيُّ الْأَدَبِ، سَلَوِيُّ النَّسَبِ، وَادِيشِيُّ الْعَطَبِ، يَعْنِي أَنْ أَوَّلَهُ مِنْ سَرَقْسُطَةَ، وَتَأَدَّبَ بِأَشْيِلِيَّةٍ وَاكْتَسَبَ الْمَالَ بِمَدِينَةِ سَلَ مِنْ الْعُدُوةِ، وَتَوَفَّى بِوَادِي عَاشٍ، مِنْ مَدَنِ الْأَنْدَلُسِ.

(170) ص 279.

(171) ص 151.



ومما مدح به القاضي أبا العباس ابن عشرة قوله من قصيدة: (172)

ونوبة من صهيل الخيل يسمعها  
لا ينفذ العزم إلا أن ينفسه  
يا كوكبا يغرق العافون في دفع  
تهويمة في بساط اليد يهجعها  
لا يترك الناس لو راموا ولو جهدوا  
بالرئث بعض الذي أدركت بالعجل

ومما مدحه به أيضا هذه القصيدة: (173)

أمصطبر أنت إن قوضوا  
ستجزع إن سرت في ركبهم  
تخير لنفسك في حالي  
فأما على نية فاعتزم  
قد ابتكروا واستقلت بهم  
فساروا إلى عقرات اللوى  
فأعلام نجد قوادي القرى  
فمهلاً علينا فإنا على  
نشأ عكم، ولعل العنا  
ولو كبد عذبت بالضنى  
وجدنا بكم وعلى بينكم  
وأوحشنا ربكم إذ عفا  
تبدل من بعدكم شردا  
فليت الأحبة لم تحتمل

وأما المصيف من المربع  
وإن لا تسر فيهم تجزع  
ن فامض بإحدهما وامدع  
وإما على ظلم فاسرع  
فلانص مشدودة الانسع  
إلى السمرات إلى لعل  
فبطن تهامة فالأجرع  
أسي مؤلم وهوى مصرع  
للسب نظرة مستمتع  
لذابت كذا الورق لم تسجع  
ومن أجلكم فوق ما ندعي  
فيا لهف نفسي على الأربع  
وقد كان أنسة الرثع  
وليت الركائب لم توضع

(172) «القلاند» ص 283، طبع بولاق.

(173) «القلاند» مخطوط الخزانة العامة بالرياض، ورقة 261، وهذه القصيدة غير موجودة في النسخة المطبوعة

أَجَلٌ، وَالَّذِي جَعَلَ الذُّيَرَاتِ  
 سَتُوضِعُهُنَّ إِلَى أَحْمَدٍ  
 وَلَا فَاشْتَبَاهُهَا الْمُنَشَّاتُ  
 تَرَى الْمَوْجَ مُصْطَفِقًا فَوْقَهُ  
 أَجَا ج يَعَافُ الْوَرَى شُرَيْكَهُ  
 أَبَابْنِ عَلِيٍّ يَقَاسُ الْحَيَا  
 وَهَذِي سَحَابُ الْحَيَا أَقْلَعَتْ  
 دَعَاهُ الْأَنَامُ لِدَفْعِ الْخُطُوبِ  
 فَقَصُرَ مِنْ خُطُوبِهَا الْمُسْتَطِيلُ  
 وَعَفَى عَلَى رَسْمِ جَنْدَرٍ أَتَى  
 وَأَخِيَا بِأَحْكَامِهِ سِيرَةً  
 بِمَنْ يَشْرَفُ الْمَذْحُ إِلَّا بِهِ  
 فَلَا بِالشُّجِيحِ وَلَا بِالشُّحَاجِ  
 وَلَا بِالْأُسُوفِ عَلَى فَائِثِ  
 فَمَنْ طَلَبَ الْمَجْدَ لَمْ يَتَّيْدُ  
 هَوَادِي فِي الْحِنْدِسِ الْإِسْفَعِ  
 عَلَى كُلِّ دُوَيْتَةٍ بِأَقْصَعِ  
 عَلَى زَاخِرٍ أَخْضَرَ الْمَدْرَعِ  
 يُخَيِّفُ بِمِرْجَلِهِ الْمُفْزَعِ  
 عَلَى شَطْطِهِ طَيِّبُ الْمَشْرِعِ  
 وَإِنْ لَمْ يَضُنْ وَلَمْ يَمْنَعِ  
 وَسُحِبَ عَطَايَاهُ لَمْ تُقَالِعِ  
 فَلَمْ يَتَبَلَّدْ وَلَمْ يَخْشَعِ  
 وَسَكَنَ مِنْ رِيحِهَا الزُّغْزَعِ  
 عَلَى عَهْدِ مَدْيَنَ أَوْ تَبْعِ  
 مِنَ الْعُمَرِيِّينَ عَلَى مَهْيَعِ  
 فَتَى أَرْوَعًا أَيْمًا أَرْوَعِ  
 وَلَا بِالْهَبِيبِ وَلَا الْيَلْمَعِ  
 وَلَا بِالْمُسَيْفِ إِلَى مَطْمَعِ  
 وَمَنْ لَيْسَ الْحَمْدُ لَمْ يَخْلَعِ

وفي أبي العباس ابن عشرة، يقول أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي في رجزه «اتحاف  
 اشراف الملا ببعض أخبار الرباط وسلا» (174).

مِنْهُمْ أَبُو الْعَبَّاسِ ابْنُ عَشْرَةَ  
 وَهُمْ بَنُو الْقَاسِمِ أَهْلُ أَدَبٍ  
 كَانَ فَقِيهًا شَاعِرًا أَدِيبًا  
 أَضْحَى بِهَذَا النَّفَرِ بَدْرًا زَاهِرًا  
 قَاضِي سَلَا مِنْ بَيْتِ قَوْمِ بَرَّةٍ  
 ذَوُوا وَزَارَةٍ وَأَهْلُ حَسَبٍ (175)  
 مُسْتَجْمِعًا مِنَ الْعُلَا نَصِيبًا  
 أَيَّامَ كَانَ الْعِزُّ غُصْنًا مُثْمِرًا

(174) مخطوط الخزائن الناصرية بسلا ورقة 54.

(175) لا نعلم أن بني عشرة كانوا وزراء، وإنما كانوا قضاة ذوي شرف ورياسة.

وَقَصَدَتْ رُبُوعَهُ الطُّلُوبُ وَنَفَقَتْ بِسُوقِهِ الْأَدَابُ  
تَرْجَمَهُ الضُّبِّي لَدَى بُغْيَتِهِ وَالْفَتْحُ أَجْرَى الذُّكْرِ فِي زُمْرَتِهِ  
وَكَانَ صَدْرًا سَادِسَ الْمِئِينَ أَيَّامَ دَوْلَةِ الْمَرَايِطِيسَنَ  
ثُمَّ قَضَى بِهَا فَجَلًّا أَثَرًا وَصَارَ مِنْ بَعْدِ الْعِيَانِ خَبْرًا

### وفاة القاضي أبي العباس ابن عشرة

لم يحفظ لنا التاريخ وفاة القاضي أبي العباس ابن عشرة بالضبط، والذي نعلمه أنه كان حياً سنة خمس عشرة وخمسائة (1121/515-1122)، لما مرَّ به المهدي بن تومرت وعبد المومن بن علي، ونزلا عنده. والصحيح أنه لم يدرك دولة عبد المومن، لأن الفتح، لما ذكره في «القلاند» في ترجمة الشاعر أبي بكر يحيى بن بقي، ترحم عليه<sup>(176)</sup>. ولا يخفى أن الفتح نقل في تعيين تاريخ قتله عدة أقوال، ما بين سنة تسع وعشرين وخمسائة (1135/529) وسنة خمس وثلاثين وخمسائة (1140/535)، وعبد المومن احتلَّ سلا المرة الأولى سنة أربعين وخمسائة (1145/540). وعليه، فإن أبا العباس ابن عشرة توفي ما بين التاريخين.

وقد ذكر ابن بسَّام في ترجمة الشاعر ابن سوار، قطعة شعرية، رثى بها قاضيين من بني عشرة، ولم يعينهما. والظاهر أنه رثى بها أبا العباس عند وفاته، وأشرك معه والده القاضي أبا الحسن على سبيل الذكرى والتفجع، وإن كان تقدّم رثاؤه له، كما يتلمح منها في قوله :

هذا شُريحُ في القضاء وذا علي<sup>(177)</sup>

والله أعلم. ونصها :

الصُّبْرُ أَجْمَلُ عِنْدَ كُلِّ مُلْمَأَةٍ لَكِنْ عَلَى فَقْدَيْهِمَا لَمْ يَجْمُلِ  
قَمَرَانِ غَيْبَا بِالْكَسُوفِ سَنَاهُمَا لَا تَخْسِفُ الْأَقْمَارُ إِنْ لَمْ تَكْمُلِ  
مِنْ قَاضِيَيْنِ مُوقَفَيْنِ كَأَنَّمَا هَذَا شُريحُ فِي الْقَضَاءِ وَذَا عَلِي

(176) ص 283، طبع بولاق.

(177) «الذخيرة» ورقة 152 مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

بِقِيَّةٍ مِنْ صِحَّةٍ وَسَجِيَّةٍ مِنْ رَوْضَةٍ وَسَكِينَةٍ مِنْ يَذْبُلٍ  
وَرِزَانَةٍ مِنْ حِكْمَةٍ وَقَضِيَّةٍ مِنْ قُطْنَةٍ وَبَدِيَّةٍ مِنْ مُنْصَلٍّ

## القاضي أبو علي الحسن (أو حسون) ابن علي ابن عشرة السلاوي

هو أحد أفراد الأسرة العشرية السلاوية، الموصوفين بالقضاء. وليس لدينا من أخباره إلا ما ذكره ابن البيدق عرضاً في كتابه «أخبار المهدي»<sup>(178)</sup>، من أن المهدي وعبد المومن، ومن كان معهما، لما وصلوا إلى مكناسة أتت من فاس، نزلوا بالسوق القديم، بمسجد بني تميم عند الحسن ابن عشرة، وكان الطلبة يأتونه لأخذ العلم عنه...

ثم ذكر: <sup>(179)</sup> أنهم لما وصلوا إلى سلا، ونزلوا عند قاضيهما أبي العباس ابن عشرة المتقدم الذكر، كان ياتيهم أفراد يأخذون عنه العلم، ومنهم القاضي حسون ابن عشرة...

فهل هو حسن المتقدم الذكر؟ وقد وصفه هنا بالقاضي، ولم يفصح عن محل ولايته، والظاهر أنها كانت بغير مكناسة، إذ لو كان قاضياً بها لحلّاه بهذا الوصف من أول مرة.

ويبقى أمر آخر، وهو كيف تركه بمكناسة، ووجده أمامه بسلا، فهل تقدمه، أو جاء معه أو لحق به؟؟؟ أمر مسكوت عنه.

وهل حسون هذا، هو حسن الذي كان بمكناسة؟ الغالب على الظن أنه هو، لأن المغاربة شاع بينهم تغيير بعض الأعلام إلى هذه الصيغة. فيقولون مثلاً: في حسن حسون، وفي محمد حمود، وفي عيَّاش عيَّوش، وهلم جراً.

وعلى كل حال، فهو أحد الأفراد الذين وُصفوا بخطة القضاء من هذه الأسرة العشرية.

ويظهر أنه كان من وجوهها البارزين فيها، ومن أهل العلم والفضل من رجالها، وإن كانت أخباره غامضة لم يصلنا شيء من تفاصيلها، ولا نعرف تاريخ وفاته ولا محلها، وإنما نعلم أنه كان حياً سنة خمس عشرة وخمسمائة (1121/515-1122)، واجتمع بالمهدي وأخذ عنه.

(178) ص 66.

(179) ص 67.

## أبو زكريا يحيى بن علي ابن عشرة السلاوي

أبو زكريا يحيى هذا، ثالث الأخوة أبناء الحسن ابن عشرة الذين سادوا واشتهروا، وكانوا بسلا بدور سمانها، وصُدور أسمائها. وقد حلاه ياقوت في «معجم الأدباء»<sup>(180)</sup> بالإمارة، ولا نعرف ماهي هذه الإمارة التي كان متصفاً بها، لأنه لم يصلنا من تفاصيل أخباره، إلا ما وصفه به الأدباء والشعراء في أشعارهم وموشحاتهم، من الفضل والنبل والنباهة، لأنه كان كوالده وإخوته جواداً فيأضاً معطاءً وهاباً للشعراء، فأنحلت عقدُ ألسنتهم، وتدققَت بلاغتهم بمدحه ومدح أسرته بالشعر الخالد، المسجل للمفاخر والمحامد.

وممن مدحه وأشاد بفضله ونبله، الشاعر الأندلسي أبو بكر يحيى بن عبد الرحمان بن بقي القرطبي المتقدم الذكر في ترجمة أخيه القاضي أبي العباس، وكان مفلوكاً، فاجتباها واصطفاه، وأسدى إليه من المعروف ما أسدى، وصير نحسه سعداً.

قال ابن خلكان،<sup>(181)</sup> نقلاً عن «المطمح الكبير» للفتح ابن خاقان :

«كان ابن بقي نبيلاً في النثر والنظم، كثير الارتباط في سلوكه والانتظام، إلى أبعد أمد، وبنى من المعارف على أثبت عمد، إلا أن الأيام حرمتها، وقطعت حبل رعايته وصرمته، ولم تُنم له وطراً، ولم تُسجِم عليه من الحظوة مطراً، ولا نولته من الحرمة نصيباً، ولا أنزلته مرعى خصيباً، فصار راكب صهوات، وقاطع فلوات، لا يستقر يوماً، ولا يستحسن قوماً، مع توهم لا يظفره بأمان، وتقلب ذهن كواهي الجمان، إلا أن يحيى بن علي بن القاسم، نزعه عن ذلك الطيش، وأقطعته جانباً من العيش، وأرقاه إلى سمانه، وسقاه صيب نعمائه، وفيأه ظلاله، وبوأه أثراً لنعمة تجوس خلاله، فصرف إليه أقواله، وشرف بنو أمية نواله، وأفرده منها بأنفس در، وقلد لبته بقصائد غر...»

وقد عبّر ياقوت في «معجم الأدباء» عن حالة هذا الشاعر، مع هذا الأمير العشري بقوله :<sup>(182)</sup>

(180) ص 21 من ج 20.

(181) ص 249 ج 5.

(182) ص 21 ج 20.

«كان حرب زمانه، حبست حرفة الأدب عليه براعته من رزقه، فحكمت بإقلاقه وحرمانه، فامتطى غارب الاغتراب، ووقف في البلاد على كل باب، فلم يستقر به النوى، حتى اتصل بالامير يحيى بن علي بن القاسم بسلا، فتقيأ ظلاله، وخط في رحابه رحاله...»

ومن أمداحه فيه قوله من قصيدة طويلة: (183)

نُورَانِ لَيْسَا يُحْجَبَانِ عَنِ الْوَرَى  
وَكِلَاهُمَا جُمْعًا لِيَحْيَى فَلْيَدْعُ  
فِي كُلِّ أَفْقٍ مِّنْ جَمِيلِ ثَنَائِهِ  
زِدْ فِي شَمَائِلِهِ وَزِدْ فِي جُودِهِ  
نَدْبٌ عَلَيْهِ مِنَ الْوَقَارِ سَكِينَةٌ  
مِثْلُ الْحُسَامِ إِذَا انْطَوَى فِي غَمْدِهِ  
أَرَبَى عَلَى الْبَحْرِ الْخِضَمِّ لِأَنَّهُ  
أَقْبَلْتُ مُرْتَادًا لِجُودِكَ إِنُّهُ  
وَرَأَيْتُ وَجْهَ النُّجُجِ عِنْدَكَ أَيْضًا  
تَجْرِي إِلَيْكَ بِنَا سَفَائِنُ أَتْلُمِ  
وَبَنَاتِ أَعْوَجَ قَدْ بَرَمْنَ بِصُحْبَتِي

ومن موشحاته فيه قوله: (184)

أَشْكُوا وَأَنْتَ تَعْلَمُ حَالِي أَلَيْسَ ذَا عَيْنِ الْمُحَالِ وَالْخُضْلَالِ  
لَا وَالَّذِي أَمْسَاتَ وَأَحْيَا  
مَا رَاقٍ نَاطِرِي غَيْرَ يَحْيَى  
بِشَيْمَةٍ لَهُ وَمَحْيَا  
فَلْيَهْنِهِ وَلْيَهْنِ الْمَعَالِي مَا حَازَ مِنْ عَظِيمِ جَمَالِ وَجْهِ الْخُضْلَالِ

(183) ابن خلكان، ص 249، ج 5.

(184) دار الطراز، ص 76.

ارتاب في الكريم العلي  
حسنتي أراك يا بن علي  
وقد حلت وسط الندى

كالبدر طالعا في كمال كالبخر زائرا في احتفال من نوال

وفي مدحه يقول الشاعر الوشاح المشهور، أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن أبي هريرة،  
المعروف بالأعمى التطيلي: (185)

صبرت والصبر شيمة العاني ولم أقل لمطيل هجراني أليس كفاني  
هل كان غيري يعتز بالذلة عشقته ينتمي إلى الحلة  
ملالة الناس عنده ملة لم يخصر الشعر وصفه كله  
في كل يوم أراه في شان أماتني هجره وأحياني بأشنب سقاني  
شهادتي أن أموت عليه لما جنى الورد ملء كفيه  
تشوفت وردتان إليه فحلنا في رياض خديه  
وأسكرته مدام أجفاني فمر بي صاحبا كنشوان في رترب غزلان  
هذا زمان الربيع يا حيي فأسقتني من يمينك العليا  
مدامة ملكتني الدنيا أما ترى الأرض ألبست وشيا  
والزهر في فضة وعقبان والماء يحكي أنسياب ثعبان في مذبذبستان  
يا كوكبا لاح من بني القاسم أهلا وسهلا بسعدك الدائم  
أما الأيادي فما أنا قائم بشكرها ناظرا ولا ناظم  
أنسيتني معشري وأوطاني وجدت محلي بكل هتان منسكبا أرواني

بِمِثْلِ مَا دَانَتْ أَلَمَهَا بِنَهَا    أَنْهَى رَسُولُ الْفَتَاةِ مَا أَنْهَى  
 وَقَدْ بَلَغَتْ حَفِيزَةَ مِنْهَا    فَأَصْبَحَ الشَّوْقُ مُتَشَدِّدًا عَنْهَا :  
 لَا بُدَّ نَحْضَرُ مِنْ حَيْثُ يِرَانِي    لَعَلَّهُ بِالسَّلَامِ يَبْدَانِي    حَبِيبُ يَكْفَانِي  
 وله فيه موشح، آخر يقول فيه : (186)

مَا لِلْفُؤَادِ مَالَهُ    لَمْ يَنْتِنِ هَوْلُ الصُّرُودِ  
 عَنْ رِشَاءِ أَحْوَرٍ    لَمَّا رَأَى ذُلَّ الْعَبِيدِ    تَاهَ وَاسْتَكْبَرُ  
 أَسَاءَ بِي صَنِيعًا    وَمَا عَرَفْتُ ذَنْبِي  
 وَلَمْ أَجِدْ شَفِيعًا    إِلَيْهِ غَيْرَ حُبِّي  
 يَاشَانِذَا قَرِيعًا    أَحْلَلْ كِنَاسَ قَلْبِي  
 فَإِنْ تَكُنْ مُطِيعًا    مُسْتَأْنَسًا بِقُرْبِي  
 فَالْمَوْتُ لَا مَحَالَهُ    يَغْذِبُ لِي عِنْدَ الْوُرُودِ  
 وَهُوَ بِي أَجْدَرُ    لَا سِيْمَا الْحَسُودُ    سَغِيَةً تَبْصِرُ  
 هَيْهَاتَ تَسْتَمَالُ    أَوْ يُعْتَدِي عَلَيْهَا  
 وَدُونَهَا نِصَالُ    مِنْ سِحْرِ مُقَلَّتِيهَا  
 وَقَدْ مَشَى الْجِمَالُ    حَتَّى انْتَهَى إِلَيْهَا  
 وَصَفَتْ الْحِجَالُ    مِنْهَا مَا لَدَيْهَا  
 وَنُمِتَ الْغِلَالُ    بِقَالِكَ مِنَ الذُّهُودِ  
 فَلَنْ يَسْتَقْبِرَ    إِذَا انْتَنَى غُصْنُ الْبُرُودِ    فِي نَقَا الْمُنْزِدِ  
 لِلَّهِ أَيُّ دُنْيَا    بِقُرْبِ مَنْ أَحْسَبُ  
 كَمِثْلِ عَهْدٍ يَحْيَى    وَلِلنُّوَالِ سُحُوبُ  
 يُسْفِي الْعُقَاةَ سَفْيَا    فَلَا يَخَافُ جَدْبُ



الْأُرُوعُ الْمُحَايَا يَلْقَاكَ مِنْهُ نَذْبُ  
 كَالطُّودِ فِي جَلَالِهِ كَالْبَحْرِ فِي إِشْرَافِ بُنُودِ  
 كَالْمَحْيَا مَنْظَرُ كَالرُّوضِ يُهْدِي مِنْ بَعِيدِ نَشْرَهُ الْأَعْطَرُ  
 يَا أَيُّهَا السُّرِيُّ مِنْ أَشْرَفِ الْقَضَاةِ  
 قَدْ حَالَكَ الْعَالِي بِالْجَالِمِ وَالْأَنْصَاةِ  
 فَكَمْ فَتَّ عَلَيَّ وَأَنْتَ فِي الْحَيَاةِ  
 فَجَدُّكَ الْعَشْرِيُّ مَقَاتِلُ الْعُدَاةِ  
 يُنْمَى إِلَى سُلَالَةِ قَدْ وَرِثُوا عَنِ الْجُدُودِ  
 شَرَفَ الْمَفْخَرِ هُمْ الدَّرَارِي فِي السُّعُودِ بَلْ هُمْ أَفْخَرُ  
 وَظَبِيَّةٌ تَهَابُ ضِرَاغِمَ الْعَرِيْنِ  
 وَحَوْلَهَا الشَّبَابُ وَالطَّيِّبُ فِي كَمِيْنِ  
 إِذَا دَعَتْ تُجَابُ مِنْ شِدَّةٍ وَلِيْنِ  
 فَقُلْتُ حِينَ غَابُوا عَنْهَا وَخَلْفُونِ  
 فَمُيِّكَ يَا غَزَالَةَ بِهَا دِمَا مِنَ الْأَسُودِ  
 كَيْفَ تَغْدُرُ إِذَا بَدَا فُخْرُ الْجَنُودِ وَخُدَّهُ أَسْمَرُ

ومن موشحاته في مدحه ومدح أخيه القاضي أبي العباس، هذا الموشح الذي جاء فيه ذكر شخص إسمه أبو بكر، كان خليفة لأبي العباس في النهي والأمر. ولعله كان نائباً عنه في خطبة القضاء التي كان موطوقاً بها، ولا نعرف عنه شيئاً، قال: (187)

أَدِرْ لَنَا أَكْسَابُ يُنْسَى بِهَا الْوَجْدُ وَاسْتَمَحِبِ الْجَلَّاسُ كَمَا قَضَى الْعَهْدُ  
 دِنْ بِالْهَوَى شَرْعًا مَا عِشْتَ يَا صَاحِ  
 وَنَزَّهُ السُّمْعَا عَنْ مَنْطِقِ اللَّاحِي  
 فَالْحَكْمُ أَنْ تَسْعَى إِلَيْكَ بِالرَّاحِ

أَنَامِلُ الْعُنَابِ وَنَقْلُكَ الْوَرْدَ حَقَّقْتَهُ بِصُدْغِي أَسْ يَلْوِي بِهِمَا الْخَدُ  
 لِلَّهِ أَيُّسَامُ دَارَتْ بِهَا الْخَمْرُ  
 وَصَلُّ وَالْمَسَامُ وَأَوْجُهُ زُفَرُ  
 وَالرَّوْضُ بَسَامُ وَقَدْ بَكَى الْقَطْرُ  
 وَنَحْنُ فِي أَحْبَابٍ قَدْ ضَمَمْنَا عِقْدُ فَيَا أَبَا الْعَبَّاسِ لَا خَاذَكَ السَّعْدُ  
 خَلِيفَةُ مِنْكَ فَيُنَا أَبُو بَكْسِرِ  
 نَابَ لَنَا عَنْكَ فِي النَّهْيِ وَالْأَمْرِ  
 لَمْ يَبْقَ لِي ضَنْكَا مِنْ نُوبِ الدَّهْرِ  
 فَأَنْتُمْ أَرْيَابُ مَا شَيْدَ الْمَجْدُ وَإِنْ بَلَوْنَا النَّاسَ فَهُمْ لَكُمْ ضِدُ  
 حَلَيْتِ الدُّنْيَا مِنْ بَعْدِ تَعْطِيلِ  
 وَجَاءَنَا يَحْيَى يَتَيْنُ الْبَهَائِلِ  
 أَغْرُ بِالْعَلْيَا مِنْ فَوْقِ تَحْجِيلِ  
 يَخْتَالُ فِي أَثْوَابٍ طَرَاظُهَا الْحَمْدُ وَأَفْرَطُ الْإِنْسَانُ فَمَا لَهُ خَدُ  
 بَيْنَا أَنَا شَارِبُ الْقَهْوَةِ الصَّرْفِ  
 وَيُتَنَّنَا تَائِبُ لَكِنْ عَلَى حَرْفِ  
 إِذْ قَالَ لِي صَاحِبُ مِنْ حَلْبَةِ الظَّرْفِ  
 نَدِيمُنَا قَدْ ثَابَ غَنَى لَهُ وَاشْدُ وَعَرِضُ عَلَيْهِ الْكَاسُ لَعَلَّ يَرْتَسِدُ

وقد وصفه في هذه الموشحات بالجود والكرم والأريحية وطيب النفس والشرف والمروءة  
 والسخاء، وأنه من بيت عز، ومنبت فضل، وأشرف القضاة، تحلى بالحلم والاناة، وجده عشرة  
 كان يقاتل العداة، وأنه ينتمي إلى سلالة عريقة في الفخر والسؤدد الموروثة عن الآباء  
 والجدود، ولعله يشير بذلك إلى أسلافه الأولين من آل المدبر.

هذا ما وقفنا عليه من أخباره وأثاره، وهي قليلة جداً. ولم نقف على تاريخ وفاته.

## أبو يعقوب يوسف بن علي ابن عشرة السلاوي

هو رابع الإخوة أبناء القاضي أبي الحسن علي ابن عشرة المتقدم الذكر.

ويظهر أنه كان سيدا في أسرته، معظما في عشيرته، كبقية إخوته. وقد مدحه كما مدح إخوته الشاعر الوشاح الأعمى التطيلي بموشحه الذي يقول فيه: (188)

كيف السبيلُ إلى صبري وفي المَعَالِمِ أَشْجَانُ  
والرُكْبُ وَسَطُ الْفَلَا بِالْخُرْدِ النُّوَاعِمِ قَدْ بَانُوا  
أقبلن يومَ الحِمَى في سُنْدُسِيَّاتِ الطَّلِ  
بيضُ مَطْلُ الدِّمَا سَوْدُ الْفُرُوعِ وَالْمَقْلِ  
فيا مُعْنَى بِمَا لَوْنَالِه نَالِ الْأَمَلِ  
دون نَوَاتِي الْحَلَى لِلسَّيْفِ بِالصُّوَارِمِ حِرْمَانُ  
أَبْغِ النُّجَاةَ وَلَا يَغْرُزْكَ بِالضُّرَاغِمِ غِرْلَانُ  
لم يَدْرِ شَيْئاً سِوَى تَعْذِيبِهِ لِصَبِّهِ  
وما شَكُوْتُ الْهَوَى إِلَيْهِ خَوْفَ عَقْبِهِ  
وَكُنْتُ قَبْلَ النَّوَى مُكْتَتِمًا لِحُبِّهِ  
فَعِزْدَمَا رَحَلَا فَاضَتْ بِدَمْعٍ سَاجِمُ أَجْفَانُ  
أَطْلَعَنْ مِنِّي عَلَى سِرِّي وَهَلْ لِلْهَائِمِ كِتْمَانُ  
أَهْدَى إِلَيَّ السُّرُورُ بَحْرُ يَفِخْضُ بِالْمِنْ  
إِنْ حَارِبْتَنِي الدُّهُورُ فَهُوَ حُسَامِي وَالْمِجَنُ  
فَقُلْ لِكُلِّ فَخُودٍ مِثْلُ أَبِي يَعْقُوبِ  
ذاك الذي كَمَلَا وفي جميعِ الْعَالَمِ نَقْصَانُ  
وطالَمَا عَدَلَا وَلِلزَّمَانِ الظَّالِمِ عُذُونُ

نَوَسُودِدِ لَا يُنَالُ لَوْ تَبِعْتَهُ الْأَنْجَمُ  
 إِذَا تَذَكَّرْتَ النَّزَالَ فَهُوَ الْجَرِيُّ الْمَقْدَامُ  
 وَإِنْ طَلَبْتَ النُّوَالَ فَهُوَ الْجَوَادُ الْمُتَعِمُ  
 تَالَهُ مُذْ بَدَلَا مَا قَامَ لِلْقَائِمِ مِيْزَانُ  
 اضْرِبْ بِهِ الْمَثَلَا فَإِنَّ جُودَ حَاتِمٍ بُهْتَانُ  
 وَمُزْمِعِ السُّفْرِ لَمْ يَرْضَ غَيْرِي مُسْتَشَارُ  
 فَقَالَ تَدْرِي سَفْرِي هُمْ عَلَى الْبَحْرِ بِحَارُ  
 فَقُلْتُ سِرُّ الْخَبْرِ عِنْدِي تَجِدُهُ بَاخْتِصَارُ  
 إِنْ جِئْتَ أَرْضَ سَلَا وَافَاكَ بِالْمَكَارِمِ فِثْيَانُ  
 هُمْ سُمُورُ وَيُوسُفُ بْنُ الْقَاسِمِ عُنُونُ

وهذا الموشح هو الذي اقتفاه ابن الصبَّاح الجذامي بموشحه في مدح أخيه القاضي  
 أبي العباس أحمد، وضمن فيه البيتين الأخيرين كما تقدم في ترجمته.  
 ولم نقف على تاريخ وفاته بالضبط، ولعله توفي قبل استيلاء عبد المؤمن على سلا.

## عبد الرحمان بن يوسف ابن عشرة السلاوي

هو ولد يوسف المتقدم، وكان رجلاً زاهداً يأوي إلى أهل الخير والصلاح ويلازمهم، ولا  
 نعلم عنه إلا ما ذكره في «التشوف» في ترجمة الشيخ أبي عبد الله محمد بن سالم الشلبي.  
 وأصل هذا الشيخ من شلب بحدوة الأندلس، وانتقل منها عقب قتل الثائر أحمد بن  
 الحسين، المعروف بابن قسي، سنة ست وأربعين وخمسائة (1151/546).  
 فنزل أولاً بمدينة سلا، ثم استقر بفاس إلى أن مات بها رحمه الله.  
 وعليه، فإن عبد الرحمان بن يوسف ابن عشرة، كان حياً موجوداً في التاريخ المذكور.

قال في «التشوف»: (189)

حدثني أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الرحمان الهواري قال :

وأصل أبو عبد الله بن سالم أربعين يوماً، قال : وحضرتُ معه أنا ووالدي، وعبد الرحمان بن يوسف ابن عشرة بموضع يعرف «بدار أم القاضي» على ساحل البحر، فأهويتُ بيدي على نبات من الأرض لاقطعه منها، فنهاني عنه، وسمعتَه يقول لأبي : لِمَ يقطعُه عبثاً من غير حاجة إليه ؟ فكم من حيوان يأكل منه، وكم من حيوان يستظل تحتَه، ثم أكلنا طعاماً، فلفُّ بقيته في منديل، فوصل إلى منزله وفتحَه، فوجد فيه جماعة من النمل، فقال : غرُبتُ هذا النمل عن مواضعها، فحملها حتى أعادها إلى المكان الذي كانت فيه.

**عبد الله بن يوسف**

**ابن عشرة السلاوي**

كان زاهدا فاضلا عارفا بالله تعالى، وهو أخو عبد الرحمان المتقدم.

وقد ذكره في «التشوف» في ترجمة أبي علي الشريشي البكائي، دفين الزاوية الدرقاوية السلاوية، قال : (190)

حدثني أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الرحمان الهواري، قال : كان أبو علي - يعني الشريشي - قد جال في البلاد المشرقية، وحجُّ نحو عشرين حجة، وقدم مراکش ثم خرج منها، فنزل على علي بن حمدون بمدينة سلا.

وحضر جنازة الزاهد الفاضل عبد الله بن يوسف بن علي ابن عشرة رحمه الله، وهو من أهل القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي).

والظاهر أن عبد الله بن يوسف هذا، هو صاحب الضريح والمسجد المنسوب إليه بحي باب حسين من سلا، إذ هو - كما يقال - من بني عشرة، وكذلك سيدي علي مليح، صاحب الضريح المتصل به، وسيدي قاسم غليظ، صاحب الضريح المشهور أيضا قبالة.

(189) ص 281، طبع الرباط

(190) ص 182، نفس الطبعة.

وأُسرة غليظ بسلا، تُنسب لبني عشرة. وقد انقرضت، أو أوشكت على الانقراض.

وتعرف هذه الأضرحة برجال الحفرة بسلا، ويناؤها وطرزها يوحي أنها من الأبنية القديمة التي بُنيت في العهد المريني شكلا ومنظرا وهيئة.

فالمسجد على طراز المساجد المرينية بسلا، كمسجد المريني، ومسجد الزرقاء، وغيرهما، وكان يعرف فيما مضى - كما في الحوالة الحبسية القديمة - بمسجد الحفرة، وعليه أحباس مُهمّة معلومة.

## عمر بن الحسن بن داود ابن عشرة السالوي

لا نعلم من خبره إلا ما ذكره في «التشوف» أيضا في ترجمة الشيخ الكبير أبي عمران موسى الدكالي، لما حكي قصّة دفنه، وتنازع أهل سلا فيه فقال: <sup>(191)</sup> حدثني عمر بن الحسن ابن داود ابن عشرة قال:

كنت فيمن حضر جنازة أبي عمران موسى، وأنا يومئذ شاب، وكانت لنا أرض مُحْبَسَة لدفن موتى المسلمين، فحفرتُ فيها قبرا، وأتيت إلى نعشه - وقد غلب الظلام - فسللت من فوق النعش واعتنقته، وحملته إلى القبر فدفنته، والناس يظنون أنه باق على النعش، فأعلمتهم أنني دفنته بالأرض الحبس، فأقاموا على قبره يسمّرون عليه بالليل، ويقراون القرآن بالنهار. فلما كملت سبع ليال، غلبهم السهر، فناموا فما انتبهوا إلا وقد نُقِلَ من ذلك القبر إلى قبر حَفَرْتُهُ له ملالة بنت زيادة الله في رابطة القوم، وعملت عليه قُبّة أنفقت عليها خمسمائة دينار... <sup>(192)</sup>

وهو من أهل القرن السادس الهجري، (الثاني عشر الميلادي)

ولا نعلم شيئا من أخبار والده الحسن، ولا جده داود، ولا كيفية ربط انتسابه بنسب باقي الأسرة.

(191) كتاب «التشوف»، ص 188، طبع الرباط.

(192) القُبّة التي على ضريح أبي عمران موسى الدكالي الآن، ليست هي القبة التي بنتها ملالة المذكورة في هذا الحديث، لأن السلطان المولى اسماعيل جدها وأعادها لما بنى قصبة العبيد قرب الضريح المذكور

## القاسم بن عبد العزيز ابن عشرة السلاوي

لا نعلم عنه إلا ما رواه عنه ابن الزيات في كتابه «التشوف» في ترجمة الشيخ أبي عمران موسى الدكالي أيضا قال: (193)

«حدثني محمد بن علي بن عبد الرحمان الهواري قال: حدثني القاسم بن عبد العزيز ابن عشرة قال: مررت بأبي عمران موسى وهو يأكل عسلوجا من عساليج الكلخ فناولني، فأكلته فوجدته طيبا...»

وهو كذلك من أهل القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)

وليست لدينا معلومات عن والده عبد العزيز ولا كيفية اتصال نسبه بنسب باقي الأسرة العشرية.

## أبو الحجاج يوسف بن علي ابن عشرة السلاوي

ترجمه ابن عبد الملك المراكشي في «الذيل و التكملة» وقال فيه: (194)

أبو الحجاج يوسف بن علي ابن عشرة، روى ببلنسية عن أبي عبد الله ابن المواق، ثم ذكره في ترجمة محمد بن يحيى بن أبي بكر بن خلف الشهير بابن المواق، وعده من جملة من أخذ عنه.

ولم نقف من أخباره على أكثر من هذا، ولا على تعيين تاريخ وفاته بالضبط.

وهو من أهل القرن السابع، لأن شيخه ابن المواق، توفي سنة اثنين وأربعين وستمائة (1244/642).

(193) ص 188.

(194) مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

## قاضي سلا أبو علي الحسن ابن عشرة السلاوي

أبو علي الحسن ابن عشرة، ترجمه ابن عبد الملك المراكشي في «الذيل والتكملة»، ولم نقف على ترجمته لفقدان حرف الحاء من النسخة المخطوطة التي بين أيدينا.

كان متولياً خطة القضاء بسلا سنة ثمان وخمسين وستمائة (1259/658) في أول عهد الدولة المرينية، ولعل المرينيين جبروا كسر الأسرة بولايته، لأن قضاء سلا كاد أن يكون مقصوراً على العشرين في عهد المرابطين، وزُحِزِحُوا عنه، وغض منهم في عهد الموحدين، فاستردوه بولايته في عهد بني مرين.

ويظهر أنه كان سيداً فاضلاً كريماً نبيلاً، جارياً على سنن أسلافه في الجود والكرم؛ فقد ذكر ابن رشيد في «رحلته»<sup>(195)</sup> أنه كان مألفاً للفضلاء عليه ينزلون، وبفنائهم يحطون، ومنهم القاضي أبو يحيى أبو بكر بن هشام القرطبي.

وذكره أبو العباس أحمد بن عذاري في «البيان المغرب» وقال: <sup>(196)</sup> إنه كان من جملة من أسره الأصبان من أعيان سلا لما دخلوها في الوقعة المعلومه، وفداه السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني في جملة من فداهم من الأسرى السلاويين، واستنقذهم من أيدي أعدائهم.

ولعله من حفدة القاضي أبي الحسن ابن عشرة الذي تقدمت ترجمته، المتوفي سنة اثنتين وخمسمائة (1108/502) إذ بينهما ما يزيد على مائة وخمسين سنة.

ولا ندري حلقات اتصال نسبه، ولا تاريخ وفاته بالضبط الآن رحمه الله تعالى.

ولعل أفراد بعض هذه الأسرة العشرية السلاوية انتقلوا من سلا إلى تونس لأسباب مجهولة عندنا واستقروا بها.

- منهم الرجل الذي لقيه ابن عرفة، وسأله عن سببه ونسبه، كما سيأتي في الفصل المعقود لما ذكره الفقهاء في أسطورة بني عشرة.

(195) مخطوط الاسكريال 2 41.

(196) ص 198 من ج 3، طبع الرباط



- ومنهم شخص آخر اسمه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم السلاوي، يُمْتُ إليهم بصلة نسب، أعرف أنه ذكره ابن رُشَيْد في «رحلته»، وأنه اجتمع به في تونس، ولم تحضرني ترجمته الآن.

وعلى كل حال، فإن هذه الأسرة التي يُنسب إليها عُمَران سلا، لم تزل مقصد القاصدين وملجأ اللّاجئين، وملأذ اللّائذين بهذه المدينة، منذ نزل بها جدهم عشرة، في زمن اليفرانيين، مسموعة الكلمة، متبوعة العقب، معظمة الجانب، مفرعة الرأس، مرموقة بعين الإجلال والاعتبار بالمغرب والأندلس، في عهد المرابطين، وابتداء دولة الموحدين، وحتى في دولة بني مرين زهاء ثلاثة قرون من السنين.

وقد ذكر القاضي عياض في «البغية» (197) «أن العلامة أبا محمد عبد الله بن أحمد بن خلوفاً الأزدي، المعروف بابن شبونة، نزل ببني عَشْرَة بسلا سنة فأكرموه وتوسعوا له، ودرس عندهم، ثم انتقل إلى أغمات. وكان أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين يعرف حقه ويكرمه...»

ولمّا فاخر لسان الدين ابن الخطيب بين سلا ومالقة، وقابل بين قلة أعيان الأولى ووفرة الثانية قال:

«وسلا المسكينة، لا تعرف لعشرتها، إلا أبناء عَشْرَتها». وفي ذلك دليل على وجودهم بارزين فيها، معدودين من أعيانها في وقته، لمّا كان ثاويها أوائل النصف الثاني من القرن الثامن الهجري.

والعشرة، بالكسر، اسم من المعاشرة والتعاشر، وهي المخالطة.

وعليه، فإن عَشْرَتها في الفقرة الأولى، (يكسر العين وسكون الشين)، اسم من المعاشرة والتعاشر، وعَشْرَتها في الفقرة الثانية (بفتح العين وسكون الشين ايضاً)، يعني بها بني عشرة، وفيها الجنس اللفظي التام، وهو اتفاق الكلمتين في أنواع الحروف وعددها وهيئتها وترتيبها، ولا يكون الاختلاف إلا بالحركة لا غير، كقول الشاعر:

فَقُلْتُ لِلْإِنَّمِي أَقْصِرْ فَاِئْنِي سَأَخْتَارُ الْمَقَامَ عَلَى الْمَقَامِ

فالأول بفتح الميم والثاني بضمها...

وبعد هذا الظهور والشهرة والذكر الشائع الدائع، اختفت هذه الأسرة من ميدان التاريخ وعالم الظهور، وتقلص ظلها، وخفت صوتها، وإن بقي أفراد منها يعيشون عيشة الخمول كعمامة الناس، مندمجين في غمارهم، يُعرفون في سلا على ما يقال بأولاد غليظ، وقد انقرضت أسرة غليظ أو أشرفت على الانقراض، ولم يبق منها في علمنا إلا شخص واحد، وبذلك أسدل الدهر عليها ستار الغموض والنسيان، فلم نر لها، منذ ذلك العهد، في سجل من سجلات التاريخ ذكرا، ولم نقرأ عنها في صحف الأيام سطرا، فذهب أعيانها وعيونها في الذاهبين الأولين، واتبعنا بعضهم بعضا، وجعلناهم أحاديث ومثلا للآخرين، والبقاء والدوام صفة رب العالمين، والله يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين :

وَأَنْمَسَا الْمَرْءُ حَدِيثٌ بَعْدَهُ فَكُنْ حَدِيثًا حَسَنًا لِمَنْ وَعَى

ورحم الله ابن الخطيب اذ يقول :

يَمُضِي الزَّمَانُ وَكُلُّ فَنٍّ ذَاهِبٌ      إِلَّا جَمِيلُ الذِّكْرِ فَهُوَ بَاقِي  
لَمْ يَبْقَ مِنْ إِيوَانِ كِسْرَى بَعْدَ ذَا      كَ الْحَقْلِ إِلَّا الذِّكْرُ فِي الْأَوْرَاقِ  
هَلْ كَانَ لِلْسُّفَاحِ وَالْمَنْصُورِ وَالْـ      مَهْدِيٍّ مِنْ ذِكْرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ  
أَوْ لِلرَّشِيدِ وَلِلْأَمِينِ وَصِنُوهِ      لَوْ لَا شَبَابَةٌ يَرَاعَةُ السُّورَاقِ  
رَجَعَ التُّرَابُ إِلَى التُّرَابِ بِمَا اقْتَضَتْ      فِي كُلِّ خَلْقٍ حِكْمَةُ الْخَالِقِ  
إِلَّا الثَّنَاءُ الْخَالِدُ الْعَطِرُ الَّذِي      يَهْدِي حَدِيثَ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ

وحيث علمنا مما تقدم، أصل هذه الأسرة العريقة في القدم، ومن أين جاءت، وما بلغته من الرفعة والظهور، فيما سلف من الأزمنة الغابرة والدهور، بهذه المدينة السلاوية، فلا بأس أن نختم دراستنا هذه، بما ذكره الفقهاء فيها، وما زعموه من أنهم ولدوا عشرة في بطن واحد، ولذلك سُمُوا «ببني عشرة» تتميما للفائدة واستيفاء للموضوع : وإن كانت القولة في ذاتها أسطورة منقولة مقولة، فنقول .

## المبحث العاشر

### ما ذكره الفقهاء في بني عشرة وأنهم ولدوا في بطن واحد

ذكر العلامة الرهوني في «حاشيته» على شرح العلامة الزرقاني «لمختصر» الشيخ خليل، والعلامة ابو عبد الله محمد بن المدني جنُّون في «حاشيته» ايضا<sup>(198)</sup> عند قول المصنف : وَوُقِفَ الْقِسْمُ الْحَمْلُ، يعني قسم التركة، نقلا عن الإمام ابن عرفة، رحمه الله، وتبعهم على ذلك جماعة من الشُّراح والمحشِّين على فرائض «المختصر»، «وتحفة» ابن عاصم، يُقَلَّدُ بعضهم بعضا، كل منهم يقول :

«سمعتُ من غير واحد ممَّن يوثقُ به، أن بني عشرة الذين بنى والدهم مدينة سلا بأرض المغرب كان سبب بنائه لها، أنه وَلِدَ له عشرة ذكور من حمل واحد من امرأة له، فجعلهم في مائدة، ورفعهم الى أمير المومنين يعقوب المنصور الموحدي، فأعطى كل واحد منهم ألف دينار، وأقطع أباهم أرضاً بوادي سلا، فبنى بها مدينة تعرف الآن بمدينة بني عشرة، وبنى يعقوب المنصور الموحدي مدينة تسامتها، يفصل بينهما الوادي.

ثم قال : رأيت في هذا الوقت رجلا يعرف بابن عشرة، فسألته عن نسبه وسببه، فذكر لي مثل ماذكرته.»

ونقله ابن مرزوق وسلَّمه، واعترضه ابن غازي بقوله : «كأنه لم يقف على ما في رسم الحبس من قسم الغرباء من «تكلمة» ابن عبد الملك، اذ قال :

يقول بعض الأغمار، إن سبب هذه الشهرة أنهم كانوا إخوة توائم، فسئل عن ذلك أحد أعقابهم فقال : جعلوا أُمناً خنزيرة تُلدُ عشرة، حسيبهم الله.»

وهنا تصحيف فاحش يجب التنبيه عليه، وهو أن كتاب «الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة»، وهو كتاب تراجم للأعيان والاعلام، مرتب على حروف المعجم، لا كتاب فقه وأحكام، وضعه مؤلفه ذيلًا وتكملة لكتابي «الموصول» في تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي، المتوفى سنة ثلاث وأربعمئة (1012/403)، وكتاب «الصلة» في أخبار أئمة الأندلس لابن بشكوال المتوفى سنة ثمان وسبعين وخمسائة (1183/578)، ومن اصطلاحاته التي درج عليها في تصنيفه أنه يُعَبَّرُ عن ترجمة من ترجم لهم من الاعلام بقوله : رسم فلان، يعني تمثيله وتصويره، أو ذكر ما بقي من أثره، ومنها أنه يخصص قسما في كل حرف من حروف الهجاء التي رتب عليها كتابه للغرباء، يعني الذين ليسوا من أهل الأندلس، ولذلك قال في مستهل ترجمة ابي الحسن على ابن عشرة : وقد تقدم بيان هذه الشهرة في رسم ابي علي الحسن منهم، يعني في ترجمته.

وعليه، فليس المقصود بالرسم وثيقة حبس على الغرباء، وإنما تصحفت لفظه رسم على الناسخ والناقل الأول، ولم يفهم معناها الاصطلاحي الذي درج عليه المؤلف، وظنّها رسم وثيقة، وظن أن لفظ الحسن تصحّف عن لفظ الحبس، ورأى لفظة الغرباء، فظن أن الحبس على الغرباء، أو تصحفت عليه لفظة حسن بلفظة حبس لتشابه حروفهما خطأ، وأضاف لها لفظة الغرباء وظن أن الحبس على الغرباء، وليس تم حبس ولا غرباء. ونقله من أتى بعده من النقلة من غير تثبت ولا فحص ولا مراجعة للنصوص، وسرى ذلك التصحيف أو التحريف إلى الشارحين المحشّين يَقلّد بعضهم بعضا. والتصحيف أسرع سيرا من الكهرياء في الأجسام الموصلة، وإلا فليس في «ذيل وتكملة» ابن عبد الملك في رسم حسن ابن عشرة كلام على حبس الغرباء، وإنما فيها الكلام على الأسطورة التي يقولها بعض الأغمار على حدّ تعبيره، وهي أنهم إخوة توائم ولِدوا في بطن واحد، حتى تبرأ أحد أعقابهم من ذلك قائلا :

«جعلوا أُمناً خنزيرة تلد عشرة، حسيبهم الله.»

ويؤخذ من ذلك أن الناقل الأول، وقف على حرف الحاء المفقود من الكتاب الآن، ونقل منه، كما يؤخذ أيضاً أن هذه الأسطورة كانت رائجة شائعة متداولة في عهد ابن عبد الملك في القرن السابع الهجري (الرابع عشر الميلادي).

وقد تكلم المحشّون في صراحة هذا النفي وثبوتة وإبهامه وعدمه، بما يُعلم من الوقوف عليه في محله، وزادوا في تعزيد وقوع هذه القصة، بما نقلوه عن الذهبي في «تاريخ الإسلام»، وهو :

أن البريد أتى من اليمن في سنة ثمانين وستمائة (1281/680) مخبراً بأن امرأة من اليمن ولدت عشرة أولاد في بطن واحد فسموهم «بنو العشرة»، بل وقع ما هو أغرب منه، وهو ما نقله الحافظ السخاوي عن «تاريخ بخاري» لغنّجار من حديث محمد بن الهيثم بن خالد البجلي، الحافظ قال : كان ببغداد قائد من قواد المتوكّل، وكانت امرأته تلد البنات، فحملت مرة، فحَلَفَ إن ولدت هذه المرة بنتاً لَيَقْتُلَنَّهَا بالسيف، فلماً قربت ولادتها، وجلست المقابلة أمامها، أَلْقَتْ مثل الجريب، وهو يضطرب، فشقوقه، فخرج منه أربعون ابناً وعاشوا كلهم ؛ قال محمد بن الهيثم : وأنا رأيتهم ببغداد ركبانا خَلَفَ أبيهم، وكان اشترى لكل واحد منهم ظهراً.

وفي «تاريخ الإسلام» للذهبي أيضاً : أن امرأة ولدت ببغداد في أيام المامون شيئنا كالجراب، فتحرك، ولماً فتحته القابلة، وجدت فيه اربعين ولداً كالأصابع، وكلهم ذكور، فرفع خبرها الى المامون، فأمر أن يجعل لها مراضع، وعزلها في دار، وأجرى عليهم النفقة الى ان ادركوا كلهم، وجعلهم في جملة جنوده، وزوجهم، واعطاهم النور للسكنى بمحل واحد، وكانوا يسمونهم : «بنو الأربعين».

وفي «تاريخ الاسلام» أيضاً في حوادث سنة ست وسبعين وستمائة (1277 / 676) أن امرأة ببغداد ولدت اربعة نفوس في بطن واحد فطلبهم الخليفة حتى رءاهم وتعجب منهم، وأمر لأُمهم بستمائة دينار.

ونقل هذه القصة الشيخ ابو عبد الله محمد بنيس في «شرح» لفرائض «مختصر» الشيخ خليل، وعلّق عليها مُحَسِّبُهِ، العلامة ابو محمد عبد الله ابن خضراء السلوي<sup>(199)</sup> بأن سلا من الأمصار القديمة وكلام الشارح محمول على قطعة من ارضها. ونقل نص ابن خلدون المفيد أن قصر بني عشرة كان موجوداً زمن عبد المومن، ونص «نفع الطيب»، وأبيات الوزير ابن الحمارة في هذا القصر، كما تقدم في محله.

قلت : ومن هذا القبيل ما وقفت عليه في كتاب «أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر للحافظ السلفي»<sup>(200)</sup> رايماً ذلك عن أبي محمد عبد الله بن تويت ابن الوران اللمتوني، وكان رجلاً صالحاً من أمراء المرابطين قدم المشرق حاجاً وطالبا للعلم، فحضر عنده وقرأ عليه، قال بعدما ذكر نواذر من شواذ المخلوقات الآدمية :

(199) ص 228، طبع قاس.

(200) ص 59، طبع بيروت.

وقد رايت بفحص الأندلس (إشبيلية) امرأة ولدت أول ولادتها ولدا، ثم في المرة الثانية ولدين، وفي الثالثة ثلاثة، وفي الرابعة أربعة، وفي الخامسة خمسة، وفي السادسة ستة، وفي السابعة سبعة، في بطن واحد. وأُيسِتُ من روحها، وأشرفت على الهلاك. ثم امتنعت عن زوجها، وأبت أن تطاوعه، واشتهر أمرها عند الناس بأقطار الأندلس.

و الذي يظهر لنا في هذه القصة - قصة بني عشرة السلاويين - أنها موضوعة، أو خرافة مصنوعة، والدليل على وضعها أو صنعها ليس استحالة ولادة عشرة في بطن واحد، وإنما هو أنهم يقولون إن والد هؤلاء العشرة حملهم في مائدة إلى يعقوب المنصور الموحيدي... ما جاء في القصة، مع أن الثابت تاريخيا هو أن بني عشرة كانوا بسلا وأسسوا دورهم حول الجامع كما تقدم نقلا عن «الاستبصار»<sup>(201)</sup> ومصروها و عمروها، وعندهم نزل المهدي بن تومرت واضع أسس دولة الموحدين، وعبد المومن بعده نزل بقصرهم، ويعقوب المنصور إذ ذاك لزال في عالم الذر، ولم يكن شيئا مذكورا، والدولة الموحدية لازالت لم تبرز لعالم الوجود، والزمن الذي عينه المؤرخون لنزول عشرة جد الأسرة بأرض سلا، هو الربع الأخير من القرن الرابع الهجري الموافق لأواخر القرن العاشر الميلادي، وبينه وبين يعقوب المنصور الموحيدي ما يزيد على قرنين من الزمن.

وهذا دليل قاطع على بطلان هذه الأسطورة.

و الحقيقة أنهم سُمُوا «بني العشرة» لأن جدهم كان يسمى عشرة، فنُسِبوا إليه، وما زال الناس يُسمُون بالأعداد قديما وحديثا، خصوصا بالأندلس كما تقدم تحريره في فصل سبب تسميتهم ببني عشرة.

أما ولادة أربعة، وخمسة، وستة، وسبعة، فما فوق إلى عشرة في بطن واحد، فليس بغريب، وقد يقع ويتحدث الناس به في كل زمان ومكان. ولكن، ولادة أربعين لم نسمع بها حتى الآن، إلا فيما نقله الفقهاء، كما تقدم عن «تاريخ الإسلام» للذهبي ؟

ومن هذا القبيل، ما نقلته الجرائد المحلية والخارجية أثناء اشتغالنا بتحرير هذا الموضوع.

- وهو أن امرأة فرنسية ولدت بإحدى مصحات باريس خمسة أولاد في بطن واحد، بعد أن كانت تتناول علاجا من الهرمونات للتغلب على العقم.

- وأخرى بمدينة بنجارات «Punjarat» على بعد أربع وأربعين كيلو ميترًا شمال شرق دাকা «Dacca» بالباكستان، ولدت تسعة أولاد، في بطن واحد، والتعسة في حكم العشرة، ووالدهم ووالدتهم لا يتجاوز سنهما ثلاثًا وعشرين سنة.

وقالت الجريدة الناقلة لهذا الخبر، إنه حدث غير طبيعي، ناشيء عن الأدوية التي يتعاطاها بعض النساء لأجل الولادة، كما يتعاطين أدوية أخرى لأجل العقم وتحديد النسل.

وبعد تسجيلنا لما ذكر أعلاه، صارت الصحف تعلن من حين لآخر، ولادة الثمانية والتسعة في بطن واحد.

ثم أعلنت الصحف أخيرا أن امرأة إيطالية بروما كانت حاملا من أربعة أشهر، وأجريت لها عملية جراحية مستعجلة، فوجد في رحمها خمسة عشر جنينا، عشرة ذكور وخمس بنات، وهو ما ألحقناه في الصحف المضافة لهذه الصحيفة.

والملاحظ هو أن هؤلاء التوائم لا تقدّر لهم حياة ويموتون إثر ولادتهم.

ونحن نقول : إن قدرة الله صالحة لكل شيء، ولا يعجزه سبحانه وتعالى شيء، وإنما نريد أن نثبت الحقائق التاريخية، وما خالف العادة الطبيعية البشرية، والله سبحانه وتعالى في خلقه شؤون، وهو الخالق الباريء المصور القادر على كل شيء، ولا يعجزه شيء، ويفعل ما يريد، يهب لمن يشاء الذكور، ويهب لمن يشاء إناثا أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما، وله الخلق والأمر، والله أعلم.





## الفصل الثاني

عن سلا والقصبة وأثارهما  
في عهد المرابطين



## مبحث فريد

### المرابطون بالعدوتين

#### \* الضفة اليمنى

لَمَّا أَدَالَ اللهُ الدَّوْلَةَ لِلْمَرَابِطِيِّينَ، كَانَتْ سَلَا فِي عَهْدِهِمْ صَارَتْ مَدِينَةً عَامِرَةً مُسْتَكْمَلَةً شُرُوطَ التَّمْدِينِ وَالْعِمْرَانِ بِمَا أَحْدَثَهُ فِيهَا بَنُو يَفْرَنْ وَيَنُو الْعَشْرَةَ - السَّابِقِ ذَكَرَهُمْ - مِنَ الْأَحْيَاءِ، وَالْقُصُورِ، وَالدُّورِ، وَالْمَنَازِلِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تَسْتَدْعِيهِ الْعِمَارَةُ مِنْ مُخْتَلَفِ الْبَنِيَانِ، كَالْمَسَاجِدِ، وَالْأَرْحَاءِ، وَالْأَقْرَانِ، فَاهْتَمُّوا بِهَا لِمَوْقِعِهَا الْجُغْرَافِيِّ مِنَ الْمَمْلَكَةِ.

وَأُسَّسُوا عِمَالَتَهَا الْوَاسِعَةَ النَّطَاقِ، مِنَ الْمَحِيطِ الْأَطْلَانِطِيِّيِّ إِلَى بَحْرِ الزَّقَاقِ، يَعْنِي مَسَافَةً نَحْوَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ.

وَكَانَتْ مِنْهَا تَصْدُرُ الْأَوَامِرُ، وَفِيهَا تَجْتَمِعُ الْجِيُوشُ الْمُتَنَقِّلَةُ بَيْنَ شِمَالِ الْمَغْرِبِ وَجَنُوبِهِ، وَالْعَابِرَةُ إِلَى الْأَنْدَلُسِ، مَعَ اتِّصَافِهَا بِالصَّبْغَةِ الدِّينِيَّةِ، وَالسُّمْعَةِ الْجِهَادِيَّةِ، فِي الْفَنَةِ الضَّالَّةِ الْبَرْغَوَاطِيَّةِ.

وَالِىَ ذَلِكَ يَشِيرُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الدِّكَالِيُّ السَّلَاوِيُّ فِي أَرْجُوزَتِهِ الْمُسَمَّاةِ «إِتْحَافِ أَشْرَافِ الْمَلَا، بِيَعُضِ أَخْبَارِ الْعِدَوَتَيْنِ : الرِّبَاطِ وَسَلَا» : (202).

وَلَايَةَ الْغَرْبِ بِعِزِّهِ الْمَتِينِ	ثُمَّ أَدَالَ اللهُ لِلْمَرَابِطِيِّينَ
ذَا السَّبْعَةِ الْأَيَّامِ عِ سَطُورَا	فَأَسَّسُوا عَمَلَهَا الْمَذْكُورَا
وَالدِّينِ فِي الظِّلِّ الْوَرِيفِ رَاتِعَا	فَلَمْ تَزَلْ قُطْرًا عَظِيمًا وَاسِعًا

وفي أيام المرابطين، كان يتردد عليها أعيان الأندلس والمغرب الأوسط، واشتهر بها بنو عشرة، كما تقدم في أخبارهم بما هو أوعب وأبسط.

وخلف بها المرابطون آثارا تذكر، كالأسوار والحصون والمساجد، إلا أنها عفا عليها الدهر، وطمست معالمها الأيام.

## جامع الشهباء

ومن آثارهم الباقية بها جامع الشهباء. أُسس في عهد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، لما امتدت العمارة إلى ناحيته، وضاق المسجد القديم بحي الطالعة حول دور بني العشرة وقصورهم عن المصلين.

قالوا: وسُمِّي بِجَامِعِ الشَّهْبَاءِ لكون امرأة شهباء، أو تسمى الشهباء كانت به تعلّم النساء الضروري من أمور الدين.

والرَّاجِحُ أنه سُمِّي بهذا الاسم لأن سقوفه كانت محمولة على أعمدة من الرخام الأصفر والأشهب، نقلت إليه من خرائب شالة، وكان بعضها ما زال موجودا إلى زمننا هذا، قبل إعادة بنائه. ولم يكن في بنائه الأول ضخامة ولا فخامة ولا فن ولا زخرفة، ممّا يدلُّ على أنه بُنيَ بسرعة للضرورة الداعية إليه في ذلك العهد بتلك الناحية من المدينة، لمّا تناسق عمرانها، وكثر الازدحام بها، وهو - وإن كان من المساجد القديمة بسلا - فليس بالعتيق على التحقيق، لأن مسجد حي الطالعة كان موجودا قبله من عهد بني يَفْرَن، وحوله نزل بنو العشرة كما تقدّم.

وقد كان تخرب وصار أطلالا بالية، وبقي مهجورا مُعطّلا دهرا طويلا، إلى زمن السلطان المولى يوسف، رحمه الله، فأصلح ورُمّم ما تلاشى من سقوفه وحيطانه، ولم يغير شيء من هيكله وهيئته، وأحدثت فيه خطبة الجمعة، وهل كانت فيه قبل ذلك ؟ لا ندري، وليس لدينا الآن نص صريح نعتمد عليه في الإثبات أو النفي. والظاهر أنه لما تخرب المسجد الأول بحي الطالعة، نُقِلَتْ إليه الخطبة مؤقتا، حتى أعاد أبو يوسف يعقوب المنصور بناءه، وأدمج فيه المسجد الأول، فعادت الخطبة إليه.

ولذلك لمّا رُمّم وأصلح ما تلاشى من حيطانه، وأراد بعض أهل سلا إحداث الخطبة به، اختلفوا فيها، فكتبوا سؤالا لأهل العلم يستفتونهم في ذلك، فأفتاهم جماعة من الأعلام، مبينين لهم حكم الشرع في تعدد الجمعة في الأمصار، الكبيرة والصغيرة.

وقد رأينا أن تثبت هذا السؤال والجواب عنه هنا لارتباطه بالموضوع، واتصاله به اتصالاً محكماً خشية ضياعه.

## فتوى أهل العلم في حكم إحداث الخطبة بجامع الشهباء

السؤال :

الحمد لله، والصلاة والسلام على مولانا رسول الله، وكل من اهتدى بهداه.

سادتنا العلماء الاعلام، أئمة الهدى ومصابيح الظلام .

جوابكم الشافي، ونصحكم المُنْعِ الكافي عن مصر صغير، تُقام فيه جمعتان : إحداهما بمسجد قديم أسس بنيانه صدر المائة الخامسة ولم تزل الجمعة قائمة فيه منذ بُني الى زمننا هذا. (203)

وقد كان جُدد بنيانه في المائة السادسة، لانهدام وقع فيه، وهو مسجد كبير جدا بحيث يسع اهل مصر وغيرهم كما هو معلوم (204).

والاخرى بمسجد اخر محدث بعده بكثير. (205) ثم إن ناظر الوقف أراد إحداث جمعة ثالثة من غير حاجة داعية لذلك ولا ضرورة، (206) فهل أيها السادة الأجلة يجوز إحداث ما ذكر لغير حاجة ولا ضرورة، وتصح فيه الجمعة أم لا يجوز ولا تصح فيه ؟ أجيئوا جوابا شافيا ولكم الأجر والثواب من الملك الوهاب.

الجواب :

الحمد لله رب العالمين، وعليه اعتمد، وبه أستعين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وعلى من انتهج نهجهم، وطرق طريقهم من التابعين، الى يوم الدين.

(203) المراد به المسجد الذي بنى بنو العشرة دورهم حوله.

(204) المراد به المسجد الأعظم الموجود الآن.

(205) المراد به مسجد الشيخ سيدي أحمد حجي.

(206) المراد به جامع الشهباء.

أما بعد، فالجواب بتوفيق الله ومعونته عن السؤال أعلاه، أن إقامة الجمعة في أكثر من مسجد واحد من غير ضرورة داعية الى التعدد ممّا أجمع على منعه الأئمة الاربعة الذين استقرّ أجماع المسلمين على تقليدهم : مالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وأبو حنيفة.

بل منْعُ التعدد حينئذ لم يخالف فيه من أئمة المذاهب كلها، ولو غير الاربعة، الا داود الظاهري، وعطاء، ومحمد بن الحسن في احد قَوْلَيْهِ، كما حكى ذلك أصحاب خلاف الأئمة واتفاقهم، كالحفيد في البداية، والشعراني في الميزان، وفي خصوص نصوص أئمة مذهبنا قال ابن الحاجب : «وفي تعددها بالمصر الكبير، ثالثها إن كان ذا نهر أو معناه مما فيه مشقة.»

ومثله لابن جزى في «قوانينه»، ونصه : «وفي صلاة الجمعة في مسجدين في مصر واحد ثلاثة أقوال، يُفَرَّقُ في الثالث بين أن يكون بينهما نهر من ماء وما في معناه أم لا، وإذا قلنا بالمنع صحّت جمعة الجامع الاقدم». وقال الشافعي : «من جمع أولا صحّت صلاته». قال ابن عبد السلام : «والتوضيح المشهور المنع برعاية لفعل الأولين وطلبها لجمع الكلمة، والجواز ليحيى بن عمر، والتفصيل لابن القصّار». وما نسباه ليحيى بن عمر من الجواز، ليس على إطلاقه، بدليل كلام ابن عرفة، ونصه :

و لا تقام بموضعي مصر، ابن عبد الحكم ويحيى بن عمر، ان عظم كمصر فلا بأس بها بمسجدين، ابن القصّار إذا كانت ذات جانبين كبغداد، اللخمي، إن كثروا وبعُدَ من يصلي بأفنيته، فأنت ترى مذهبنا انحصر في ثلاثة أقوال :

- الأول : المنع، ولو في المصر الكبير جدا كمصر، وبغداد، وهو المشهور كما رأيت لابن عبد السلام، وتبعه خليل في التوضيح، ولذا اقتصر عليه في المختصر، الذي هو مبين لما به الفتوى بقوله : بجامع متحد.

- الثاني : إذا عظم البلد كمصر و بغداد، جاز تعددها بمسجدين، وإلا فلا. وظاهر هذا القول، أنه لا يجعل ثالثاً أصلاً، وهو الذي صرح به القاضي عبد الوهاب في المعونة ونقله في المعيار جازماً به، قائلاً : لم أر جواز أكثر من اثنين ولو للضرورة، إلا لابن بشير في تنبيهه. وصرّح العلامة سيدي الطالاب بن الحاج بأنّ جواز الثالث فمّا فوق إنما هو قول خارج المذهب.

- الثالث : إن كان المصر الكبير ذا نهر أو نحوه من حاجز يعسر معه الذهاب للمسجد جاز التعدد في مسجدين، وإلا لم يجز إلا في المصر الكبير، فان قلت :

إذا مشينا على القول من عدم التعدد، وكان المسجد الواحد لا يكفي أهل البلد أو على القول الثاني، الذي هو جواز جعل جُمُعَتَيْن فقط في المصر الكبير جدا، وكان الإثنان لا يكفيان أهله، أو على الثالث وهو أنه إذا كان هناك فاصل تحصل معه المشقة جاز التعدد في مسجدين فقط ولأفلا، وكان الواحد لا يكفي أهل كل جهة من جهتي البلد، فلا محيد حينئذ عن التعدد على قدر الحاجة من غير تقييد بالواحد ولا بالاثنتين، وإلا لَزِمَ أن لا يصلي الجمعة جميع من تَلَزَمَهُ، قلت :

إن بَنَيْنَا على المشهور وَجَبَ توسيع المسجد بما حوله من ربايع الأحياس أو ملك الناس، ويُجْبَرُونَ على بيعها بالقيمة، إذ هذا مما يُجْبَرُ فيه المالك على بيع ملكه، وإن بَنَيْنَا على القول الثاني، وجب توسيع المسجدين كذلك، على ما جزم به صاحب المعيار من عدم جواز الثالثة فما فوقها، وانتصر له، وردُّ على من خالف فيه بعد أسئلة وأجوبة على منع ما زاد على اثنتين ولو للحاجة، أخذنا من كلام القاضي عبد الوهاب، وهو ظاهر كلام ابن جُزَي في «القوانين»، وقد قَدِّمْتُ لك نصه، وكذلك يقال إذا ضاق مسجد كل جانب عن أهله، وأما على ما أفتى به الإمام سيدي محمد السنوسي في نوازل الجمعة من المعيار، من أنه لا بأس بإقامة الجمعة بثالث، وما زاد عليه على حسب الحاجة والضرورة فلا اشكال.

وبعد تبييض هذا، وجدتُ في المعيار من جواب لصاحبه، فإن قلت :

إذا وقع التفريع والبناء على المشهور من منع تعدد الجمعة في المصر الكبير، فما الحكم إذا ضاق المسجد الجامع ورحابه عن حمل أهله، قلت : الحكم في ذلك وجوب الزيادة في الجامع حتى يحمل أهله، فإن كان ما حوَالِيهِ من الرُّبُع والعقار مملوكا جبر أربابه على بيعه بالقيمة، رشيداً كان مالكة أو سفيهاً. المراد منه، فالحمد لله على الوفاق، ولا يخفى أن البناء على القول الثاني والثالث يجري فيه هذا كما ذكرناه.

وفي جواب لصالح المعيار عن السؤال محصله : هل تصح الجمعة بجامع القرويين على وجه مشهور أو راجح في المذهب المالكي، ما نصُّ المراد منه : مقتضى النصوص المذهبية، المنع من تعدد الجمعة في المصر الواحد مع السعة والاختيار، وانتفاء الضرورة والاعذار.

وممن نصَّ على ذلك من شيوخ المذهب المالكي : اللُّخْمِي والمازري وابن الجلاب، وعبد الوهاب، وابن بشير، وغيرهم ممن لا يُحصى كثرة، ثم ذكر نصوصهم، ثم قال : فإذا تقرَّر المنع من تعدد الجمعة في الموضوع الواحد مع الاختيار، هل يجوز أن نَدْعُو الضرورة إليه أم لا.

ثم اذا وقع ذلك ونزل، نقول : تصح الصلاة بعد الوقوع والنزول، على ما مشى عليه صاحب المعيار من ان تقليد قول ولو خارج المذهب يرفع الخلاف، وليت شعري اي محوج لنا الى تضيق الحكم في هذه العبادة العظيمة التي امر الشرع فيها بالاجتماع، وعدم الافتراق، فما هو الا الجهل او العناد، فلو رددوه الى الرسول والى اولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم، وفي الحديث، لا يؤمن احدكم حتى يكون هواه تابعا لما جئت به، وقد قال الشيخ خليل في مختصره المبين لما به الفتوى : بجامع مُتَّحد، والجمعة للعتيق، فقوله والجمعة للعتيق، هو حكم لمفهوم قوله متحد بمعنى انه اذا خولف حكم الاتحاد، وعُدَّت الجمعة، فانما صحة الجمعة للعتيق، لا لغيره، وهو فقه مسلم عند الشراح والحواشي، ومن راجع كلام صاحب المعيار في جوابه المشار اليه، تروى من زُلاله، وعرف الحق برجاله، وناهيك به، فقد قال فيه الامام ابن غازي : انه جبل من علم يمشي على وجه الارض.

وقد ذكر محصل جوابه في تقييده الذي اعاده في المسئلة، وسمّاه : "تنبيه الغبي النُّدس، على خطا من سوى بين جامع القرويين والاندلس" بقوله : وكان حاصل جوابي من ذلك، أن مشهور الاقوال عدم صحتها في القرويين لكونها ثانية، وأن الجمعة لا تصح في العنانية من فاس، والحلوية، وجامع القصر من تلمسان، إلا على قول خارج المذهب.

وقوله الا على قول خارج المذهب، هو راجع للعنانية وما بعدها، لا للقرويين، لأنها أحدثت فيها الجمعة، لكون عدوتها منفصلة بالنهر عن عدوة الاندلس قبل جعل الجسر عليه، فتقرر الجامعين كان قبل بناء الجسر كما علم من التاريخ، وما كان كذلك، فالقول فيه داخل المذهب كما علمت، هكذا ينبغي فهم كلام المعيار.

ثم ان النفس قد تتشوّق هنا لامرين : احدهما، حدّ المصر الذي يجوز التعدد فيه على أحد الاقوال المذهبية، وان كان ضعيفا، حتى نعرف هل بلدة سلا من المصر الكبير الذي يجري فيه الخلاف المذهبي، أو الصغير الذي يتفق فيه عدم التعدد في المذاهب كلها إلا على مذهب عطاء ومن معه، ثانيها ماهي الضرورة التي تبيح في المصر الكبير التعدد على القول المذكور.

والجواب، أن نصوص الأئمة تدل على ان المصر الكبير، ما كان كمصر وبغداد والشام،<sup>(207)</sup> كما هو صريح تمثيلهم، وقد تقدّم هذا، في كلام صاحب المعيار، وكذلك هو في كلام غيره من أئمة المذهب، حيث يذكرون القول الثاني من الاقوال المذهبية.

(207) لعل المراد بالشام مدينة دمشق منه لأنه قطر كما هو معلوم



وبلدة سلا كلها لا تكون كمحلة واحدة من محلات مصر وبغداد.

وأما الضرورة، فقد وقعت مبينة في كلام لبعض الأئمة بعُسُر وصول بعض أهل البلد للمسجد، وبكثرتهم جداً، حتّى انهم اذا اجتمعوا في المسجد الواحد لا يضبط من في آخر المسجد صلاة الامام.

قال الامام مالك : اذا لم يسعهم جامع واحد، جاز أن تُصلّى في جامعين. وقال اللخمي : وإقامتها بمسجدين أولى اذا كثر الناس وبعد من يصلّي بالافنية من الجامع، لان الصلاة لهم حينئذ لا ياتون بها على حقيقتها، وقد يكون الامام في السجود، وهم في الركوع.

وقال يحيى بن عمر وابن عبد الحكم: يجوز ايقاعها بالموضعين اذا عظم المصر، نقلها صاحب المعيار، فاذا عظم المصر، شق الوصول للمسجد على من هو بعيد منه، وهذا كله مفقود في نازلة السؤال.

فالحاصل، أن إحداث المسجد الثالث للجمعة في صورة السؤال، لا يجوز الاقدام عليه بحال، والعلم لله الكبير المتعال.

قاله عبد ربه : احمد بن المامون البلغيثي الله وليه ومولاه.

وبمضمنه يقول عبد ربه، الفقير الجاني، عبد العزيز بن محمد بناني، لطف الله به وبالمسلمين :

الحمد لله، وحسبنا الله ونعم الوكيل

الفقه المُسطّر صدره في جواب السؤال، واف بجميع فصوله، واغني عن المزيد، إذ قد جمع أطراف المسألة، بحسن انتساقه وبيدق قيله.

والله درّ أبي العباس الوانشرسي في تحريره وتحصيله، فلا يعدل عنه، بل يتعين المصير إليه، وإن نقل سيدي الطالب، رحمه الله، ان العمل جرى بالتعدد في المصر بحسب الحاجة في مشارق الأرض ومغاربها، فقلوه : بحسب الحاجة هو مركز القول بالتعدد ومبناه الذي بني عليه، ولا حاجة تدعو حسبما قرر في السؤال، والله أعلم.

وكتبه عبد ربه تعالى : عبد القادر بن قاسم لطف الله به.

وممن كتب في هذه النازلة، شيخنا العلامة مفتي سلا أبو المسك سيدي الطيب بن المدني الناصري السلاوي، وألف كتابه المسمى «رفع القناع، عما في تعدد الجمعة من الإجماع»، سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وألف (1939/1358)، وانفصل فيه على القول بالتعدد، وجواز الخطبة المتنازع فيها بجامع الشهباء.

وبمقتضى هذا رجح صوت القائمين والمطالبين بأحداث الخطبة فيه، فأحدثت، وجرى العمل بها من ذلك العهد إلى الآن.

\* \* \*

وفي عهدنا هذا، وهو سنة أربع وثمانين وثلاثمائة وألف (1964/1384) تداعت جل جدرانه وسقوفه إلى السقوط، فتعطل، ونقلت الخطبة التي كانت به إلى الزاوية الدرقاوية مؤقتاً.

ثم تولت وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية تجديده، فهُدِّمَ كله حتى لم يبق فيه حجر على حجر، ورُدِّمَت أرضه وسويت مع الطريق لأنه كان ينزل إليه عند الدخول بعدة درج، وأعيد بناؤه من جديد على هيئة غير التي كان عليها، روعي فيها روح العصر الجديد وتقليد بعض المعابد الأروبية، وزُلِّج صدره ومحرا به بالزليج الفاسي، وأضيف إليه دار وضوء جيدة ومحلات للطهارة، وألحق به حوانيت ومخازن للتجارة صارت حُبْساً عليه، وشيد مناره على شكل لطيف فيه هَيْفٌ و رقة وجمال.

وفي عشية يوم الإثنين ثالث ذي الحجة عام أربعة وثمانين وثلاثمائة وألف الموافق لخامس أبريل سنة خمس وستين وتسعمائة وألف (3 ذي الحجة 1384/5 أبريل 1965) احتفل باتمام بنائه وتدشينه بمحضر سعادة وزير عموم الأوقاف والشؤون الدينية، أبي العباس أحمد بن عبد الرحمن برگاش، وعامل العدوتين الدكتور بن بو شعيب، وياشا المدينة وناظر أحباسها ونخبة من علمائها وأعيانها. فصلوا به صلاة العصر، وألقى معالي الوزير كلمة عبر فيها عما للمساجد من أثر بليغ في رفع المستوى الديني بين المسلمين، وما أعدَّ الله من الأجر والثواب لبانيها ومصلحيها، والمعين على مصالحها، وأشاد بأعمال وزارته في بناء المساجد وإصلاح ما تلاشى منها بسائر المملكة المغربية بأمر من صاحب الجلالة أمير المؤمنين الحسن الثاني أيده الله ونصره.

ومن ذلك اليوم فُتِّحت أبواب مسجد الشهباء بسلا في وجوه المصلين لأداء الصلوات الخمس، وإقامة شعيرة الجمعة، وتمَّ أحياء أثرٍ قديم بهذه المدينة، من عهد المرابطين، وإن

كان لم يبق منه إلا الإسم. لان البناء الموجود اليوم، هو غير البناء الاثري الذي خربه الدهر، واعفته الايام، ولا مناسبة بين القديم والحديث في شكل ولا هيكل.

جزى الله الساعي في الخير واحياء معالم الدين احسن الجزاء في الدارين ءامين.

### \* الضفة اليسرى

علمنا مما تقدّم كيف نشأ العمران أولاً على الضفة اليمنى لنهر أبي رقرق، وتكوّنت منه مدينة سلا الحديثة تدريجياً، إلى أن صارت مصراً زاهراً مزدهراً على يد أربابها العشرين، في عهد اليفرانيين والمرابطين بعدهم.

وقد كانت الضفة اليسرى المقابلة لها، لا شيء فيها، إلا أنها يجتمع فيها المرابطون والمجاهدون في برغواطة، حسبما سيأتي بيانه.

### القصة : (وهي قصة الودايا اليوم)

#### في عهد المرابطين

وفي عهد المرابطين نشأ العمران بها ايضاً، وابتدأ من القصة. وتاريخ نشوء هذا العمران يستدعي بحثاً طويلاً، للجمع بين اقوال المؤرخين والجغرافيين الاقدمين، واستنتاج الحقائق التاريخية منها. وهو موضوع خاص يضيق عنه بحثنا هذا، وانما نريد ان نلم به الامام لبنني عليه كيف تدرجت حالتها العمرانية الأولى في عهد الدول السابقة الى ان نزل بها الاندلسيون المهاجرون وصيروها قاعدة بحرية قرصانية، كما سيأتي تفصيله في محله. ولا تخفى حصانة موقع هذه القصة، ووُضْعُها الجغرافي الطبيعي من البحر والنهر.

### موقع القصة الاستراتيجي واهميته

قال ليون الافريقي: (208) إنَّ قصبة الرباط بنيت على مصب نهر ابي رقرق، ويكتنفها النهر من جانب، والبحر من جانب آخر. وعليه فهي إذاً شبه جزيرة.

وقال جاك كاي : «JAQUES CAILLÉ» في «تاريخ الرباط»<sup>(209)</sup> ما خلاصته : ان الموقع الغريب، والوضع الطبيعي العجيب، الذي انفردت به هذه القسبة بين البحر والنهر، يؤذن بانها كانت مسكونة منذ العصور الاولى والازمنة العريقة في القدم، وطوبوغرافيتها تدل على انها تصلح ان يتخذ منها حصنٌ أو معسكر مخدق بالصخور العالية الصعبة المرتقى. ثم ابدى احتمالا وقال : انه ممكن الوقوع - لاسيما إذا عضدته بعض النقول - او العثور على آثار قديمة.

وهو انه لا يمكن للرومان الذين كانوا بشالة، أن يهملوا هذا الموقع الحربي الطبيعي الغريب الفريد، المهيمن على مصب النهر، والحاكم على مدخله واتصاله بالبحر المحيط.

ولابد أنهم على الاقل، كانوا اتخذوا به مركزا حربيًا، او مرقبا بحريا، لحراسة الملاحة والسفن المترددة بين شواطئ مستعمراتهم بافريقية الشمالية. والغالب على الظن انها كانت تاوي اليه، وتحتمي به، لما اختص به من صلابة ومتانة الصخور المخدقة على شواطئه، والمخدقة به، لان خطوط المواصلات في العهد الروماني الافريقي، كان الاعتماد فيها على السفن البحرية، اكثر من القوافل البرية. ثم قال : ويغلب على الظن أنه كانت هناك طريق خاصة تصل بينها وبين مدينة شالة، يقال انه عثر على بعض آثارها...؟ كما عثر على بعض القطع من المسكوكات الرومانية بساحل البحر بالقسبة، بل بالقسبة نفسها.

وعقب على هذا بانه مجرد احتمال، لا يثبت الا بما يؤيده ويعضده من الاكتشافات الأثرية الناطقة به، والمفصحة عنه، ولكن الوقوف عليها متعذر الآن، لاتصال العمران بالمحل الذي يظن أنها توجد به.

## قصر بني تاركة وحصن

### تاشفين بن علي المرابطي

أما في العهد الاسلامي، فاول ما ظهر محل القسبة في التاريخ، بل وأرض الرباط الحافة به ظهر مقرونا بصفته رباطا للمجاهدين في برغواطة. وعليه فيعتبر ان اول عمران ظهر بمحل القسبة في العهد الاسلامي، نشأ عن نزول المجاهدين به للجهاد في الفئة الضالة البرغواطية. والظاهر أنه وقع الاختيار عليه، لاتصاله بدون فاصل طبيعي بالبلاد

المُجَاهِد فيها، وكذا أرض الرباط المتصلة به. ولحصانته وموقعه الجغرافي الفذ، يمكن ان تشيد به قصبة او حصن حربي آمن محروس.

وهو ما يؤخذ من نص ابن حوقل، وان كان عاماً في سائر الاراضي الحافة بشالة على العدوتين، وقد جاء فيه :

”... ومن ورائه (يعني وادي سبو) الى ناحية بلد برغواطة على نحو بريد من وادي سلا، واليه تنتهي سكنى المسلمين، وهي رباط يرباط فيه المسلمون، وعليه المدينة الأزلية المعروفة بسلا القديمة، (المقصود بها شالة) قد خربت والناس يسكنون ويرابطون برباط يحفُّ بها، وربما اجتمع في هذا المكان، من المرابطين مائة ألف انسان، يزيدون وينقصون، ورباطهم على برغواطة، وهي قبيلة من قبائل البربر على المحيط، متصلين بهذه الجهة التي شقت بلاد الاسلام، اليها يعزّون وينتسبون...”

وقد تضمن هذا النص الصراحة بأن شالة، في عهد ابن حوقل، في الربع الاخير من القرن الرابع الهجري، الموافق للربع الاخير من القرن العاشر الميلادي، كانت خربة، وأن أرض الرباط كانت في ذلك العهد رباطا ومجتمعاً للمجاهدين، وهي شاملة لأرض القصبة وداخلة فيها، ومعدودة منها.

كما تضمن انه كان يجتمع بهذا الرباط مائة الف مجاهد، يزيدون وينقصون، مرابطين على برغواطة.

ولكن ليس لدينا نص يصرح بأن هؤلاء المجاهدين شيدوا حصنا او بناء حريباً بأرض القصبة، وان كان من لوازم اجتماعهم ومرابطتهم.

إلا أن الجغرافي الفزاري، الذي زار الاندلس، كما اخبر بذلك عن نفسه سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة (533 / 1138) اشار لوجود قصر يعرف بقصر بني تاركة، قال : على ضفة وادي اسمير، وهو احد اسماء ابي رقرق.

ثم قال : وهذا القصر مُشَيّد بالمحل الذي توجد به اليوم مدينة المهدية التي بناها الخليفة عبد المومن على الضفة اليسرى للنهر، والمهدية هي القصبة.

واذا كان هذا الجغرافي زار الاندلس في التاريخ المذكور، وذكر قصر بني تاركة، فلاشك انه كان موجودا في وقت زيارته، ولكن لا يفهم منه هل وُجد قبل ذلك، ولا متى وجد.

وينو تاركة المنسوب اليهم هذا القصر، من صنهاجة اللثام، ولعل المرابطين جاؤا بهم، وانزلوهم بمصب ابي رقرق.

وجاء في «تاريخ البيان المغرب، في اخبار ملوك الاندلس والمغرب»، لابي العباس احمد ابن عذارى ما ملخصه<sup>(210)</sup> ان عبد المومن، لما وصل الى مدينة سلا، تغلب عليها من ساعته، وفتحها قبل راحته، وانضافت له قصبته التي كان بناها تاشفين في الرباط.

ومثله في «الحلل الموشية»: <sup>(211)</sup> انه لما وصل الى سلا، وتغلب عليها من ساعته، وفتحها قبل نزوله، طاعت له قصبته التي كان بناها الأمير تاشفين بالرباط.

فقد اتفق هذان المؤرخان، على ان تاشفين كان له حصن بالرباط، وحيث إنه كان ثالث ملوك المرابطين، ولم تدم دولته الا نحو ثلاث سنين، من سنة سبع وثلاثين وخمسائة (1142/537) الى سنة اربعين وخمسائة (1145 / 540)، قلعل هذا البناء التاشفيني، او الحصن المرابطي شيد في ذلك العهد.

ويحتمل ايضا انه كان أمر بينائه قبل ذلك، لما كان أميراً بالاندلس عدة سنين قبل سنة احدى وثلاثين وخمسائة (1136 / 531)، أو لما صار ولي عهد أبيه، والتحق بالمغرب، وتخلّى له والده عن مباشرة الاعمال، لاشتغاله بنفسه.

وعلى هذا فان هذا الحصن بُني ما بين سنتي احدى وثلاثين وخمسائة (1136/531) واربعين وخمسائة (1145/540). أو على ما يوخذ من نص ابن عذارى، ونص «الحلل الموشية» المتقدمين ما بين سنتي سبع وثلاثين وخمسائة (1136 / 537) واربعين وخمسائة (1145 / 540).

وذكر عبد المالك بن صاحب الصلاة في كتابه «المن بالامامة على المستضعفين»<sup>(212)</sup> أن موضع المهدية، وهي القصبه، كان به برج للسكنى. وحيث انه كان يطلق عليه تارة قصر بني تاركة، وتارة حصن تاشفين، مع انه - على ما يظهر - بناء واحد، في محل واحد، فلعله أطلق عليه قصر بني تاركة بالنسبة لأوليته او النازلين به، وحصن تاشفين، بالنسبة لبانيه او مجده. لأن الغالب على الظن أن قصر بني تاركة كان موجودا قبل تاشفين بن علي، وإنما جدده وأعاد بناءه وصيره حصنا او قصبه.

وإلى هذا الحصن يشير ابو عبد الله محمد بن علي الدكالي في أرجوزته «اتحاف اشراف الملا، ببعض اخبار الرباط وسلا»<sup>(213)</sup> بقوله :

(210) ص 20 طبع تطوان ج 3.

(211) ص 102 طبع تونس .

(212) ص 446 طبع بيروت .

(213) مخطوط الخزنة الناصرية.

وَبِالرِّبَاطِ خَطٌّ تَاشَفِينُ      قَصَبَةٌ بِرِيْوَةٍ تَزِينُ  
فَكَانَ أَوَّلَ اخْتِطَاطٍ يُعْرِفُ      لَدَى رِبَاطِ الْفَتْحِ وَهُوَ انْصَفُ

وقال ايضا :

وَأُسَسَ الْحِصْنَ بِحَلْقِ الْوَادِي      قَصَبَةٌ ذَاتَ ارْتِفَاعٍ عَادِي  
أَمِيرُهَا تَشْفِينُ مِنْ أَهْلِ اللَّتَامِ      مُحَصَّنًا وَادِي الْمَجَازِ أَنْ يُسَامَ

وما جاء في جغرافية ليون الافريقي<sup>(214)</sup> تعليقا، مِنْ أَنَّ عبد المومن بنى اول بناء له بارض الرباط، في محل قصر كان ينسب الى بني كنانة، فلعله تصحيف بتاركة، لاننا لم نقف على هذه النسبة الكنانية في محل آخر.

هذا، وليست لدينا معلومات خاصة، ترجع الى الغاية التي قصد منها تاسيس قصر بني تاركة على القول باقدميته، وبناء الحصن الثاني، المنسوب إلى تاشفين على القول بأنه بُني بعده، أو على انقاضه، في وقت خاص، أو ظروف مُعَيَّنَةٍ، إِلَّا مَا يُفْهَمُ عموما من ان المراد باولهما، الجهاد في البرغواطيين، وثانيهما، الدفاع عن الدولة لما أصبحت مُهْدَدَةً بخطر الموحدين.

بناء على ما نص عليه ابن البيدق في كتابه «اخبار المهدي»<sup>(215)</sup> من ان المرابطين، لما استفحل امر الموحدين، وتدفقت عليهم جيوشهم من كل صقع من الاصقاع المغربية، هبوا للدفاع عن حوزتهم ومملكتهم بكل ما لديهم من وسائل الدفاع، ومن جملتها، ما أسسوه من الحصون والقلاع في المعازل والجبال والمواقع الاستراتيجية تحصينا وحماية للمدن والقبائل من عادية العدو، ولعل مصب أبي رقراق من جملتها لأهميته وموقعه الجغرافي من المغرب الجنوبي والشمالي، خوفا من اساطيل العدو أن تطرقهم من البحر، كما فعلت في محلات أخرى من اطراف المملكة وسواحلها.

والحاصل من هذا كله، أَنَّ موقع القسبة عند مصب النهر في المحيط الاطلانطيقي، كان منذ ازمة الفتح الاسلامي الاول وما بعدها رباطاً ومُجْتَمِعاً يجتمع فوق ضخوره البحرية مئات آلاف المرابطين والمجاهدين في البرغواطيين.

(214) ص 165 من ج 1

(215) ص 128، طبع باريس 1928.

ومن لوازم هذا الجهاد والمرابطة، بناء الحصون وتشبيدها، انقضاء للهجمات المتوقعة برأً وبحراً، إلا أن آثار هذا القصر التاركي، أو الحصن المرابطي التاشفيني، عفت واختفت بما بني فوقها من المباني والآثار الموحدية، والعمران الذي نشأ بعد ذلك بالقصبة، بعد نزول المهاجرين الأندلسيين بها. ولم يبق إلا بعض الاسوار والاسس الغائصة في اعماق الارض يقال إنها من بقايا آثار السور المرابطي الذي رفع على هيكله السور الموحدي، وربما تمكن معرفته وتمييزه من مواد بنائه الحجرية والأجورية والطينية، ومقابلتها بالمواد التي بنيت بها الحصون المرابطية الأخرى بأطراف المملكة المغربية في ذلك العهد.

وهذا من خصائص علماء البحث في الآثار القديمة الأركيولوجية وفحصها وتعيينها، وتمييز بعضها عن بعض.

وعلى كل حال، فإن عمران القصبة ابتدأ بعد خراب شالة، كسلا، بقصد الجهاد والدفاع عن الدين، وفي عهد المرابطين، بقصد حماية الدولة وصيانة كيائها، من هجوم المعتدين. ويظهر انهم كانوا اول من سارع وشرع في تحصين هذه الصخرة العظيمة الجاثمة كالاسد، أو المركز الحربي المهم، على ساحل هذا المحيط الواسع المظلم، المجهول ما وراءه في ذلك العصر. واستبحر عمرانها بعد ذلك في عهد الموحدين، ابتداء من دولة عبد المومن بن علي، منهم، حسبما سيأتي بيانه في محله.



## الفصل الثالث

عن العُدوتين : سلا والقَصبة  
ومآثرهما في عهد الموحدين



## المبحث الأول

### الموحدون بسلا

لما نسخت دولة الموحيدين دولة المرابطين بالمغرب، اهتمت بمدينة سلا اولا اهتماما كبيرا، لموقعها الجغرافي منه. لاسيما وقد كان عمرانها في امتداد وزيادة متواصلة لأهميتها الحربية في ذلك العهد، بالنسبة الى شمال المملكة وجنوبها، ولقربها من البوغاز ومراسي العبور للاندلس، كالقصر، وطنجة، وسبتة.

ولا يخفى علينا أن عبد المومن الطموح البعيد النظر، كان ينظر من أول يوم برز فيه للمطالبة بالاستبداد بالحكم والسياسة والرياسة العظمى إلى الضفة الشمالية للبوغاز، نظر المتحفز للثوب، المتربص بمن فيها الدوائر، لأنها في ذلك الوقت جزء من الامبراطورية اللثونية، وقطعة تكميلية للمملكة المغربية، ولذلك وجه عنايته لسلا بعد فاس، وقبل مراكش.

### احتلال عبد المومن لمدينة سلا

جاء في تاريخ "البيان المغرب، في أخبار ملوك الأندلس والمغرب" لأبي العباس أحمد ابن عذاري<sup>(216)</sup> أن عبد المومن، لما فرغ من أشغال فاس وترتيبها، ورتب على حصار مكناسة عسكريا يقيم عليها، اخذ في الحركة على توعية واستعداد إلى منازلة مراكش.

ولما وصل إلى مدينة سلا، امتنع أهلها منه، وحين وقف على مجاز الوادي الفاه بسعده في آخر مده فأمر عساكره أن يعبروه بأجمعهم. وتغلب على سلا من ساعته، وفتحها قبل راحته، وأمن أهلها، ورتب أحوالها، وانضافت لها قصبته التي كان بناها تاشفين في الرباط.

(216) ص 20 والتي بعدها من ج 3 طبع تطوان سنة 1380/1960.

وكان دخوله لسلا في السابع من ذي الحجة من سنة أربعين وخمسمائة (7 ذي الحجة 540/ 22 ماي 1146).

وقال ابن خير : كان فتحها على يد رجل يُسمى بيورك وابنيه : محمد وعلي. وذلك أنهم أرسلوا إلى الموحدين، فوصلوهم ليلاً وصنعوا السلايم، فصعدوا بها على السور، وقتلوا كل من وجدوه على السور، ودخلوا سلا، فوجدوا فيها أناساً، وهرب آخرون في حلق الوادي، فرجع عليهم البحر فغرقوا.

وعُيد فيها عبد المومن عيد الأضحى، ووُلّي عليها عبد الواحد الشرقي.

وأقامت على طاعة الموحدين إلى أن ظهر الماسي، المعروف بابن هود، ببلاد السوس، فقتل أهل سلا عاملهم، وقدموا عليهم والده هودا، فبقي بها إلى أن قُتل ابنه وعادت إلى طاعة الموحدين إلى انقضاء دولتهم...

وقد كان هذا الثائر سوقة من أهل سلا، وأبوه سمساراً بها يبيع الكنايش.

ولما فتحها عبد المومن في هذه المرة الثانية، تَلَمَّ سورها<sup>(217)</sup> كفاس وسبته وغيرها من قواعد المغرب لئلا تستعصى عليه مرة أخرى.

وهناك احتمال آخر، وهو أن سلا لم يكن لها سور قبالة الوادي، منذ انتشار العمران بها، لأن الأقدمين كانوا يعتبرون الأودية والأنهار الجارية الكبيرة والأجراف العالية بمنزلة الحصون والأسوار لما يؤسسونها من المدن والقرى حولها، مثال ذلك مدينة الرباط أمامها، فإن الأسوار الموحدية، وقفت عند أجراف الوادي، ولم تتجاوزها اكتفاء به.

وحيث أن تتلیم عبد المومن لأسوار بعض المدن الكبرى، ومنها سلا، ذكره بعض المؤرخين، فربما كان هدمه بسلا للسور القبلي بناحية باب فاس، وقد كان موجودا في ذلك العهد، وهو على طريقه من مكناسة إلى سلا، وأتصلت ثلمته بالناحية المقابلة للوادي، ومنها وُلج الإصبان إلى المدينة كما سيأتي الكلام عليه في عهد بني مرين.

وقد اتخذ عبد المومن مدينة سلا بعد افتتاحها مركزا حربيا تجتمع فيه وفي الفضاء الواسع على ضفة النهر اليسرى حول القصبة، جيوشه وقوته العظيمة المسخرة لفتح أفريقية الشمالية كلها والأندلس، وتكوين وحدتها التاريخية، أو ما يُطلق عليها اليوم اسم المغرب الكبير.

(217) «ابن خلدون» ص 310 من ج 1، طبع الجزائر، و«الاستقصا» ص 11 من ج 2 طبع القاهرة. وص 26 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة.

ثم صارت تجتمع بها وحولها برباطها في عهد أولاده من بعده الجيوش والغزاة بقصد العبور للجهاد والمرابطة بالتغور الأندلسية.

وكان يُطْلَقُ على محل اجتماع هذه الجيوش في ذلك العهد "رباط سلا"، منذ كان يجتمع بها المجاهدون، ويرابط المرابطون لمحاربة البرغواطيين ببلاد تامسنا وما وراءها كما تقدم، وربما بلغ عدد هؤلاء المجاهدين مائة ألف أو يزيدون. وإلى ذلك يشير أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي السلاوي في رجزه المتقدم :

واشْتَهَرَتْ فِي عَهْدِهَا الْقَدِيمِ	بِمَرْبِطِ الْجِهَادِ فِي الْإِقْلِيمِ
فِي رَابِعِ الْقُرُونِ كَانَتْ مُجْتَمَعٌ	لِمِائَةِ مِنَ الْأُلُوفِ قَدْ وَقَعَ
لِغَزْوِ كُفَّارِ الْبِرَابِيسِ وَقَدْ	عَمَرُوا تَامَسْنَا وَشَرُّهُمْ وَقَدْ
فَاقْتُلَعَتْ جُرْثُومَةُ الْأَغْمَارِ	مِنْ كُلِّ بَرْغَاطٍ بِلَا إِنْكَارِ
وَطَهَّرَ اللَّهُ بِلَادَ الْمَغْرِبِ	بِمَنْ بِهَا رَابَطَ مِنْ كُلِّ أَبِي

وبعدما كانت سلا ورباطها في أول عهدها، قصبة الجيوش البرية، أصبحت في عهد عبد المؤمن وآله من بعده، مرسى من مراسي الدولة الموحدية البحرية، تُجهز منها الأساطيل الجهادية بقصد غزو إفريقية، وفتح المهديّة واسترجاعها من يد الصقليين.

فكانت تُصنع بها السفن، وكذلك بوادي سببو، ويُجلب إليها العود من غابة المعمورة، وترسل في الوادي بعد تجهيزها.

وفي ذلك يقول أبو عبد الله الدكالي السلاوي في رجزه المذكور :

تُمْ أَتَاهَا فَاتِحُ الْأَقْطَارِ	وَمُنْزِلُ الرُّوْعِ بِكُلِّ دَارِ
أَبُو مُلُوكِ الدَّوْلَةِ الْمُوَحِّدَةِ	فَاتَّخَذَ الرِّبَاطَ دَارًا مُنْجِدَةً

ثم قال :

وَجَعَلَ الْمَغْبَرَّ دَارَ صَنْعَةِ	لِسُفُنِ الْأُسْطُولِ خَيْرَ مَنَعَةِ
تُمَّتْ أَسْئَلِي لَدَى وَادِي سَبُّو	مَعَامِلَ الْأَجْفَانِ مِنْهَا يُعْجَبُ
فَأَنْشَيْتُ لَهَا بِهَا الْمِثْوَنَا	وَطَالَ عِزُّهُمْ بِهَا سِنُونَا
وَاسْتَرْجَعُوا بِهَا التَّغُورَ الشَّاسِعَةَ	وَافْتَتَحُوا الْأَقَالِيمَ الْمُتَّسِعَةَ

وَحَصَدُوا الْجُمُوعَ بِالْأَرَاكِ وَهَاجَمُوا الْحُصُونُ بِالْعِرَاكِ  
وَكَانَ جَيْشُهُمْ مَعَ الْأَسْطُولِ يُرْهِبُ أَهْلَ الْعَالَمِ الْمَفْعُولِ

وكان سبب اختيار عبد المومن للعدوتين، هو موقعهما الجغرافي على مصب النهر في البحر، لكونه حاجزاً للسفن عن الاغارة من البحر على الاسطول، بخلاف سببة التي لم يتوفر فيها هذا الشرط<sup>(218)</sup> وهكذا، فإنه لما غزا افريقية كان معه لما احتل تونس، سبعون قطعة من أسطوله تحت إمرة أميراله عبد الله بن ميمون<sup>(219)</sup>.

ثم صاحبه هذا الأسطول، محاديا له في البحر، ينتقل بانتقال الجيش، كما كانت عادة الموحدين في حركاتهم وتنقلاتهم، حتى حاصر المهديّة وانتصر على الأسطول الصقلي، مع أنه كان متفوقا عليه في العدد، إذ بلغ مجموعه مائة وخمسين قطعة.

وبكلمة جامعة فقد كان للعدوتين ذكر كبير وأهمية كبيرة ملحوظة في تاريخ دولة الموحدين، وكانوا يعتبرونهما كعاصمة من عواصم مملكتهم أو إمبراطوريتهم الواسعة الشاسعة للشمال الافريقي كله، من المحيط الأطلنطيقي إلى حدود مصر والأندلس إلى حدود جبال البيريني من وراء البحر.

وفي سلا، وفد على عبد المومن أهل الأندلس، وقد مرت أخبار وفاداتهم المتعددة عليه مستوفاة، وأين كان استقبالهم في أخبار بني عشرة.

وفي عهد عبد المومن أطلق على الرباط إسم "رباط الفتح" تفاؤلا بالفتوح الأندلسية، وكان قبل ذلك يدعى "رباط سلا" كما تقدم.

(218) «الموحدون» لروني ميلي "René Millet" ص 80-81

(219) الأميرال عبد الله بن ميمون، أصله من مدينة دانية من الأندلس. وكان من رؤساء الأسطول المرابطي في عهد الدولة المرابطية. وبنو ميمون كلهم رؤساء، ولما سقطت، فر بأسطوله إلى قادس، وانضم إلى الموحدين بأسطوله، ويسببه كانت مدينة قادس أول مدينة بالأندلس خطب بها لعبد المومن، وساعد عبد المومن في فتح افريقية وأعانه.

## انتقال بعض الأسر الشهيرة

### إلى سلا في عهد الموحدين

لما نازل أبو يعقوب يوسف بن عبد المومن قفصة سنة ست وسبعين وخمسمائة (1180/576) وتغلب على صاحبها علي بن عبد العزيز، أشخصه إلى مراكش بأهله وماله، ثم استعمله على الأشغال، بمدينة سلا إلى أن هلك بها، وفنيت دولة بني الرُّند، والبقاء لله وحده<sup>(220)</sup>.

وقد صحبه في انتقاله هذا جموع كبيرة من حاشيته وذويه، واستقروا معه بها، ومنهم آل القلعي، نسبة إلى القلعة، وبنو حماد.

وكان نزولهم في أرباضها واجنتها، وعنهم اخذ السلاويون في ذلك العهد فنّ الزراعة، وكيفية ري البساتين واستغلالها، وتجند منهم بعد ذلك جمهور كبير في الجيوش السلطانية.

قلت : وما زال بقية من اعقاب آل القلعي من الاسر المعروفة بسلا إلى الآن.

ويقال : انه في ذلك العهد، انتقل إلى سلا، من تونس وافريقية أسر أخرى، منهم آل التونسي، وآل البغدادي، وكان نزولهم حول جامع الشهباء، والله أعلم.

هذا، وقد خلف الموحدون بسلا أثارا مهمة :

منها إحداثُ دار صناعة الأساطيل البحرية بها، وسياتي الكلام عليها مفصلا في مآثر المرينيين بسلا، لأنهم هم الذين شيّدوا معالمها وبرزوا للوجود مآثرها الخالدة الباقية المشاهدة بالعيان إلى اليوم.

ومنها .

## المسجد الأعظم بطالعة سلا

من مآثر الموحدين الخالدة بسلا، وهياكلهم الشاهدة بعظم شانهم، وضخامة ملكهم على ممر الأجيال والدهور، المسجد الأعظم بطالعتها.

(220) «ابن خلدون» ص 214 من المجلد الأول طبع الجزائر، والاستقصاء ص 162 من ج 1، طبع القاهرة. وص 106 من ج 3، لطبعة وزارة الثقافة سنة 2001

وهذا المسجد هو العتيق بسلا، القديم جداً، أول مسجد أُسس بها قطعاً يوم ابتداء عمرانها، أواخر الربع الأول من القرن الثالث الهجري، الموافق لأواخر العقد الرابع من القرن التاسع الميلادي، يعني منذ ما يزيد على ألف ومائة سنة تقريباً، بعد خراب شالة وانتقال بعض سكانها إلى العدو الشمالية لنهر أبي رقرق وتكتلهم على ضفتي الوادي لجهاد البرغواطيين كما تقدم.

ولا شك أن الذين أسسوه، هم أولئك المهاجرون السلاويون، إذ أول ما تهتم به جماعة تكتلت بموضع بقصد الإقامة والاستيطان : الأرحى والفرن، للضرورة الحيوية والاجتماعية، والمسجد لإقامة الفروض والشعائر الدينية. والدليل على وجود هذا المسجد في ذلك العهد، هو أن عشرة، جد بني عشرة، لما نزل بأهله وحشمه بسلا، بقصد الاستقرار - كما تقدم - أواسط الربع الأخير من القرن الرابع، وجده مبنيًا، وبني أهله وذووه وشيعته ديارهم بحومته كما في «الاستبصار»<sup>(221)</sup>.

ولعلّ كان مسجداً صغيراً بسيط البناء، حسبما تقتضيه الحاجة عند حدوث العمران الأولى، ولذلك أعيد تأسيسه وجدد بناؤه في زمن بني يفرن، وعهد إمارة الأمير أبي الكمال تميم بن زيري بن يعلّى منهم، حسبما هو مكتوب بأعلى قوس العنزة المقابلة للمحراب والمالية للصحن الكبير الواسع المزليج.

وعليه، فهو أقدم من جامع الشهباء المتقدم ذكره ووصفه، المؤسس في عهد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين.

وبمقتضى هذا، فهو العتيق، على التحقيق.

وقد زاره صاحب «الاستبصار» سنة أربع وسبعين وخمسائة (574 / 1178) وأخبر عنه بأنه لم يبق منه سوى المنار، وأماً السقف كله، فمتهدم، واحتفى الغرباء بفنائه<sup>(222)</sup>.

والغالب على الظن أنه لما تخرّب وتهدّم، نُقِلَت الخطبة منه إلى جامع الشهباء مؤقتاً، ولما تم إعادة بنائه وتجديده وأدمج في المسجد الأعظم الجديد، أعيدت الخطبة إليه من جديد، كما كانت في العهد الأول.

وكان الاهتمام بإعادة بنائه وتجديده، لماً مرّ أبو يوسف يعقوب المنصور الموحيدي بسلا في إحدى تنقلاته الجهادية بالعدوة الأندلسية، وشاهد انتشار العمران بالمدينة، ولاحظ

(221) ص 140، طبع الاسكندرية.

(222) ص 140، طبع الاسكندرية.



احتياجها إلى مسجد كبير يناسب تزايد سكانها المستمر، ولا تضيق رحابه بالمصلين، وخصوصا في الجُمع والأعياد، وأيام اجتماع الغزاة والمجاهدين، لاسيما وقد كانت هي ورباطها في ذلك العهد مجتمع الجيوش الجرارة، البالغ عددها في بعض الأحيان، مائة ألف أو يزيدون، مع من ينضم إليهم من المرتزقة والجنود المتنقلة بين جنوب المغرب وشماله، والعبارة إلى الأندلس بقصد الجهاد والمرابطة في الثغور، زيادة على أنها كانت ملتقى الركبان والقوافل الصادرة منها والواردة عليها من سائر الأقطار، لأن عبد المومن وآله كانوا ينظرون إلى مصب أبي رقرق نظرة خاصة، ويعتبرون موقعه الجغرافي من امبراطوريتهم الواسعة الأطراف اعتبارا ستراتيجيا ظهر أثره في اعتناء عبد المومن بالقصبة، وتأسيس حفيده يعقوب مدينته العظيمة رباط الفتح، حسبما تقدمت الإشارة إليه في موضوع آخر، فأمر حينئذ ببناء المسجد الأعظم الموجود اليوم، وأضاف إليه مدرسته الجوفية، وأدمج فيه المسجد القديم العتيق، الخرب المتهدم. وكان الشروع في البناء سنة ثلاث وتسعين وخمسائة (593 / 1196)، وهي السنة التي أمر فيها بتأسيس مدينة الرباط.

ومن تأمل الآن الجانب الموالى منه للزقاق المؤدي إلى ضريح الشيخ أبي محمد عبد الله ابن حسون، تبين له أثر المسجد القديم الأول، وشاهد شواهد الظاهرة البارزة للعيان إلى الآن، وهو الجانب الخاص اليوم بالنساء. كما أدمج فيه من ناحية القبلة، قبالة الصحن الذي به المنار، ضريح الشيخ أبي محمد المراسي عبد الحليم الغماد، من رجال «التشوف»، المتوفى عام تسعين وخمسائة (590 / 1193)، يعني قبل الشروع في بناء المسجد بنحو ثلاث سنوات فقط. وجعل مساحته باعتبار صحونه الواسعة، تزيد على خمسة آلاف وسبعمائة متر مربع، ورفع أقواسه وحناياه على مائتين وثلاث وثلاثين سارية مربعة الشكل، فجاءت أقواسا عالية فارحة، قُلِّدَ فيها الفن المعماري الكوتي الذي كان العمل جاريا به في معابد أوربا وهيكلها الضخمة، في القرون الوسطى، لأن العملة والمهندسين الذين كانوا مسخرين في بنائه ونقل حجارته وقراه، من الأسرى النصراني والأندلسيين البالغ عددهم سبعمائة أسير من أسارى غزوة الأرك في قيودهم وأغلالهم<sup>(223)</sup>.

وفي «الروض المعطار»، أن المنصور لما غزا بلاد الجوف، وحاصر ترجالة ونزل على بلنسية، وفتحها عنوة، قبض على قائدها يومئذ مع مائة وخمسين من كفارهم ووجههم الى خدمة الجامع الكبير بسلا مع أسارى الأرك<sup>(224)</sup> ولعله أراد ان يقابل عمله في هذا المسجد، بعمله في مسجد حسان في العدو الاخرى المقابلة له.

(223) «الاستقصا» ص 180، من ج 1، طبع القاهرة. والاستقصا، ج 3 ص 161، طبع وزارة الثقافة، سنة 2001.

(224) ص 13، طبع القاهرة.

واضاف له عند بابه القبلي، في المحل الذي فيه اليوم بيت الاموات، محكمة القاضي، إن كان من عادة القضاة بالاندلس والمغرب ان يحكموا بالمساجد او بمحلات ملاصقة لها، ومضافة اليها، ولذلك كتب على واجهة الباب المذكور نقشا في الحجر، كما هو مشاهد إلى اليوم : «الحكم لله».

وأتصل به من ناحية القبلة، مقصورة الخطيب، ودار الإمام، وخزانة الكتب ومستودع المنبر .

واتخذ بناحية باب الجوف بيوتا للطهارة مستكملة الشروط، جلب لها الماء كما قيل، من عيون البركة، خارج سلا، في قنوات خاصة، وسياتي الكلام بمزيد بيان على هاته القنوات. واستمر العمل به متواصلا مدة ست سنين، من سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة (593 / 1196) إلى سنة ثمان وتسعين وخمسمائة (598 / 1201). فجاء آية في الضخامة والعظمة والمهابة والجلل وسعة الرقعة، لا نظير له في افريقية الشمالية كلها.

و مما امتاز به، أن المتعبد والجالس فيه يجد انشراحا وخشوعا في قلبه وإقبالا زائدا على ربه، لا يجده في غيره من المساجد الأخرى، «وإنما يَعمُرُ مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر».

ولما تم تشييده، وتحسينه وتنجيده، استدعى الخليفة، رحمه الله، العلامة أبا محمد عبد الله بن سليمان بن داوود ابن حوط الله، ولأه قضاء سلا وأسند إليه الخطبة به، والتدريس بمدرسته الجوفية المضافة إليه، فكان أول خطيب تسلم منبره وخطب به. وبعد ثلاث سنين نقله إلى ميورقة، وولى مكانه في الخطبة والقضاء، العلامة أبا الحسن علي بن الحسن الصديني الفاسي. ثم توالى الخطباء فيه من الأعلام قرنا وقرنا وجيلا فجيلا.

و لم يزل محل اعتناء الملوك في كل دولة وزمان يزورونه ويزيدونه تحسينا وتزيينا، ويجددون ما تداعى من بنيانه، ويبادرون إلى إصلاح ما احتاج إلى الإصلاح في زواياه وأركانها.

ومن ذلك أن السلطان أبا الحسن المريني، لما بنى مدرسته الشهيرة المتصلة به، أدخل فيه إصلاحات وتحسينات مهمة :

- منها تخريم محرابه وقبته، وتزويقهما بالجبس الملون بالألوان الجميلة، على عادة بني مرين في تحلية محاريب مدارسهم ومساجدهم بفاس وغيرها.

- و منها أنه لما بنى سور الأقواس المحمول عليه الماء الداخل إلى سلا، وأوصله إلى مدرسته، جدد قنواته الداخلة إلى المسجد، وأصلح ما تلاشى منها، سواء بالحوض الرخامي (الخصّة) الذي بوسط صحبته القبلي، أو بيوت دار الوضوء المتصلة به.

ولأهمية هذا السور، والقنوات الجاري فيها الماء الداخل إلى سلا وهذا المسجد الأعظم، حبس السلطان المولى اسماعيل رحمه الله، نخل الحوت الشابل المصطاد بأبي رقرق على إصلاحها وتعاهدها كما سيأتي.

وقد تبارى أهل الخير والإحسان، والثروة وصحيح الإيمان، من السلاويين في تحبيس الأحباس النافعة، والضيايع المغلة، على هذا المسجد، حتى أصبح من أغنى مساجد المغرب، ليصرف ريعها في إصلاحه، كلما دعت الحاجة إليه، ولتقوم بأداء أجور الموظفين الدينين به، كالخطباء، والأئمة والمدرسين والمؤذنين وقراء أحزاب القرآن الكريم، وتتوعد أحباسهم في ذلك، جزاهم الله خيرا.

ومن هذا القبيل أن أحد قواد بني حسن في العهد العريزي، الساكنين بسلا، أبا عبد الله محمد الكداري، كان تبرع بقدر من ماله الخاص، في حدود سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة وألف (1322/ 1904) بقصد تزييح صحبته الكبير المواجه للقبلة، واشترك معه في هذا العمل المبرور، جل أعيان سلا وكبار الموظفين بها، على يد قاضيها، الخطيب بها، العلامة أبي الحسن علي بن محمد عواد، حسبما وقفت على قائمة اسمائهم بخط يده، ف تبرع كل واحد منهم بما طابت به نفسه، فزنج وأصلح، وزاد تزييح المسجد رونقا وبهجة وجلالا وجمالا.

وفي سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة وألف (1353 / 1939)، حصل في سقوفه تلاش من طول الزمن، وتوالي القرون والأجيال، فأمر جلالة الملك المقدس أبو عبد الله محمد الخامس بإصلاح المتلاشي، وتجديد المتداعي للسقوط منها، فأصلحت وجددت، ورمت حيطانه كلها، وجبست، وفتح فيه باب جديد في صحبته الموالي للزقاق المؤدي إلى ضريح الشيخ أبي محمد عبد الله بن حسون، وتم ذلك كله على أحسن وجه وأكمله، فصارت الأبواب الكبرى ستة بعد أن كانت خمسة. وهناك أبواب أخرى صغرى كباب المقصورة، والباب الذي في صحن المنار، وباب بيت الأموات، ولا تفتح إلا عند الحاجة في أوقات خاصة.

كما أصلح ضريح الشيخ عبد الحليم الغماد، وجدد بابيه وكُتب عليه أن وفاته كانت سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة (592 / 1195)، مع أنها كانت قبل ذلك سنة تسعين وخمسمائة (590 / 1193)، كما في «الاستقصا»، وقد تقدم ذكر ذلك عند الكلام على التأسيس، وكان الصائر على ذلك كله من الأحباس.

وفي عهد جلالة ملكنا، محيي معالم الدين، والمعتمني بتشديد المساجد وعمارته بسائر مملكته، أبي علي الحسن الثاني، أُعيد تجبيسه، وطلاء سقوفه، وجُعِلَت لأبواب أضحته المتعددة الواسعة دقف زجاجية، تمنع المصلين من الحر والقر، ولا تمنع الضوء، ولا تحجب المنظر.

وأحدث بالصحن الموالي للمسجد القديم الذي هو مسجد بني عشرة، وهو الجناح الخاص بالنساء اليوم، بيوت للوضوء، خُصِّصَت لهنَّ، وأُجْري بها الماء.

وغرس بالصحن الموالي للزقاق المؤدي لضريح الشيخ أبي محمد عبد الله بن حسون بعض الأشجار الطيبة، فعمّرت جوه، وزينت منظرة، وقد جرى العمل بذلك قديما بالأندلس والمغرب، وتمَّ إنجاز ذلك كله، سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة وألف (1381/1961).

وأعيد النظر في كتبه المُحبَّسة بخزائنه العلمية، فجمع ما كان مُفترقا منها بأيدي الناس، وأعيد إحصاؤها، وجدد نظامها.

وحيث كان هذا المسجد بهذه المثابة العظيمة والجلال، فقد كان الملوك يقصدونه، ويتبركون بالصلاة فيه، ويحترمونهم ويزورونه كلما زاروا سلا وتبركوا بمشاهدها المباركة.

وممن حفظ التاريخ زيارته من الملوك لهذا المسجد وصلاته فيه :

- السلطان أبو عنان المريني لما ارتحل إلى سلا، سنة سبع وخمسين وسبعمائة (1356/757) بقصد زيارة الشيخ أبي العباس أحمد بن عاشر، والاقتباس مما يفتح الله به عليه من وعظه وإرشاده، فحرص على الاجتماع به، وتردد عليه، ووقف ببابه مرارا فلم ياذن له، وترصده يوم الجمعة، بعد الصلاة بهذا المسجد.

ولما أنفضَّ الناس تبعه على قدميه، والناس ينظرون إليه وهو لا يراه، فقال أبو عنان عند ذلك : لقد مُنعنا من هذا الولي، وأرسل إليه ولده مستعظفا، فأجابه بما قطع رجاءه من الاجتماع به، وكتب له نصيحة نصحه بها... (225)

- ومنهم السلطان المولى سليمان، رحمه الله ، فقد جاء في «الاستقصا» (226) أنه جاء من مراکش سنة ست وثلاثين ومائتين وألف (1236/1820)، ووصل إلى رباط الفتح، فعبر

(225) «تحفة الزائر، ببعض مناقب الشيخ ابن عاشر»، لأبي العباس الحافي السلاوي، مخطوط الخزنة الناصرية، و«الاستقصا» ص 90 من ج 2، طبع القاهرة. وص 177 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

(226) ص 161، من ج 4، طبع القاهرة. وص 190 من ج 7 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

إلى سلا، ونزل براس الماء، ولما حضرت الجمعة، دخل المدينة، فصلى بالجامع الأعظم منها، ودخل دار الحاج محمد بن عبد الله معنيتو من أعيان أهل سلا، واستصحب معه الفقيه الموقت أبا العباس أحمد بن المكي الزواوي من أهل سلا.

وأخبرني أخونا العلامة القاضي الشريف أبو عبد الله محمد بن الطيب العلوي السلاوي، أن السلطان المولى سليمان لما زار سلا في التاريخ أعلاه، وصلى الجمعة في مسجدتها الأعظم، دخل دار ابن عمه الشريف مولاي إدريس بن المرتجي بن اسماعيل التي كان بها سكنى أولاده، وأكبرهم مولاي الحسين الذي هو جدهم. وكانت هذه الدار تسمى دار معنيتو بدرب معانة بسلا، قال : هذا هو المنقول والمقول في أسرته منذ القديم، يلقيه السلف للخلف.

- ومنهم السلطان المولى الحسن الأول، رحمه الله، فإنه لما قدم إلى الرباط سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف (1293/1876) دخل سلا<sup>(227)</sup> وزار أوليائها، ودخل مسجدتها الأعظم، وصلى الظهر به، وأمه في صلاته العلامة أبو محمد عبد الله بن الهاشمي ابن خضراء السلاوي.

ودخل خزانة الكتب العلمية، وتأمّلها، وكان معه قاضي سلا، العلامة أبو بكر بن محمد عواد، فطلب منه أن يزيد في شراء الكتب للخزانة المذكورة، فأذن له بأن يشتري من ذلك ما ثمنه مائة ريال، ففعل، وهي يومئذ بهذه الخزانة، ووصل علماء سلا ومجاهديها على العادة في ذلك.

ويمناسبة هذه الزيارة، مدحه والدنا العلامة مؤرخ المغرب أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، مؤلف كتاب «الاستقصا»، بقصيدته السينية التي يقول في مطلعها :

قَلْبُ كَوَاهُ مِنَ النُّوَى مِسْقَبَاسُ      فَفَدَا بِهِ الْوَسْوَاسُ وَالْخُنَّاسُ

إلى أن قال في المدح :

سَعِدَتْ بِمَقْدَمِهِ سَلَا وَتَقَدَّسَتْ      مُرَاكِشُ الصَّمْرَاءِ مِنْهُ وَفَاسُ

- ومنهم الملك المقدس، أبو عبد الله محمد الخامس، فقد صلى فيه الجمعة مرارا متعدّدة قبل الاستقلال وبعده، لما تمّ إصلاحه، وجُددت سقوفه، وكان ينتابه منقردا مختفيا في أوقات مختلفة من ليل أو نهار، متبركا بالصلاة به والدعاء فيه.

(227) «الاستقصا»، ص 248 من ج 4، طبع القاهرة. وص 170 من ج 8 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

- وكذلك جلالة نجله ملكنا المعظم، أبو علي مولانا الحسن الثاني، فقد أدنى فيه صلاة الجمعة، بعد انعقاد بيعته، وصلاً فيه مرة أخرى بغير صفة رسمية.

وهكذا كان هذا المسجد الجامع، منذ أسس من أول يوم على تقوى من الله ورضوان، مقصد الملوك والأمراء والأعيان، على ممر الدهور والأزمان.

وقد درج فيه، وتخرج منه خلق لا يحصى، ولا يحصر عدده ولا يستقصى، من العلماء وأئمة الدين، وحملّة الشرع، بهذا البلد الأمين، وءاوى إليه، وصلى بين أساطينه، واعتكف في زواياه وأركانه، الجُمّ الفقير، والجمهور الكثير من الأولياء والصالحين، ذوي المرتبة العليا في التصوّف، والقدم الراسخ في الدين، أمثال أبي العباس ابن عاشر، وابن عبّاد، وأبي سرحان مسعود أجموع، وأبي محمد عبد الله بن حسن، وأبي العباس أحمد حجي، واضرابهم. وقرأ به وأقرأ الجهابذة الاعلام، مثل ابن حوط الله، وأبي علي الصديقي، وابن العجوز، وابن الخطيب السلماني، وأبي عفان عثمان بن أحمد التّواتي، وأبي عبد الله بن قاسم زنيبر السلاوي، وأبي العباس أحمد السدّراتي.

ومن المتأخرين : أبو عبد الله محمد بن العزيز محبوبة، وأبو بكر بن محمد عواد، وأبو العبّاس أحمد بن خالد الناصري، وأبو محمد عبد الله بن الهاشمي ابن خضراء، وأبو الحسن علي بن محمد عواد، وأبو العبّاس أحمد الجريري، وغيرهم ممن لا يحصى كثرة، وكلهم درّس فيه أنواع العلوم الشرعية، من فقه وأصول، وحديث وتفسير وسيرة نبوية، وغير ذلك من الفنون العربية، والرياضية والفلسفية.

وتعاقب على منبره، الخطباء العلماء والوعّاظ والمرشدون اللّسنُ الفصحاء، فنصّحوا لله ورسوله، وفتح الله بهم قلوباً عمياً، وءاذانا صُمّاً، وكتب الله ذلك في سجلات حسناتهم المبرورة، ومساعدتهم المشكورة.

وكان لا يتولّى الإمامة في محاربه، منذ تأسيسه إلا من عُلِمَ علمه، وثبت فضله واستقامته، واشتهر بالنزاهة والعفاف والتقوى، والتمسك من الدين، بالحبل المتين، والسبب الأقوى، حسبما وقفنا عليه في تراجم بعضهم وظهائر توليتهم الشاهدة لهم بذلك.

وزيادة على هذا، فقد كان هذا المسجد الأعظم، بهذا الثغر السلاوي، منذ وجوده، ملجأً للأجنيين، ومأوى الخائفين، ومثوى السّاجدين والرّاكعين، ومجتمع المدبرين بسلا لأمر الدنيا والدين.

فكانوا إذا نزل بهم حادث، أو طاف بساحتهم طائف، فزعوا إليه واعتصموا به، واحترموا بحرمة.

وقد نصَّ ابن عذاري في تاريخه<sup>(228)</sup> على أن الإصبيان لما احتلوا سلا واستباحوها في الواقعة العظيمة الشهيرة، سنة ثمان وخمسين وستمئة (1259/ 658)، التجأ السلاويون إلى المسجد الأعظم، واعتصموا به إلى أن فرَّج الله عليهم.

وهكذا، كانت عاداتهم إذا حزبتهم حوازب الخطوب، لجئوا إليه إماماً للاستشارة، أو الدعاء والاستخارة، وإماماً لإحكام الخطة التي يجب اتباعها، والطريق التي يتعين سلوكها، وتجديد التوبة، واستجلاب رضا الله سبحانه في كشف الحوبة، فيستجيب الله دعاءهم، ويفرج في أقرب وقت كربتهم.

وقد كان هذا المسجد - وما بالعهد من قدم، أيام المحنة الأخيرة - مجتمع السلاويين، وناديهم الأمين، وحصنهم الحصين، يجتمعون فيه، ويتداولون فيما ياتونه ويدرونه، ولا تقدر الشرطة أن تنتهك حرمة.

ويكفي أنه لما ظهر الظهير البربري، وتآلم الناس منه، وتكلموا فيه، ولم تكن لهم قدرة على المقاومة، إلا التوسل أو الدعاء، كان هذا المسجد الأعظم دار ندوتهم، وبرلمان نوابهم.

وفيه تقرر ذكر اسم الله تعالى اللطيف، فذكر فيه، وأُمِّتُ الجموع، وسكبت فيه الدموع، وابتهل إلى الله سبحانه بذل وخشوع، وإنابة وخضوع، وإقلاع عن الذنوب ورجوع، مع صدق التوجه في السجود والركوع، فثبَّتَهم الله بالقول الثابت في موقفهم الحاسم، ولم تمتد إليهم يد شرطي ولا حاكم، ومنه برز واشتهر، وعمُّ مساجد المغرب كلها وانتشر.

وبقول جامع، فإن هذا الجامع، بيت من بيوت الله، التي اذن الله أن تُرفع، ويُذكر فيها اسمه تعالى، وتُصان حرمتها وتُمنع، ﴿يسبح لله فيها بالغدو والأصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله، والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾.

## المنار

كان المنار الموحدي الذي شُيد مع المسجد، قائما صالحا، تعلّى فيه كلمة الله، ويؤذن فيه للصلاة، مدة قرون وأجيال متطاولة، إلى أن أصابته صاعقة في عهد السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام، رحمه الله، تداعت لها أركانها، وتزعزع بنيانه، فأمر، رحمه الله، بنقضه وإعادة جديدا، فأعيد على هيئة متقنة أحسن مما كان وأعظم.

وأنفق عليه بواسطة أمراء مرسى العدوتين، ثلاثة آلاف مثقال وأربعمئة مثقال وأربعة وعشرون مثقالا، وست أواق، وثلاث الأوقية، والريال الكبير يومئذ من سعر عشرة أوقية. وكان جل الصائر من بيت المال، وأقله من مال الحبس، سنة ست وخمسين ومائتين وألف (1840/1256).

وكان يتولى النظارة يومئذ والقيام على البناء، عامل سلا، الابن الأخير، السيد الحاج أحمد بن محمد ابن الهاشمي عواد<sup>(229)</sup>.

وفي العهد الأخير أصلحت درجه وأعيد تسويتها.

## المدرسة الجوفية

### وهي المحمدية اليوم

أما المدرسة الجوفية التي بناها بانيه، السلطان أبو يوسف يعقوب، رحمه الله تعالى، وأضافها إليه، فقد كانت قائمة برسالتها في عهده وبعده.

ومن جملة من كان يُدرّس العلم بها، العلامة القاضي، الخطيب به، أبو محمد عبد الله ابن حوط الله، كما تقدم، ودرّس بها «كتاب» سيبويه و«المستصفي» للشيخ أبي حامد الغزالي، وغير ذلك من الكتب النافعة المهمة، وكان يميل إلى الاجتهاد، ويُغلب جانب الظاهرية، وإلى ذلك يشير الشيخ أبو عبد الله ابن علي الدكالي في رجزه بقوله :

يُدْرُسُ أَعْلَى الْكُتُبِ فِي كُلِّ سَنَنْ      وَمَالَ لِلظَّاهِرِ عَنْ قَسْصِدِ حَسَنْ  
وَكَانَ ذَا تَمَسُّكِ بِالسَّنَةِ      مُجَانِبًا كُلَّ هَوًى وَبِدْعَةٍ

(229) «الاستقصا»، ص 194 من ج 4. طبع القاهرة. وص 57 من 8 طبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.



تم تعطلت بعد ذلك وأهملت، فتداولتها الأيدي، وصارت مريباً للدواب.

وفي السنين الأخيرة من عهدنا هذا، انتزعتها أولو الأمر ممن كانت بيده، وجدد بناؤها على هيئة المدارس العصرية، وصارت مدرسة حرة تدرس فيها مبادئ العربية للصبيان في الطور الابتدائي، وأطلق عليها اسم «المدرسة المحمدية».

وكان ابتداء خرابها لما نزل الإصبيان بسلا في الوقعة المعلومة سنة ثمان وخمسين وستمائة (658 / 1259).

## تحسيس الحوت الشابل على إصلاح قنوات الماء الداخل للمسجد الأعظم بسلا

الشَّابِل، بصيغة إسم الفاعل، في اللغة، الأسد الذي اشتبكت أنيابه، والغلام الممتلئ نعمة وشباباً، وولد الأسد، إذا أدرك الصيد، جمع أشْبَال وأَشْبَل، وشَبُول وشِبَال.

وفي عُرْف المغاربة، يُطلق على سمك بحري، يَقْصِد الماء الحلو بالأودية في فصل الربيع. قالوا: ورِيْمَا بلغت الواحدة منه نحو المتر طولاً. وهو موجود بكثرة في أودية المغرب، كأم الربيع وسَبُو، وأبي رقرق. والمغاربة يستطيعون أكله. ويرغبون فيه، لأنه لذيذ، شهي، ولحمه قوي طري.

ويبتدئ موسم اصطياذه عادة في شهر أكتوبر، ويمتد إلى آخر فصل الشتاء، بكيفية معلومة عند المختصين باصطياده، بالشباك والحواجز والسدود التي يقيمونها في المزارع التي يكثر فيها في مجرى الوادي بقبيلة السهول.

وقد تقدّم لنا أن السلطان أبا يوسف يعقوب المنصور الموحدي، لما أتم بناء المسجد الأعظم بسلا، جلب له الماء من عيون البركة خارج سلا، في قنوات خاصة.

وسياتي أن السلطان أبا الحسن المريني، لما بنى مدرسته الملاصقة له، وجلب إليها الماء من عيون البركة المذكورة أيضاً بواسطة سور الأقواس المحمول عليه الماء الداخل إلى سلا، جدد قنوات المسجد الأعظم وأجراه به.

والظاهر أن هذا الماء الداخل إلى سلا، في عهد بني مرين، كان خاصاً أو مقصوراً على المسجد والمدرسة، ولم يعم المدينة كلها، بدليل قول ابن الخطيب في مقامة «المفاخرة بين مالقة وسلا»: (230)

و«الماء بها معدوم (يعني بسلا) وليس له جُبُّ معلوم، ولا يبر بالعذوبة مرسوم».

وقد كان هذا الماء جاريا بالمسجد الأعظم، إلى زمن السلطان المولى إسماعيل. إلا أنه كان يحصل فيه انقطاع، ويتعذر الوضوء على المصلين والمتعبدين به، بسبب فساد القنوات الجاري فيها، لقلته، أو لعدم إصلاحها وتعاهدها من حين لآخر.

وحيث كان هذا الإصلاح أو التعاهد يتطلب نفقات أو أحباسا خاصة يُنفق من وفرها عليه، كلما احتيج إلى ذلك، خصص رحمه الله، أولا على ما يظهر، ربع دخل الحوت الشابل المصطاد بالمشارع التي بوادي أبي رقرق لإصلاحها، وكان كثيرا جدا.

قد ذكره في «الاستبصار»، لما وصف الجسر الموحيدي على أبي رقرق، فقال: (231) وحوله يتصيد أنواع السمك والشابل.

وقال ابن الخطيب في «معيار الاختيار، في ذكر المعاهد والديار»: (232) «وكفى بالشابل رزقا طريا، وسمكا بالتفضيل حريا. يبرز عدد قطر الديم، ويعم حتى المدا شر النائية والخيم... إلخ».

وقد كان هذا في زمن ابن الخطيب وبعده، إلى زمن المولى إسماعيل وبعده. أما في زمننا هذا، فقد قلت كمية الشابل المصطاد بأودية المغرب على العموم، بالنسبة لما تقدم، بسبب بناء القناطر والسدود الحابسة للمياه، والمحركات الكهربائية، كما هو مشاهد.

ولا ندري، كيف كان تخصيص الربع الأول، هل بتحبيس خاص أو باتفاق مع أهل سلا والمتنفعين باصطياد الشابل من واديهما، لأن الأودية ومجاريها من الاملاك العامة التي ينتفع بها سائر المسلمين.

ثم انه لما رأى، رحمه الله، قلة الماء في المسجد، واحتياج قنواته إلى الإصلاح والتجديد المتجدد، وعدم كفاية ما خصص لها من الربع من ربع حوت الشابل، أمر بإضافة الأرباع الثلاثة الباقية إلى الربع الأول، وحبس الجميع بظهير شريف على إصلاح قنوات المسجد المذكور بسلا خاصة، وجلب الماء إليه في قالدوس خاص، وأمر بأن يصلح ويتعاهد بالبناء وغيره.

ويست النظر والتصرف في هذا الحبس، لناظر الأحباس العامة والخاصة بسائر مملكته، الأمين أبي عبد الله محمد الكاتب الأندلسي. (233)

(231) ص 141، طبع الاسكندرية.

(232) ص 105، طبع الاسكندرية.

(233) كان هذا الكاتب في الدولة الإسماعيلية بمنزلة وزير عموم الأوقاف اليوم.

## ونص الظهير الشريف المذكور

كما هو مسجل بالحوالة الإسماعيلية ، للأحباس الكبرى السلوية : (234)

الحمد لله.

نسخة ظهير كريم، وكتاب مولوي جسيم، وأمر مؤكّد صميم، والطابع الشريف الذي ضمن إسمه المبارك المنيف، بين سطري الحمدة والافتتاح، نصه :

الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما .

عن الأمر العلي، والاذن المولوي، الامامي، السلطاني، المؤيدي، المنصوري، أمير المؤمنين، إسماعيل بن الشريف الحسني، أيد الله أوامره، وخُلد في الصّالحات مآثره الدينية، ومعالمه الزكية، ومفاخره، أمين.

يتعرف من يقف على مسطورنا هذا، المحفوف باليمن والاقبال، الطالع في سماء معالي التعظيم ومراقي الإجلال، من القضاة والنظار، وأهل المعرفة بالأحباس ومصارفها، ومرافقها، أنّنا لما ثبت عندنا، أنّ من المرافق الكبيرة، والمصالح الأثيرة الخطيرة، بمحروسة سلا، كالأها الله وصانها، جلب الماء الخارج عن سورها، من العين التي هنالك إلى مسجدها الأكبر بأعلامها، بقادوس يخصه، وأنّ ذلك يتوقّف على التعاهد بالبناء والعلاج بالانتقان.

اقتضى نظرنا السديد، أنّ صرفنا على ذلك كله، جميع مستفاد المشاريع التي بوادي مرساة سلا، الفاصل بين عدوتيهما، المعدة لاصطياد الحوت في جميع الأماكن المعروفة هنالك بالوادي المذكور، على أن يكون جميع ذلك قبالة الماء المذكور، للمسجد المذكور، بالرّبع الذي كان قبل هذا لإصلاح السّاقية التي هنالك، يُضاف للثلاثة أرباع الباقية للماء المذكور، ويصنّف الجميع المذكور خاصة في إيصاله وإصلاحه وتعاهده بالبناء وغيره، من جملة أوقاف المسجد المذكور، محترم باحترامها، حبسا مؤبّدا، ووقفا مخلّدا، لا يبدل عن حاله، ولا يُغيّر عن سبيله، ومن بدل أو غيّر، قاله حسيبه وسائله، وولي الانتقام منه.

وما كان من إصلاح الساقية من ربع المشاريع المذكورة، يصير الآن من أوقاف المسجد المذكور، حيث أضفناه للأرباع الباقية، وجعلناها مصرفا واحدا.

وبسطنا لناظر الأحباس، العامّة والخاصّة لسائر اياتنا السعيدة، الأمين، العارف،  
الفقيه، السيد محمد الكاتب الاندلسي، يد الحوز والتّصرف فيما حبّسناه، يُصرف خراجهُ  
فيما عيّنهُ، بسطاً كلياً من غير منازع ولا معارض.

وحسب الواقف عليه من القضاة والعُدول إمضاؤه، والاشهاد بما فيه، وتدارك تسطيره  
بديوان الاحباس، وحياطته بتلافيه.

والسلام.

في فاتح جمادى الأولى من عام ثلاثة عشر ومائة وألف (1 جمادى I 1113 / 14 أكتوبر  
1701)

وبعده :

انتهت. قوبلت بأصلها فمأثنته، واطلعها (كذا) الفقيه الاجل، العلامة الأكمل قاضي عدوة  
سلا ونواحيها، وخطيب جامعها الأعظم، وهو : محمد بن سعيد المصوري (بشكله) أعزه الله  
وحرسها، وعاین حفظه الله الاصل المنتسخ منه، فثبت عنده، وصحّ لديه، ونقلها إلى هنا من  
عين الرسم المنتسخ منه، وشاهد في صدره الطابع الكريم فعرفه وتحقّقه من غير شك ولا  
ريب. وهو وفقه الله ودامت كرامته، بمجلس حكمه وقضائه، ومحل نظره، ويحيث يجب له ذلك  
من حيث ذكر.

وفي أواخر جمادى الأولى عام ثلاثة عشر ومائة وألف (أواخر جمادى الأولى 1113 /  
أكتوبر 1701) : العدلان بشكليهما.

وبعهما :

الحمد لله.

رفع على خط الشاهدين لموتهما عدل فقبل. وأعلم به عبد الله تعالى : بناصر معنين،  
(بشكله)

وبعده :

الحمد لله.

الشكل بالخطاب أعلاه للفقيه السيد بناصر معنين، كان رحمه الله متولياً خطّة القضاء  
بسلا حرسها الله، يفصل بين خصومها، ويخاطب على رسومها، إلى أن توفّي بوصفه

المذكور، في علمه. قاله عارف شكله مُعرِّفًا به في ثامن عشر شعبان المبارك عام خمسة وثمانين ومائتين وألف (18 شعبان 11/1285 دجنبر سنة 1868) شكل العدل المعرف.

وبعد صدور هذا الظهير الشريف، المتضمن لإضافة الأرباع الثلاثة للربع الأول، من ربيع الحوت الشابل المصطاد من مشارع أبي رقرق، وقع الشروع في إصلاح القناة وبناء قادوس خاص لجلب الماء إلى المسجد، ثُمَّ تبين أن دخل الشابل المذكور لا يفي بالنفقة الكبيرة التي يتطلبها عمل كبير كهذا، فاجتمع أعيان سلا من ذوي المعرفة والرأي، ورفعوا موجبا للسلطان المولى إسماعيل بمكناس يطلبون فيه منه الاذن لهم في صرف ما يفضل من دخل الأحباس بعد أداء أجور الموظفين الدينيين بالمسجد المذكور على إتمام عمل جلب الماء إليه.

ونص الموجب الذي رفعوه: (235)

الحمد لله.

وقف شهوده الموضوعة أسماؤهم عقب تاريخه، وهم جماعة أعيان سلا... وغيرهم على عين خدمة بناء الماء المجلوب من القبة خارج المدينة المذكورة الذي أمر بجلبه سيدنا أدام الله نصره، وأطلع في سماء المعالي شمسه وبدره، للمسجد الأعظم من مدينة سلا المذكورة، وسعى في وصوله إليه، رجاء تحصيل ثوابه العظيم، تقبّل الله منه ذلك، وجعله عليه حسنة جارية لا تنقطع إلى يوم الدين، فنظروه نظرا شافيا، واختبروه اختبارا كافيا، وعينوا ذلك البناء المتقن البديع الذي جئ به على أحسن هيئة وأفضل صنيع، وتطوّفوا به يمينا وشمالا، فاقتضى نظرهم السديد، ورأيهم الموفق الرشيد، وظهر لهم أن هذا البناء الموجود الآن في غاية ما يكون من الصلاح والإتقان والاستقامة، وأن استمرار الخدمة على هذا العمل بالمال المعين من الجانب العلي بالله من مستفاد مشرع الحوت، يُرجى بلوغ الماء معها لا محالة للمسجد المذكور. وأن من الصلاح والسداد الذي اتفقت عليه آراؤهم أن يستعان على ذلك بوفر الأحباس لينتفع به إن شاء الله الخاص والعام من الناس، وأن كل ما فضل عن إقامة المسجد، ومُرتّب أهل الوظائف، أولى وأحق أن يصرف في ذلك زيادة على ما ذكر، ومنفعته أعظم إن استعمل هنالك، وأنه لا ضرر على المسجد في صرف وفره فيه.

كل ذلك في علمهم وتحققهم لا يشكّون فيه. وقيدوا على ذلك شهادتهم مسؤلة منهم.

وفي الثاني عشر من ذي الحجة عام سبعة عشر ومائة وألف (12 ذو الحجة 1117/27 مارس سنة 1706).

- السيد عبد العزيز فنیش
- المكرم أحمد بن علي أمعدل
- المسن الحاج عبد الرحمان مَعْنِينُ
- الأمين الحاج أحمد الصبايحي
- المكرم الحاج علي المديوني
- المكرم الحاج عبد الله العوفي
- الفقيه السيد مسعود الزموري
- السيد علي بن الفقيه السيد محمد الشماخ
- المكرم الحاج عبد الرحمان يوحيمدة
- المكرم الحاج محمد جفال
- المكرم عبد العزيز بنعيسى
- السيد الحاج عبد الرحمان يشو
- المكرم الحاج الخضر ولعلو
- المكرم الحاج عبد الله بن الحسن
- المكرم الحاج عبد الرحمان الميرني
- المكرم الحاج موسى النجار
- المكرم الحاج حدو زنبير
- الارضى السيد محمد بن فارس الشريف
- المكرم الحاج أحمد بوشنتوف
- المكرم محمد بن سعيد الماسي
- الحاج حمو بن الحسن

شهدوا لدى من قدّم لذلك بموجبه فتّبت

الحمد لله .

أشهد الفقيه الاجل العلامة الأكمل، المدرس البركة، قاضي مدينة سلا وخطيب جامعها الأعظم في حينه وهو. . .

أعزه الله تعالى وحرسها بثبوت الرسم أعلاه الثبوت التّام بصحته عنده، وثبوته لديه بواجبه، وهو حفظه الله تعالى بحيث يجب له ذلك من حيث ذكر، وفي التاريخ أعلاه، العدلان بشكليهما .

الحمد لله

أعلم باستقلاله بعد الأداء عبد ربه تعالى...

ولمّا رُفِعَ هذا الموجب للحضرة السلطانية بمكناس، أحواله على قاضي الجماعة بها العلامة أبي عبد الله محمد أبي مدين بن حسين السّوسيّ، فوافق على ما طلبه أهل سلا من صرف ما يتوفّر من أحباس سلا على إكمال إجراء الماء إلى مسجدها الأعظم وحرّر بذلك وثيقة شرعية نصّها: (236)

الحمد لله .

لمّا طوّل الفقيه الأجل، العلامة الأفضل، المدرس البركة، الحافظ الحُجّة، المحدث الراوية، الخطيب البليغ، قاضي الجماعة بالحضرة الهاشمية محروسة مكناسة، ومفتيها وإمامها، وهو : محمد أبو مدين بن حسين السّوسيّ أعزه الله تعالى وحرسها بما سطر بمحوّله من شهادة الجم الغفير، والعدد الكثير، من أعيان محروسة سلا، أمّنها الله تعالى، من أعيان العدول وغيرهم، بأنّ في تصيير وفر حبس مسجد الثغر المذكور عمره الله تعالى بدوام الذكر فيه، في الماء المجلوب لها، حسبما ذكر واطر بمحوّله صلاحا وسدادا، وذلك من الأمر الواجب المتعين لما فيه من المصلحة العامّة، خصوصا وظيفة الدين التي يجب القيام بها شرعا، وأمعن النظر فيه كما يجب، وثبت لديه حفظه الله تعالى بموجب الثبوت، أنّ سدّده الله تعالى لمن له القيام بذلك فيما ذكر من تصيير الوفر المذكور فيما ذكر على الوجه المذكور، لما ثبت عنده حفظه الله تعالى من المصلحة المذكورة المشهود بها حيث أُشِير، ووافق

على ما يصير فيه إذناً وموافقة تأمين، شهد به على من ذكر، دامت كرامته، وهو أكرمهم الله تعالى بحيث يجب له ذلك من حيث ذكر.

وفي أواسط المحرم الحرام فاتح عام ثمانية عشر ومائة وألف (أواسط المحرم 1118/ أواخر مارس 1706).

عبد الوهاب العرائشي وفقه الله، مسعود بن عبود وفقه الله.

انتهت. قابلها بأصلها فمأثلت، وأشهده الفقيه الأجل، العلامة الأفضل، المدرس البركة، قاضي الجماعة بمدينة سلا، وخطيبها وهو...

أعزه الله تعالى وحرسها بثبوت الرسم عنده الثبوت التام، لصحته عنده، وثبوته لديه بواجبه، وهو حفظه الله تعالى بحيث يجب له ذلك من حيث ذكر.

وفي السادس من صفر الخير من العام الثامن عشر بعد المائة والألف (06 صفر 1118/22 ماي 1706).

ولمّا أطلع قاضي سلا على إذن قاضي الجماعة بمكناس، في استعمال وفر الأحباس، في النفقة على إتمام العمل في جلب الماء إلى المسجد في قادوس أو قناة خاصة، أقام موجبا من أشياخ البصر، والمعلمين البنّاعين والنجارين، بأن العمل الجاري في جلب الماء من المصالح العامة، وإن الخدمة فيه تسير باستمرار وإتقان، جاء فيه: (237)

الحمد لله.

وقف شهوده الآتية أسماؤهم عقب تاريخه، وهم من أشياخ البصر المعلمين البنّاعين والنجارين لأحجار البناء وخشبه على عين بناء الماء الجاري المطلوب من القبة خارج مدينة سلا، حاطها الله تعالى، الذي أمر بجلبه مولانا أمير المومنين، أدام الله له النصر والتأييد، وأعلا في منار العز أفضقه السعيد، للمسجد الأعظم من المدينة المذكورة، وسعى في وصوله إليه، ورجا أن يكون ثوابه قاصرا عليه، تقبل الله ذلك منه، وجعله عليه حسنة إلى يوم الدين.

وسئل منهم اختبار البناء المحدث الآن لجلب الماء، وهل في ذلك صلاح وسداد، واتقان ورشاد، فجابوا إلى ذلك، ونظروهم نظرا شافيا، واختبروه اختبارا كافيا، فظهر لأهل المعرفة المذكورين، بدليل معرفتهم، وما أداه إليه اجتهادهم، وإليه المرجع في علم ذلك بمحروسة